يا بانى فى مكة

تاكيشي سوزوكي

ترجمة وتعليق:
أ.د. سمير عبدالحميد إبراهيم
سارة تاكاهاشي

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

سلسلة الأعمال المحكمة (١١١)

ياباني في مكة

تاكيشي سوزوكي

ترجمة وتعليق

أ.د. سمير عبدالحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشي

مراجعة

أ.د. زيد بن عبدالكريم الزيد

الرياض ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

ⓒ مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، ١٤٣١هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

سوزوكي ، تاكيشي

ياباني في مكة . / تاكيشي سوزوكي؛ سمير عبدالحميد إبراهيم (مترجم) - ط٢ . - الرياض ، ١٤٣١هـ

٢٨٤ ص؛ ١٧× ٢٤ سم .ـ (سلسلة الأعمال المحكمة ؛ ١١١).

ردمك: ٥ـ٤٠ـ٨٠١٩ـ٦٠٣ـ ٩٧٨

١ـ مكة المكرمة ـ وصف رحلات ٢- مكة المكرمة - تاريخ

أ. إبراهيم؛ سمير عبدالحميد ابراهيم (مترجم) ب - العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٢٠٤ ١٤٣١/١٣٨٤

رقم الإيداع: ١٤٣١/١٣٨٤

ردمك: ٥ـ٤٠ـ٨٠١٩ـ٦٠٣ـ ٩٧٨

العمل مترجم من اللغة اليابانية من كتاب :

メッカ巡礼記

鈴木　剛

حقوق الطبع والنشر للترجمة العربية محفوظة

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

الرياض ١٤٣١هـ/ ٢٠١٠م

ص.ب: ٨٦٤٨٦ الرياض ١١٦٢٢

هاتف : ٠٠٩٦٦١ ٤٩١١٣٠٠ - فاكس: ٠٠٩٦٦١٤٩١١٩٤٩

www.kapl.org.sa

يابانـي فـي مـكـة

تاكيشي سوزوكي

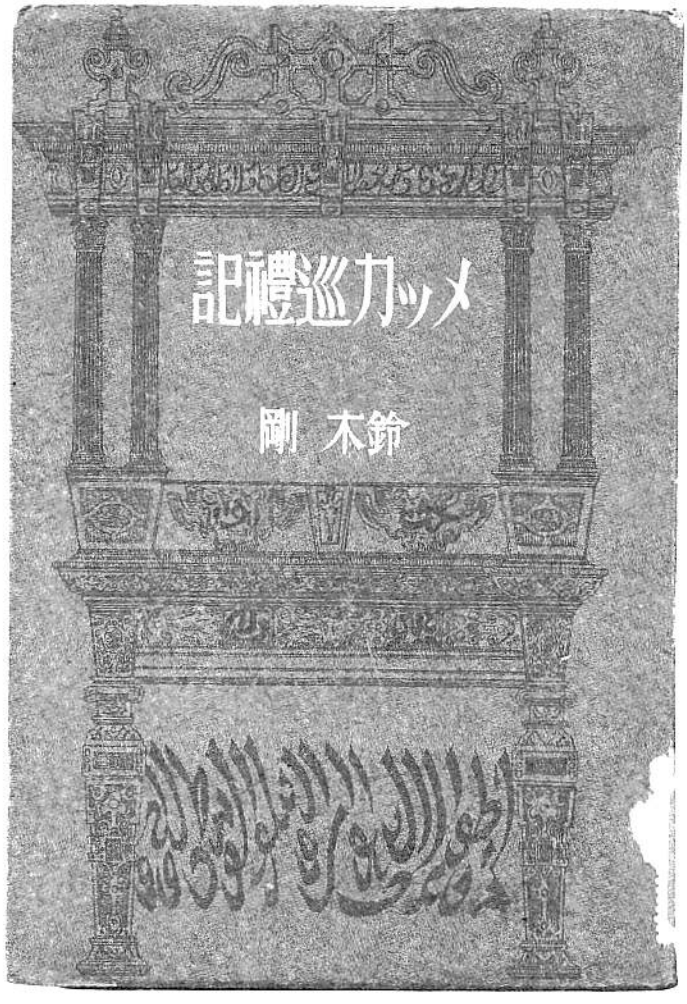

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

إهـــــداء

إلى خادم الحرمين الشريفين

الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود

الذي كان لزيارته لليابان عندما كان ولياً للعهد أعظم الأثر في نفوس المسلمين اليابانيين.

إلى الرجل الذي رسم الابتسامة على وجوه مسلمي اليابان بكرمه وسخائه..

نهدي هذه الترجمة

أ.د. سمير عبدالحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشي

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تصدير	١٥
تقديم بقلم رئيس جمعية مسلمي اليابان الأستاذ خالد هيجوتشي	١٧
مقدمة الترجمة بقلم أ. د سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشي	٢١
بين يدي الكتاب بقلم المؤلف	٣٧
مقدمة الرحلة بقلم المؤلف	٤٣
الباب الأول : الأرض المقدسة أرض أحلامي.	
ـ الرحيل من ميناء كوبيه	٤٩
ـ التحايل على الدخول في مصر	٥٢
ـ مبنى القنصلية السعودية	٥٦
ـ من القاهرة إلى السويس	٦٠
ـ جمرك السويس	٦٦
ـ صعود السفينة في السويس	٦٩
ـ سفينة الحجاج	٧٣
ـ فيلم دعائي على ظهر السفينة	٧٨
الباب الثاني : الوصول إلى صحراء جزيرة العرب.	
ـ ملابس الإحرام	٨٣
ـ الخطوة الأولى على أرض جزيرة العرب	٨٤
ـ مساكن الحجاج	٨٩
ـ صبيان المطوفين	٩٤

- مزدلفة ١٨٢
- وادي منى ١٨٦
- جمرة العقبة ١٨٩
- طواف الإفاضة ١٩١
- فشل محاولة اغتيال الملك ابن سعود ١٩٣
- هجوم الناموس ١٩٨
- إلى منى من جديد ٢٠٠
- ذبح الهدي ٢٠٣

الباب الخامس : حماس شعوب أمة الإسلام

(اجتماع الأسود والأبيض والأصفر والأحمر).

- مقابلة الملك ابن سعود ٢١١
- الملك ابن سعود ٢١٧
- المؤتمر الديني ٢٢٤
- الاتجاهات الإسلامية في المؤتمر الديني ٢٢٩
- بعد العيد الكبير - زيارة وزير المالية السعودي ٢٣٦
- إلى مكة من جديد ٢٣٩
- رواق الهنود ٢٤١
- مرض السيد / تشان ٢٤٧
- وفيات الحجاج ٢٥٢
- الجواري ٢٥٦
- أمطار في مكة ٢٦١

ـ الرحيل من جدة ٩٥
ـ على مشارف الأراضي المقدسة ٩٩
ـ طريق الحج ١٠٢
ـ بوابة مكة ١١٢

الباب الثالث : الحرم المكي المقدس.

ـ الوصول إلى مكة ١١٩
ـ إلى الكعبة ١٢٠
ـ ساحة الحرم ١٢١
ـ الحجر الأسود ١٢٣
ـ السعي بين الصفا والمروة ١٢٥
ـ الحلق والتقصير ١٢٦
ـ الليلة الأولى من مكة ١٢٨
ـ نهار في مكة ١٣١
ـ مطبخ على السطح ١٤٠
ـ المهرجان الكبير ـ الوقوف على جبل عرفات ١٤٣
ـ غرفة الحريم ١٥٠
ـ الزواج في جزيرة العرب ١٥٧
ـ نخلة بعشرة آلاف جنيه ذهبي ١٦٥

الباب الرابع : الوقوف على عرفات ، العيد الكبير ، مئتا ألف حاج.

ـ إلى جبل عرفات ١٧١
ـ خطبة عرفات ١٧٦

الباب السادس : بلوغ المرام

ـ العودة ٢٦٩
ـ الرحيل من جدة ٢٧١
ـ معرض المنتجات اليابانية ٢٧٥
ـ الكرنتينة (الحجر الصحي) في جبل الطور ٢٧٩

قائمة الصورة

الموضوع **الصفحة**

الصورة رقم ١ المؤلف مع أحد التجار الإندونيسيين ٣٦
الصورة رقم ٢ وجوه عربية ٥٧
الصورة رقم ٣ وزير مالية كانو في أفريقيا ٧٤
الصورة رقم ٤ منظر من مدينة جدة ٨٨
الصورة رقم ٥ ولي عهد كانو في غرب أفريقيا ٩٢
الصورة رقم ٦ مقهى في بحرة ١١٠
الصورة رقم ٧ بائع البطيخ في مكة ١٢٣
الصورة رقم ٨ مبنى على الطراز العربي ١٣٤
الصورة رقم ٩ قوافل الجمال متجهة إلى عرفات ١٤٦
الصورة رقم ١٠ منظر من السيارة لجبل حراء (جبل النور) ١٧٢
الصورة رقم ١١ المؤلف أمام الخيمة المقامة في عرفات ١٧٥
الصورة رقم ١٢ منظر في عرفات ١٧٨
الصورة رقم ١٣ حرس الملك ابن سعود ١٨١
الصورة رقم ١٤ منظر وادي منى ١٨٧
الصورة رقم ١٥ رمي الجمرات في منى ١٩٠
الصورة رقم ١٦ الزحام في منى ١ ..... ٢٠٠
الصورة رقم ١٧ الزحام في منى ٢ ..... ٢٠٢
الصورة رقم ١٨ جانب من المؤتمر الديني يضم حجاجًا إندونيسيين ٢٢٧
الصورة رقم ١٩ منظر من المؤتمر الديني ويشاهد المفتي أمين الحسيني ٢٣٤
الصورة رقم ٢٠ مقهى في مكة ٢٤٥
الصورة رقم ٢١ منظر من مدينة مكة ٢٥٧

تصدير

﴿إنَّ أولَ بيت وُضعَ للناس للذي ببكّةَ مُباركاً وهُدى للعالمين ، فيه آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيمَ ومَن دَخَلَهُ كانَ آمنًا ولله على النَّاس حجُ البيتِ مَن استطاعَ إليهِ سبيلاً ومَن كَفَرَ فإن اللهَ غنيٌ عنِ العَالمين﴾ ٩٦/ ٩٧ آل عمران .

تحتل الجزيرة العربية عمومًا ، والأماكن المقدسة خصوصًا ، منزلة خاصة لدى كثير من المسلمين وغير المسلمين، في مشارق الأرض ومغاربها ، ومصدر جذب للشعوب والحضارات منذ فترة طويلة ، تصل إلى ما قبل التاريخ ، هذا ما وافتنا به كتب التاريخ والرحلات ، حيث التجّار والغزاة والجواسيس وغيرهم ، بسبب ما تمثله كمنطقة من مناطق الحضارات القديمة ، وملتقى طرق التجارة ، ونقطة اتصال الأمم والشعوب الأخرى ، ومن منظور إسلامي ، يرجع السبب في الأهمية ، لإنها قبلة المسلمين ، ومهوى أفئدتهم ومشاعرهم ، حيث الكعبة المشرفة ، وبئر زمزم ، ومقام سيدنا إبراهيم عليه السلام . . . ، تعتري قلوب المسلمين شوقًا وحبًا عند سماعهم ومشاهدتهم لها ، فقد تناول كثير من كتب الرحلات في أدبنا العربي والأدب العالمي مكة المكرمة ، حيث وصفت هذه المدينة المقدسة وصفًا دقيقًا اجتماعيًا واقتصاديًا وسياسيًا وجغرافيًا غاية في الأهمية ومصدرًا ثريًا للباحثين والمتخصصين للتعرف على جوانب كثيرة من مناحي الحياة فيها ، يأتي كتابنا هذا (ياباني في مكة) من هذه المصادر التي تناولت هذا الجانب .

النسخة اليابانية لهذا الكتاب ، والتي تم طباعتها ونشرها لأول مرة عام ١٣٦١هـ

الموافق ١٩٤٣م في اليابان ، رأت مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض في عام ١٤١٩هـ الموافق ١٩٩٩م ، ترجمة ونشر هذا الكتاب باللغة العربية ، وذلك بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية ، وقد لاقى هذا الاصدار في ذلك الوقت قبولاً لدى الأوساط الثقافية والأدبية في المملكة ، وفي كثير من المناسبات الثقافية والعلمية التي تشارك بها المكتبة أقليميًا وعالميًا ، وما معارض الكتاب الدولية إلا مناسبة من هذه المناسبات الثقافية الدولية ، التي يلتقي فيها المثقفون والمهتمون وأصحاب التخصص من أغلب الجنسيات ، وبعد نفاذ كامل النسخ المطبوعة ، رأت المكتبة أن إعادة نشر الترجمة العربية من الضرورات التي التزمت بها المكتبة تجاه قرائها ، وإثراء للمكتبة العربية عمومًا ، والمكتبة السعودية على وجه الخصوص .

والمكتبة وهي تقدم هذا الكتاب ، يحدوها الأمل أن تتحقق به الفائدة ، وتنير الطريق إمام الباحثين المتخصصين ؛ للإستفادة مما ورد به من معلومات وحقائق وصور متنوعة .

والله من وراء القصد .

مكتبة الملك عبدالعزيز العامة

تقديم

تحتفل جمعية مسلمي اليابان مع المملكة العربية السعودية بمرور بمئة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود، والاحتفال المئوي يمثل بالنسبة إلى مسلمي اليابان ذكرى خالدة، فقد مد الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ يد العون والمساعدة إلى المسلمين اليابانيين، ورحب بمن زاروا المملكة العربية السعودية، وتشرفوا بلقائه والسلام على جلالته، وكان ـ رحمه الله ـ شخصية جذبت إليها كل من زار المملكة العربية السعودية، فعاد المسلمون اليابانيون، ليسجلوا خواطرهم وذكرياتهم الجميلة، بعد لقائهم بجلالته، مؤسس الدولة الحديثة.

والحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) واحد من هؤلاء اليابانيين الذين زاروا المملكة العربية السعودية، وأعجبوا بالملك عبدالعزيز آل سعود، فكتب مذكراته عن الحج إلى مكة المكرمة، وأفرد فصلاً كاملاً عن الملك عبدالعزيز، بالإضافة إلى ما ورد في الصفحات الأخرى عنه رحمه الله.

ولا يخفى على أحد أن أبناء الملك عبدالعزيز آل سعود، استمروا على نهج والدهم الكريم، يمدون لنا يد العون والمساعدة، بأشكال مختلفة؛ مما كان له عظيم الأثر في دعم نشاط الدعوة الإسلامية في اليابان.

وفي الأسابيع الماضية تشرفنا بزيارة صاحب السمو الملكي الأمير عبد الله بن عبدالعزيز آل سعود، ولي العهد، نائب رئيس مجلس الوزراء، رئيس الحرس

الوطني الذي شملنا بعطفه ورعايته، وبلّغنا سلام أخيه خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز آل سعود، وقدم لنا تبرعاً كريماً، سيمكننا من شراء مقر جديد لجمعيتنا، وزيادة نشاطنا في مختلف المجالات التي تهدف في النهاية إلى نشر الإسلام في اليابان.

وهذه الرحلة التي ترجمت إلى اللغة العربية تعطي القارئ العربي فكرة عن شخصية الياباني المسلم، وعن عاطفته الدينية، ومحبته للأماكن المقدسة وتقديره للملك عبدالعزيز الذي أسس الدولة السعودية الحديثة، التي غيرت مجرى تاريخ المنطقة.

ولا يفوتني هنا أن أشكر من قاما بترجمة هذه الرحلة وتحريرها الأخ الأستاذ الدكتور سمير عبد الحميد إبراهيم الأستاذ بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، والأخت السيدة / سارة تاكاهاشي، كما أشكر مكتبة الملك عبدالعزيز العامة التي أخذت على عاتقها طبع الترجمة العربية ونشرها، وتقديم فكر أدبي إسلامي ياباني للقراء العرب لأول مرة في التاريخ.

وبالله التوفيق. ، ، ،

خالد هيجوتشي

رئيس جمعية مسلمي اليابان

(الهيئة الرسمية المعترف بها لدى الحكومة اليابانية)

طوكيو

رمضان ١٤١٩هـ

ديسمبر ١٩٩٨م

はじめに

アブドルアズーズ・ビン・アブドルラハマーン・アール・サウード国王がサウジアラビア王国を建国してから１００周年を記念した 1999 年、ハッジ・ムハンマド・サーレハ鈴木剛の著による「メッカ巡礼記」のアラビア語版がアブドルアジーズ国王記念図書館から発行されました。また同時期「近代サウジアラビア王国建国の祖―アブドルアジーズ王の生涯」が日本サウジアラビア協会とアル＝イマームムハンマド・ビン・アブドルラハマーン・アール・サウード　イスラーム大学によって発行されています。

その前年の１９９８年に当時皇太子であられたアブドッラー国王が訪日され、その時には日本ムスリム協会幹部が拝謁する機会を与えられ、同国王から日本ムスリム協会に新事務所を購入するための寄付金をいただきました。おかげでその後の協会活動はより一層活発になりました。

上記「メッカ巡礼記」のアラビア語版が出版された折にも、アラビア語版に追加した解説も含めた日本語版の再版が期待されました。そして今回、日本人読者の要望にも応え、前書きや役立つ解説文も加えて、この日本語版が再出版される運びとなりました。

この日本語版はきっと日本人読者がイスラームやイスラーム文化に興味を抱く上により深く影響

を与えることになるでしょう。
日本ムスリム協会は前回この本のアラビア語和訳を行い、今回もその日本語版発行に努力されたサミール・アブドルハミード・イブラーヒーム博士およびサーラ高橋夫人に対して感謝いたします。またこの貴重な本の再出版を快諾して下さったアブドルアジーズ国王記念図書館とその関係者にも感謝いたします。
彼らにアッラーの祝福がありますようにと祈ります。

日本ムスリム協会
会長　アミーン徳増公明

２０１０年３月　東京

مقدمة الترجمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسول الله . .

وبعد:

فهذا الكتاب "ياباني في مكة" الذي نقدم ترجمته إلى قراء العربية، إسهام متواضع للكشف عن جوانب مجهولة من أدب الرحلات الياباني، كما أنه إسهام متواضع يكشف النقاب عن نمط أدبي فريد، فمؤلفه الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) ياباني عشق وطنه، وتغنى بمحاسنه، وعمل من أجله، وهو أيضاً مسلم، اعتنق الإسلام بعد أن عاش بين المسلمين في جزر إندونيسيا عدة سنوات، فتعلم مبادئ الإسلام، وآمن بالدين الحنيف قولاً وعملاً، وطبق مبادئ الإسلام وأصوله تطبيقاً عملياً حتى صار - كما قال - مسلماً بحق.

والحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) أديب مرهف، يجيد التعبير عن أحاسيسه بدقة متناهية، رغم تواضعه وتصريحه بعدم قدرته على التعبير، وهو ناقد يحلل ما يرى وما يسمع من أمور، فيقبل الصحيح، ويرفض ما دون ذلك، ويعرض للقارئ رأيه دون تعصب، ويكشف عن مكنون قلبه، دون مداراة، ولهذا اكتسبت كتاباته هنا أهمية كبيرة، كما أن آراءه التي أبداها في كتابه هذا، ستحظى بلا شك، باهتمام كل من يطالع هذا الكتاب.

أدى الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) مناسك الحج ثلاث مرات، ولم يشأ أن يكتب عن رحلته الأولى (حج عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م) ولا عن رحلته الثانية

(حج عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م)، ولكنه دوّن مذكراته بعد فترة من أدائه لمناسك الحج في المرة الثالثة (حج عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م)، بل طبع كتابه الذي جعل عنوانه باليابانية "سيتشي مكة جيرني Seichi Makkah Journey" أي الحج إلى مكة المكرمة، بعد مرور عدة سنوات أي سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٣م.

كتب المؤلف كتابه الذي فضلنا أن تكون ترجمة عنوانه "ياباني في مكة" عن رحلته الأخيرة إلى الأماكن المقدسة، وكان يستطرد أحياناً، فيذكر بعض المواقف التي حدثت له في رحلته الأولى أو الثانية.

من هو تاكيشي سوزوكي (الحاج محمد صالح)؟

ولد تاكيشي سوزوكي في إبريل سنة ١٩٠٤م (في عصر ميجي سنة ٣٧) في محافظة كاناغاوا Kanagawa القريبة من طوكيو، من أسرة مكونة من أربعة أطفال هو أصغرهم، كان من بين إخوته من نبغ في فن الرسم، في حين هناك من عمل بوزارة النقل والمواصلات، ويقال إن تاكيشي سوزوكي لم يواصل تعليمه في المدرسة الثانوية؛ لأنهم كانوا يحثونه دائماً على التفوق مثل إخوته، ويقارنون بينه وبينهم.

انقطعت أخباره، ثم ظهر بعد فترة، وكان يعمل في شركة "كانيو كوهاتسو Kanyo Kohatsu" التجارية، وبدأ يسافر إلى جزر "نيوغوينا New Guinea" في شرقي إندونيسيا.

ويذكر ابن أخيه الأكبر ويدعى "كازوهيكو Kazuhiko" أنه حين كان تلميذاً صغيراً في المدرسة الابتدائية كان يشاهد عمه تاكيشي سوزوكي وهو يحمل حقيبة ضخمة مملوءة بسهام إفريقية، كتلك التي تستخدم في الصيد في أدغال إفريقيا، بالإضافة إلى طيور محنطة، وفي كل مرة كانت الحقيبة تحتوي على أشياء غير عادية، يأتي بها العم من جزر جنوبي شرقي آسيا.

كانت أسرة تاكيشي سوزوكي تعتقد أن ولدها قد "فشل" في حياته، ولم يعد لدى أسرته أو أقاربه أي أمل في إعادته إلى الحياة بالأسلوب الذي ترتضيه الأسرة له، لكنهم بعد أن شاهدوه يعيش حياته بطريقة سوية، وبعد أن شاهدوا التغيير الملحوظ الذي طرأ على شخصيته، غيروا رأيهم.

كانت خلاصة رأيهم فيه هو أن تاكيشي سوزوكي شاب عجيب، لكنه يسلك سلوكاً طيباً في حياته، ويُصرّف أموره تصريفاً جيداً، والتغيير الذي طرأ على حياته، كان تغييراً إلى الأحسن، خصوصاً بعد أن سافر تاكيشي سوزوكي (الحاج محمد صالح) لأداء مناسك الحج.

كان الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) كلما سافر إلى الحج، رجع مُحملاً بالهدايا القيِّمة لأسرته ولأقاربه، وتنوعت هذه الهدايا، لكنها كانت في معظمها من الساعات الغالية المصنوعة في أوربا، وكان يغدق على الجميع بسخاء، يلفت الأنظار، ويثير العجب أحياناً.

وقبيل اكتمال بناء مسجد طوكيو (أُفتتح عام ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م) تزوج الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) وعقد قرانه في المسجد الذي كان على وشك أن يكتمل بناؤه، وهكذا تزوج زواجاً إسلامياً، وأنجب ثلاثة أطفال.

كانت أسرته تنظر إليه بتعجب، فهي لا تدري شيئاً عن تعاليم الإسلام، ويذكر ابن أخيه أن عمه الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) عاد إليهم مرة في "رمضان" وحدثهم عن (دانجكي Danjiki) أي الصوم، لكنه أكل "المكرونة اليابانية"!!

وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن الأخ هذا لا يفهم معنى الصوم في الإسلام، فالصوم في الإسلام من السحر حتى غروب الشمس، وللمسلم الحق في أن يأكل

ويشرب بعد الغروب وفي الليل، أما مصطلح "دانجكي" الياباني فيعني الامتناع عن الطعام والشراب امتناعاً متواصلاً لعدة أيام، وهذا ما يؤكد ضرورة استخدام المصطلح العربي في العبادات لدى المسلمين في جميع أنحاء المعمورة مهما اختلفت لغاتهم.

بعد أن أدى الحاج محمد صالح مناسك الحج ثلاث مرات، كثرت أسفاره إلى خارج اليابان، ولم يكن يخبر أحداً من أهله إلى أين يسافر؟! ولماذا يسافر؟! ومع من يسافر؟! وكان الناس يعرفون أنه يعمل محاضراً في مدرسة التدريب العسكري الخاضعة لإشراف المكتب العسكري المركزي العام.

سافر الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) إلى جزيرة جاوة بإندونيسيا في مهمة عسكرية لا يعرف تفاصيلها أحد، وكان آنذاك في الخامسة والثلاثين من عمره.

لكن الحاج مصطفى كومورا يذكر في كتابه تاريخ الإسلام في اليابان "نيهون إسلام شي" أن المكتب العسكري العام في اليابان أعد مشروعًا خاصًا ببلاد جنوبي شرقي آسيا بما فيها إندونيسيا، وضمن هذا المشروع تشكلت منظمتان مهمتان تخططان لبناء مستقبل أفضل لمسلمي إندونيسيا، وكانت المجموعة الأولى ومقرها جزيرة جاوة تعرف باسم "جماعة جاوة الإسلامية" في حين كانت المجموعة الثانية في جزيرة سيليبز تعرف باسم "جماعة سيليبز الإسلامية".

كان الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) هو قائد جماعة جاوة الإسلامية، كما كان نائب مدير "جمعيه المسلمين في طوكيو" قبل سفره، وقد تقلد رئاستها فيما بعد كما ذكر الحاج مصطفى كومورا في كتابه السابق ذكره. (ص ٣٧٣)

استمر الحاج محمد صالح يقود حركة الاستقلال الإسلامية في إندونيسيا لعدة سنوات، لكنه في (عام ١٣٩٩هـ/ ١٩٤٥م) بات واضحاً أن اليابان تواجه هزيمة

محققة، ولأول مره يقف تاكيشي سوزوكي ضد حكومته بوصفه الحاج محمد صالح الياباني المسلم، فقد كان يريد أن يتحقق لإندونيسيا استقلالها الكامل، عن طريق وضع دستور إندونيسيا قبل نهاية الحرب وهزيمة اليابان، وأراد أن يضع في بداية الدستور كلمة البسملة "بسم الله الرحمن الرحيم" لكن المسؤولين في الحكومة اليابانية، عارضوا ذلك، فأصر على موقفه قائلاً: إن هذا أمر يتعلق بالأخلاق الإسلامية، وهو شأن من شؤون الدين الإسلامي الذي يؤمن به المسلمون منذ ألف وثلاثمئة وخمسين سنة، وطبقاً للإسلام لا بد أن يبدأ دستور الدولة المسلمة باسم الله، ورفض العسكريون ذلك، واستمر النقاش، وطال النقاش، في حين كان الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) يريد الانتهاء بسرعة من وضع الدستور، ومن هنا قرر أن يسافر إلى اليابان، حتى يقنع المكتب العسكري المركزي هناك بوجهة نظره..

وتمكن من اللحاق بالسفينة التي كانت على وشك الإبحار، وقفز على ظهرها، وهو لا يدري أنه يقفز قفزته الأخيرة في هذه الحياة الدنيا.

ولا يزال ابن أخيه الأكبر يذكر أن إشاعة ظهرت (سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م) تقول: إن عمه تاكيشي سوزوكي يقود جماعة تتكون من مئة ألف مسلم، وأنه جاء مرة لزيارة الأسرة، وكان ابن الأخ هذا قد التحق بسلاح البحرية فقال له العم:

ربما نلتقي في جاوة، ربما تذهب إلى جنوبي شرقي آسيا، سوف أخبرك بشيء مهم..

ثم قال له جملة بالعربية، وأخبره أن هذه الجملة هي تحية الإسلام.

ولا يزال ابن الأخ، رغم مرور خمسين سنة، يتذكر هذه الجملة ألا وهي "السلام عليكم".

وقال له :

إذا حدث لك مكروه، أو واجهت سوءاً فيمكن أن تقول : لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

ثم أكد عليه قائلاً :

إذا عرفت هاتين الجملتين، فإن الله سيحفظك من كل شر.

كانت هذه آخر عبارة قالها تاكيشي سوزوكي لابن أخيه الذي التحق بسلاح البحرية الياباني، والذي لا يزال على قيد الحياة حتى يومنا هذا.

وفاة الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي):

قفز الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) إلى السفينة أوامارو Awamaru التابعة لشركة خطوط الملاحة اليابانية "نيهون يوسين Nihon Yusen" التي تبلغ من الطول ١٥٥ متراً وتزن ١١,٢٤٩ طناً، وتولت شركة ميتسوبيشي للسفن البحرية صناعتها (سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م (سنة ١٨ شوا)، وهي سفينة لحمل البضائع والمسافرين.

كانت سفينة حديثة جداً، ومن أحسن السفن التي صنعت في اليابان، بل لم يكن لها مثيل حتى في أمريكا.

غادرت السفينة أوامارو سنغافورة في الثامن والعشرين من شهر مارس سنة ١٩٤٥م، متجهة إلى ميناء "موجي" القريب من ياماغوتشي - كيوشو، كان من المفروض أن يكون على متنها ١٣٧ مسافراً فقط مع البضائع، لكنها حملت أكثر من ألفي مسافر، وهكذا اكتظت بالبضائع والمسافرين.

كان المسافرون من اليابانيين العاديين مع قليل من الضباط والجنود، وكانت أمريكا قد بدأت في احتلال المناطق التي كانت تسيطر عليها اليابان، ولهذا شعر اليابانيون هناك بالخطر، فبدؤوا يرجعون إلى اليابان، وكانت هذه السفينة هي آخر فرصة لهؤلاء الناس.

كانت السفينة تتمتع بحماية خاصة من قبل الأعداء والحلفاء، وكانت مسجلة، وقد طُلي جانباها باللون الأبيض، ورُسمت علامة صليب باللون الأخضر، وتم إبلاغ مسارها إلى دول الحلفاء، أمريكا وبريطانيا.

إلا أن الحاج مصطفى كومورا يصرح في كتابه السابق ذكره بأن المكتب العسكري المركزي في اليابان كان يريد استخدام السفينة لأغراض خاصة، وقد جمع الضباط الذهب الخام، والمطاط الخام، والقصدير، وخامات المفرقعات وما أشبه ذلك من جاكرتا وسومطرة وسنغافورة، من أجل تصنيع الأسلحة في اليابان، وقد وصل وزن هذه المواد على ظهر السفينة نحو ٨١٢ طناً، وكانت قيمتها أكثر من (٥ ٠٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠) خمسة بلايين دولار بسعر ذلك الوقت.

وفي الساعة العاشرة أو الحادية عشرة ليلاً يوم أول إبريل سنة ١٩٤٥م وبالقرب من تايوان، قامت الغواصة الأمريكية "كوين فيش Queen Fish" بإطلاق "الطوربيدات" على السفينة، التي غرقت في الحال، وقالت أمريكا على لسان أحد مسؤوليها: إن ما حدث كان عن طريق الخطأ، لكن لا أحداً يعرف الحقيقة!

غرق كل من كان على ظهر السفينة، ونجا من طاقمها شخص واحد فقط، يدعى "شيمودا كانتارو Shimoda Kantaro" الذي ذهب إلى بيت تاكيشي سوزوكي (الحاج محمد صالح) ليبلغ عائلته خبر الوفاة، ويشرح للعائلة كيف

حدثت الوفاة، ولا يعرف أحد سر العلاقة التي دفعت شيمودا إلى الحرص على الذهاب إلى أسرة الفقيد.

ذكر شيمودا أن تاكيشي سوزوكي ركب السفينة من جاكرتا، وأحضر معه حقائب كثيرة جداً، وفي سنغافورة تخلص من جميع هذه الحقائب، وحمل بدلاً منها حقيبة واحدة ثقيلة جداً، طلبها منه المكتب العسكري المركزي في طوكيو، وقبع سوزوكي في "كابينته" بجوار حقيبته، لا يفارقها أبداً!! ربما كان يحمل أشياء ثمينة جداً!!

وقال ابن أخيه للسيد "تكويا تازاوا" مؤلف كتاب "المسلمون اليابانيون" ما يأتي:

"يقولون إن هذه الحقيبة السوداء، كانت مملوءة بمجوهرات، تصل قيمتها مئة مليون (ين) بأسعار تلك الأيام، وكان العسكريون اليابانيون يريدون المجوهرات، لمقايضتها بمعدات عسكرية، لكن لا أحداً يعرف الحقيقة!!" (صفحة ١٧٧).

ونتيجة لغرق السفينة فقد مسلمو اليابان شخصية مهمة، هو الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) وفقدوا أيضاً مسلماً يابانياً آخر هو أكئيو كاساما الذي كان عضواً في الجمعية الإسلامية العظمى في اليابان التي يطلق عليها "داي نيبون كايكيو كيوكاي Dai Nippon Kaikyo Kyokai" وهي الجمعية التي كان يدعمها ويرأسها رئيس الوزراء سنجورو هياشي Senjuro Hayashi (١٢٩٣-١٣٦٢هـ / ١٨٧٦م-١٩٤٣م).

ويهمنا هنا أن نذكر أن الحاج محمد صالح (تاكيشي سوزوكي) كان يابانياً مسلماً قاد جماعة المسلمين الإندونيسيين، المناضلين من أجل الحصول على الاستقلال، وعارض الحكومة اليابانية التي رفضت أن تعترف بضرورة أن يكون

الدستور الإندونيسي دستوراً إسلامياً يبدأ باسم الله، كما أنه كان يحب وطنه حباً جماً، وضحى في سبيل أبناء وطنه، وكان سفره الأخير من أجل مسلمي إندونيسيا، فقد كان يسعى إلى إقناع السلطات اليابانية بالاعتراف بالدستور الإسلامي لإندونيسيا، قبل فوات الأوان.

ورحلته هذه تلقي الضوء على شخصيته تلك، ويستطيع القارئ الآن بعد أن رسمنا صورة واضحة لحياة المؤلف، أن يحلل كل ما ورد في هذه الرحلة من عبارات وجمل وأفكار خطها قلم المؤلف.

رحلة "ياباني في مكة" ومكانتها الأدبية :

تعد هذه الرحلة "ياباني في مكة" أو الحج إلى مكة المكرمة نموذجاً متكاملاً للنمط الأدبي المعروف "بأدب الرحلة"، وهو النمط الذي له علاقة بجميع العلوم الاجتماعية تقريباً، يستفيد منه كتاب السير، وعلماء الجغرافيا، وعلماء الاجتماع، وعلماء اللغة وغيرهم إفادة كبيرة.

وهذه الرحلة تضم بين ثناياها جميع أقسام الرحلات، المعروفة لدى الباحثين في أدب الرحلة، فهي قبل كل شيء رحلة دينية، ورحلة أدبية، وهي رحلة إدارية أو سفارية، كما أنها رحلة شخصية، وقد تكون رحلة تمويهية!

ويهمنا هنا أن ننظر إليها من حيث كونها رحلة أدبية، اعتمد فيها المؤلف، على المشاهدات العينية، وعلى ما سمعه من أخبار، وعلى مطالعة الرحلات السابقة التي كتبها غيره.

بدأ المؤلف رحلته بمقدمة عن الإسلام ومبادئه، ثم بمقدمة أخرى عن الرحلة

ذاتها، والظروف التي دفعته إلى القيام بها، وركز على الأمور الجغرافية والاجتماعية والثقافية والاقتصادية والعمرانية، ووصف الطرق والعمران، والمرافق، والظواهر المناخية، ووجه عناية خاصة إلى الأمور الاجتماعية، فتحدث عن البشر، وفئات المجتمع وطبقاته، ووضع الرجال والنساء في المجتمع، وغير ذلك، ولم تخلُ رحلته من ذكر رجال الدولة والعلماء وعلى رأسهم مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة الملك عبدالعزيز آل سعود طيب الله ثراه.

وتأتي هذه الأمور كلها داخل الإطار الأساسي وهو الحج ومناسك الحج.

رحلة الحج والأدب الإسلامي:

كم من مرة تساءل الأدباء والنقاد: هل يوجد في الأدب الياباني أدب يمكن وصفه بالأدب الإسلامي؟

وكان من الصعب الإجابة عن هذا السؤال، وعادة ما كانت الإجابة عن هذا السؤال تأتي في شكل سؤال آخر هو: هل هناك يابانيون مسلمون حتى يوجد أدب إسلامي؟!

واليوم وبعد ظهور هذه الترجمة باللغة العربية، يمكن أن نجيب عن السؤال بنعم، فأدب الرحلة إلى الحج نمط أدبي أصيل، تمتد جذوره عبر التاريخ الإسلامي الطويل.

ولكن ما هو نصيب الأدب الياباني من هذا النمط ؟

كان أول من قدم للحج هو الحاج عمر ميتسو تارو ياماوكا من مدينة هيروشيما، الذي وصل إلى مكة المكرمة في عام ١٣٢٧هـ/ ديسمبر ١٩٠٩م ومنها سافر إلى المدينة المنورة، ثم دمشق عن طريق خط سكة حديد الحجاز، وسطر ذكريات رحلته

في كتاب بعنوان أريبيا جودانكي Arabia Jyudanki أي رحلة عبر الجزيرة العربية، طبعت في فترة لاحقة في سنة ١٣٣٠هـ/ يوليو ١٩١٢م (ميجي سنة ٤٥).

ثم جاء من بعده الأستاذ تناكا إيبّيه Tanaka Ippei المسمى بالحاج نور تناكا، فسافر إلى الحج في سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م، وعاد ليسجل وقائع رحلته في كتاب بعنوان "الحج في الإسلام - السحاب الأبيض الطافي على صفحة الأفق Isramu Junrei Haku Un-yuki " في نحو ثلاثمئة وعشرين صفحة.

والرحلة تعبر عن وجهة نظره الإسلامية، وتوضح كيف صار مسلماً.

قدم الحاج نور تناكا للحج أول مرة في سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٤م (تايشو سنة ١٣) ثم جاء مرة أخرى سنة ١٣٥٢هـ/ ١٩٣٣م (شوا السنة الثامنة) وكتب رحلته عن ذكريات حجه في المرة الأولى، وقد طبعت الرحلة سنة ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م (تايشو السنة الرابعة عشرة) وتوفي عن عمر يناهز الثانية والخمسين.

ومن عنوان رحلته نشعر أن المؤلف أديب يكتب أدبا رفيعا، وقد أشار في رحلته إلى سبب تسمية الرحلة السحاب الأبيض الطافي على صفحة الأفق، فقال: إنه رأى في منامه أنه يقف على أعلى قمة مرتفعات "باميل" (جبال هندكوش) في وسط آسيا، ولم يستطع أن يحقق هذا الحلم، ثم كان تفسير حلمه، قدومه إلى عرفات، ليشاهد الحجيج في ملابس إحرامهم البيضاء، وكأنهم سحاب أبيض يَطْفو على صفحة الأفق.

وقد عمل الحاج نور تناكا أو الأستاذ تناكا محاضراً في معهد الثقافات الشرقية Daito Bunka Gakkuin، وكان يأمل في تقوية العلاقات بين اليابان والعرب من ناحية، وبين العرب وآسيا من ناحية أخرى، وتشكيل وحدة واحدة من هذه الدول

تحت مظلة " الفكر الإسلامي " وكان زعيماً يعمل على تحقيق هذه الفكرة، كما كان زعيماً لمسلمي اليابان آنذاك، وقد رأى أن تحقيق هذه الفكرة، يبدأ بتقوية العلاقات بين اليابان وجزيرة العرب، التي وحد أجزاءها الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه، ومن هنا وضع الرجل أمله في الملك عبدالعزيز، ونصح الحاج نور تناكا مسلمي اليابان بضرورة بذل الجهود لدعم العلاقات بين اليابان و المملكة العربية السعودية.

تأتي بعد رحلة الحاج نور تناكا، رحلة اينوموتو مومو تارو إلى الحج، وقد صدرت سنة ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م بعنوان " مكة جونرييكي Mekka Junreiki " أي يوميات الحج إلى مكة، وكان اينوموتو مومو تارو قد ذهب إلى الحج مع مؤلفنا تاكيشي سوزوكي.

وفي سنة ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م صدرت رحلة الحاج محمد صالح بعنوان " سئيتشي مكة جيرني Seichi Makkah Journey " أي الحج إلى مكة المكرمة.

تأخر المؤلف كثيراً حتى نشر رحلته، ولا ندري الأسباب التي دعته إلى ذلك، فقد سافر إلى الحج أول مرة كما ذكرنا سنة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م، وسافر بعد ذلك سنة ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م، ثم سافر للمرة الثالثة سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م، وكتب رحلته عن حجه الأخير، واستطرد أحياناً ليذكر بعض الأحداث التي وقعت له ولرفاقه في المرتين السابقتين.

وكاتبنا أديب مسلم، صاغ عباراته بأسلوب سهل، وسلس، ورغم مرور عقود من الزمان على تأليفه للرحلة، لا يزال أسلوب الرحلة، لا يختلف عن أساليب التعبيرات الحديثة، ويمكن القول بأنه كتب أدباً على مستوى رفيع، يحسّه القارئ من خلال العبارات المنمقة، والجمل القصيرة، واستطرادات الكاتب التي يصف فيها

الطبيعة الخلابة، بسمائها الصافية، ونجومها اللامعة، والبحر بمياهه الزرقاء الهادئة، والرمال الناعمة، وغير ذلك من مناظر جميلة.

ويستشعر القارئ هذا المستوى الأدبي الرفيع من خلال ما ضمنه المؤلف كتابه من أمثال مشهورة في اللغة اليابانية، كانت تجري بين السطور بطريقة عفوية، خالية من التكلف، للتعبير عن معنى خاص، أو موقف بذاته، لا يصلح للتعبير عنه سوى ما أورده من مثل يجري على ألسنة اليابانيين.

ولمّا كان المؤلف يابانياً مسلماً، فلا عجب أن يدمج في سياق تعبيراته، آيات من الذكر الحكيم، أو تعبيرات جرت على ألسنة المسلمين، إذا ما استلزمت الحال ذلك، وكم من مرة غلبت عليه المشاعر الفياضة، ففاضت على أسلوبه، فجاءت لغته رقيقة المستوى، عظيمة التأثير والإمتاع، والحقيقة أن الكاتب جعل لرحلته قيمة أدبية، بما عرضه فيها من أساليب، ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

الملك عبدالعزيز في الرحلة :

رسم المؤلف في كتابه هذا صورة للملك عبدالعزيز الذي شاهده عن قرب، والتقى به، وقد خصه الملك دون غيره من الحجاج باللقاء أطول وقت ممكن، بل أوقفه بجانبه، طوال مدة مصافحته لوفود العالم الإسلامي التي قدمت للسلام على جلالته في الحج، فرسم المؤلف للملك عبدالعزيز صورة دقيقة الملامح، جميلة القسمات، خطها بأصدق الكلمات، وأوضح العبارات، دون رياء أو مجاملات.

فكاتبنا مسلم قطع آلاف الأميال، ووصل من أقصى الأرض، يسعى إلى أداء فريضة الحج، حاملاً داخله عاطفة إسلامية جياشة، يفكر في أحوال إخوانه المسلمين

مهما اختلفت جنسياتهم، ويراقب تصرفات أعداء الدين، مهما تنوعت أساليبهم، فرأى أمامه ملكاً قوي البنيان متيناً، في قلبه حنان الأب، وفي عينيه بريق الأمل، وعلى وجهه ارتسمت صورة كفاح السنين، ذلك الكفاح الذي شكل شخصية الملك عبدالعزيز ليصير قائداً للعرب وللمسلمين.

تأثر الحاج محمد صالح (سوزوكي تاكيشي) بعد أن شاهد "الملك ابن سعود الشجاع" فوصفه في كتابه بأنه "رجل لا يُقهر" وبأن "النصر يواكبه حيث مضى، وأن النصر حليفه على جميع أعدائه"، وغلبت المشاعر على الكاتب، وهو يصافح الملك عبدالعزيز، فانهمرت الدموع من عينيه، رغماً عنه، وتأثر الملك الإنسان وشعر بما يموج داخل هذا المسلم الياباني من عواطف صادقة، فأمسك بيده، وأوقفه بجانبه، وهو يصافح بقية وفود العالم الإسلامي.. وكأن الملك عبدالعزيز أراد بهذا أن يزيد هذا الياباني المسلم شرفاً على شرف، وأدرك الياباني المسلم بفراسته ما قصد إليه الملك العظيم، فسطر ذلك على صفحات رحلته..

كتب عن حياة الملك عبدالعزيز الأولى، وعن كفاحه حتى استرد ملك آبائه، وتمكن من توحيد أجزاء البلاد، وتأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة، التي نحتفل بذكراها المئوية خلال أشهر قليلة.

وبعد..

فإنه ليسعدنا أن تصدر ترجمة هذه الرحلة إلى العربية، لتكون رمز مشاركتنا في الاحتفال بالذكرى المئوية لمرور مئة عامة على تأسيس المملكة العربية السعودية الحديثة على يد الملك عبدالعزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

ولا يفوتنا هنا أن ننسب الفضل إلى أهله فنشكر الدكتور محمد بن عبد الرحمن الربيِّع الذي نصح بترجمة هذه الرحلة، كما نشكر معالي الأستاذ/ فيصل بن عبدالرحمن بن معمّر المشرف العام على مكتبة الملك عبدالعزيز العامة، والدكتور/ عبد الكريم بن عبدالرحمن الزيد نائب المشرف العام على المكتبة، لما لقيناه منهما من تشجيع وكرم، ولا يفوتنا أن نشكر الأستاذ الدكتور زيد بن عبدالكريم الزيد الذي راجع هذا الكتاب، وأضاف تعليقات (شرعية) مفيدة أثبتناها في مواضعها، كما نشكر الأستاذ فهد بن عبدالكريم العبدالكريم مدير إدارة العلاقات الثقافية بالمكتبة الذي بذل جهداً مشكوراً حتى يظهر هذا الكتاب بصورته الحالية.

وعلى الله قصد السبيل.

أ. د. سمير عبد الحميد إبراهيم

سارة تاكاهاشي

الرياض غرة رجب ١٤١٩ هـ

الموافق ٢١ أكتوبر ١٩٩٨م

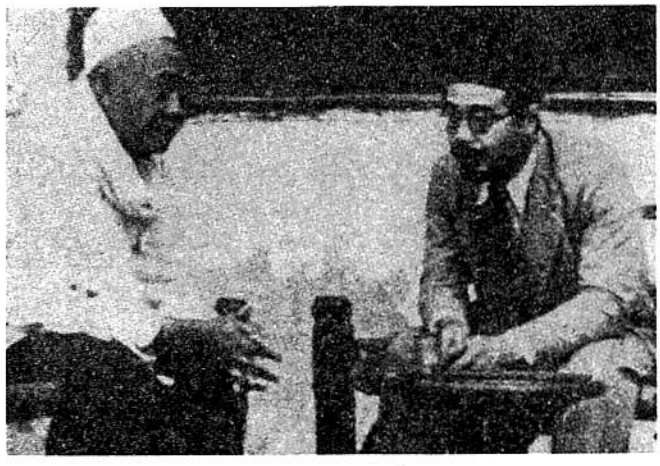

المؤلف مع أحد التجار الإندونيسيين

بين يدي الكتاب

الإسلام دين واسع الانتشار بين شعوب العالم، إذ يصل عدد أتباعه اليوم[1] نحو ثلاثمئة أو أربعمئة مليون نسمة ، والإسلام يقوم على أساس الإيمان العميق بالله الواحد الأحد، ويدعو إلى الإخاء والمحبة بين المسلمين فيما بينهم، ويصفهم بالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً، ومن هنا تكمن عظمة هذا الدين.

اهتمت الشعوب الأوربية كثيراً بالإسلام، فظل أهلها يجرون الدراسات المتعددة والمتنوعة عن الإسلام، فظهرت أبحاث كثيرة، ومقالات لا حصر لها عن الإسلام، وعمل الأوربيون بجد محاولين فهم هذا الدين، ومع أن الإسلام له تأثير كبير على دول آسيا، إلا أن الناس في بلادي لا يريدون، بل لا يرغبون في التعرف إلى الإسلام، ولسنوات قليلة مضت كان بعض من أهل بلادي يعرفون النزر القليل جداً عن الإسلام، بحيث يمكن القول بأن معرفتهم تلك تصل إلى حد الجهل.

بعد اندلاع الحرب[2] خضعت جزر إندونيسيا لليابان، تلك الجزر التي يمثل المسلمون فيها نسبة تسعين بالمئة من السكان، فإذا أردنا أن نسهم في بناء هذا البلد، والتعامل مع أهله، بطريقة جيدة، وجب علينا أن نعرف الإسلام معرفة جيدة.

---

(١) يقصد المؤلف سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٨م أما عدد المسلمين اليوم فيبلغ نحو بليون وثلاثة وثلاثين مليوناً وأربعمئة وثلاثة وخمسين ألف نسمة (١,٠٣٣,٤٥٣,٠٠٠ نسمة).

انظر : Information Please Almanac ;Otto Johnson, Editors New York 1996

(٢) يقصد الحرب العالمية الأولى.

ومن المثير للانتباه أنه في الفترة الأخيرة حدث اهتمام مفاجئ من جانب طبقة المثقفين في بلادنا بهذا الدين، وقام المثقفون حتى الآن بأبحاث جيدة خرجت إلى حيز الوجود[١] ولهذا فمن الأمور الطيبة أن ينتشر هذا النوع من الفهم الخاص للإسلام بين أوساط اليابانيين العاديين.

حين كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وجدت نفسي مشدوداً إلى الإسلام، وشعرت باهتمام شديد نحو هذا الدين، كنت وقتها أعمل في جزيرة سيليبز (منادو)[٢] إحدى الجزر الإندونيسية، حيث بدأت العمل في شركة تجارية، وبعدها أقمت في جزيرة بوناكين[٣] ثم رجعت مرة أخرى إلى منادو، واستمر تنقلي هذا لمدة سنتين، ومن هنا أتيحت لي فرصة الاتصال بكثير من المسلمين.

---

(١) ظهرت كتابات كثيرة عن الإسلام حتى تلك الفترة، وكان أول اتصال بين المثقفين اليابانيين والإسلام عن طريق ترجمة الفكر الديني من خلال الكتابات الغربية (عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م) حين تُرجم كتاب حياة محمد ﷺ رسول الإسلام إلى اليابانية، ومن هنا بدأ اليابانيون يتخيلون شيئاً اسمه الإسلام، بعد أن قد تعرفوا إليه عن طريق الصينيين، وأطلقوا عليه اسم "كيكيو" أي دين قبيلة الهوي، وهي قبيلة مسلمة من الصين، وفي تلك الفترة التي زار فيها مؤلفنا الجزيرة العربية، ظهرت كتابات عديدة، مثل: رحلة ايجيرو ناكانو التي نشرت ترجمتها العربية دارة الملك عبد العزيز، كما ظهرت رحلة اينوموتو موموتارو "مذكرات الحج إلى مكة"، وكتب كوباياشي هاجيميه ثمانية بحوث عن الإسلام، وفعل الشيء نفسه أوكوبو كوجي، أما ناثيتو توموهيدي فكتب سبع مقالات عن الإسلام، كما كتب ايفاناغا هيروشي أربع مقالات، وكتب كواساكي تراو ست مقالات، هذا بالإضافة إلى ما كتبه يامادا تراجيرو، والأستاذ تناكا ايتسوهيه الذي سيرد ذكره فيما بعد، وكتب أوكاوا الحاصل على الدكتوراة في القانون كتاباً بعنوان "مبادئ الإسلام" الذي ذكره مؤلف الرحلة واقتبس بعض عباراته، و الحقيقة أن تلك الفترة، والفترة التالية لها أي حتى سنة ١٩٤١م/ ١٣٥٩ - ١٣٦٠هـ) شهدت نشر وطباعة كثير من الكتب عن الإسلام.

انظر: كتاب الحاج مصطفى كوموروا تاريخ الإسلام في اليابان صفحة ٩٠ وما بعدها انظر ص٣٢ في الأصل Ginga Insats Kogei (Nihon Islamu shi) طوكيو ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م، وانظر أيضاً (الرحلة اليابانية) لعلي أحمد الجرجاوي تقديم وتعليق سمير عبد الحميد إبراهيم في المقدمة عن مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٦هـ/ ١٩٩٦م.

(٢) جزر سيليبز Celebes من جزر إندونيسيا التي وصلها الإسلام عن طريق التجار المسلمين القادمين من الغرب منذ القرن التاسع الهجري / ١٥ الميلادي، وقد أجبر البرتغاليون عدداً كبيراً من سكان الجزيرة على اعتناق الكاثوليكية، ثم حولهم الهولنديون بعد ذلك إلى البروتستانتية، والساحل الشرقي لبورنيو يواجه سيليبز، ومنها تغلغل الإسلام في بورنيو، وتقع مدينة منادو Manadu على ساحل الطرف الشمالي الغربي من الجزيرة.

انظر الموسوعة الجغرافية التي أصدرتها جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية المجلد الأول الصفحات الخاصة بانتشار الإسلام في إندونيسيا.

(٣) جزيرة بوناكين من الجزر الإندونيسية الصغيرة.

ليس هناك من شك في أنه لم تكن لدي معرفة ما بالإسلام، ولم تكن لدي دراية من أي نوع عن هذا الدين، اتصلت في الواقع بعدد قليل من المسلمين، وشعرت في ذلك الوقت أن معرفتي بالإسلام بسيطة جداً، ورغم هذا، فقد تمكنت خلال تلك الفترة من الشعور بأن هناك علاقة حميمة تربط بين المسلمين، وأن بينهم روحاً قوية تجمعهم، وتوحد بينهم، عندئذٍ فكرت، وخاطبت نفسي:

ما لم نفهم الإسلام، وأصوله، وما لم نفهم طريقة تفكير المسلمين، لن نتمكن من إقامة علاقات طيبة معهم، أو الحصول على نتائج طيبة للأعمال التي نقوم بها هنا.

وبدأت بعد فترة أفكر بعمق في أهمية الإسلام، أثناء قيامنا بأعمالنا التجارية الخاصة، وكنت أحد هؤلاء المتخصصين في مجال التجارة... وشعرت بشيء يهزني من الداخل، يدفعني ويحثني على التفكير فيما يجب علي أن أفعل.. ورق قلبي، وشعرت بالطمأنينة، كأن شيئاً ما يحتويني، فاندفعت أبحث عن الإندونيسيين المسلمين، وأخذت أدرس حياة الإندونيسيين والحياة في إندونيسيا عموماً، وتأثير الإسلام في الناس وفي البلاد ذاتها، وأخذت أتنقل هنا وهناك بين جزر إندونيسيا لثماني سنوات.

شعرت بعظمة الإسلام، وتمكنت، بوصفي مسلماً، من زيارة العديد من المساجد، وقمت بأداء فريضة الصلاة من أعماق قلبي، فقد هداني الله إلى الدين الحق.

ولمّا كان الإسلام دينًا واضحًا، محددة مبادئه، واضحة أصوله، لا يمكن أن تشوبها شائبة، أو تتداخل تعاليمه مع تعاليم العقائد الأخرى، فقد ظن الناس من غير المسلمين

أن الإسلام دين يستعصى على الفهم، وأعتقد بعضهم أنه دين "سري" ولكني شعرت وأنا أعيش حياتي بوصفي مسلماً بين المسلمين الآخرين، أننا جميعاً نحيا بوصفنا أسرة واحدة، لا يوجد ما يخفيه بعضنا عن الآخر، نتصارح معاً، ونتعامل بوصفنا أخوة متحابين، وأصدقاء أعزاء، تربطنا علاقات حميمة، وتضمنا روابط قوية، مما جعلني أنسى أحياناً أنني في غربة، وأنني أعيش بعيداً عن اليابان، ذلك لأنني كنت أعيش خلال السنوات الثماني عيشة سهلة بسيطة.

ومن الجدير بالذكر أن المسلم يحمل في قلبه شوقاً عارماً، ورغبة شديدة في الذهاب إلى الأراضي المقدسة لأداء فريضة الحج مرة في حياته، والمسلم الذي يعيش في مناطق تعتمد على الثروات الطبيعية لا يفكر عادة في النقود، لكنه من أجل أداء فريضة الحج، يظل يعمل بجد حتى يكسب النقود، ويوفر المال الذي يمكنه من السفر إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج، وهم يطلقون هنا (في إندونيسيا) على الناس الذين أدوا هذه الفريضة اسم "الحاج" وهذا الاسم يجعل من المسلم شخصاً له احترامه الشديد بين الناس، وفي بعض المناطق لا يمكن لغير "الحاج" الشهادة في المحكمة، أو الشهادة على عقد قران اثنين يرغبان في الزواج أو حتى المشاركة في مراسم دفن الموتى[1].

وقد كتب الأستاذ أوكاوا شومي كتاباً بعنوان "مبادئ الإسلام" باللغة اليابانية[2] جاء في مقدمته ما يأتي:

---

(١) قبول الشهادة في المحكمة، أو الشهادة على عقد القران «الزواج»، أو المشاركة في دفن الموتى لا علاقة لها في الإسلام بأداء الحج أو عدمه، ولا فرق بين من أدى هذه الفريضة أو لم يؤدها، وما يذكر المؤلف أن الناس هناك تعارفوا إليه لا أساس له في الشريعة الإسلامية (المراجع).

(٢) "أوكاوا شومي" من المثقفين اليابانيين، حاصل على شهادة الدكتوراة في القانون، وكتب كتاباً عن مبادئ الإسلام.

" إن المسلمين الذين جاؤوا من مختلف بقاع الأرض : من منشوريا ، وسيبيريا ، ومن المغرب ، والسودان ، ومن زنجبار وغيرها ، جاؤوا من على بعد آلاف الأميال ، يجمعهم هدف واحد ، هو الذهاب إلى مكة ، لأداء فريضة الحج ، وخلال موسم الحج يتمتعون بأداء الفريضة ، ويحيطهم سرور الإيمان ، ويصبحون روحاً واحدة ، وعلى قلب رجل واحد . . ثم يعودون إلى بلادهم بمثل هذه الروح " .

نعم . . أعتقد أن مكة المكرمة مكان مهم جداً للمسلمين ، فهي مركز له مكانة خاصة ، يشدهم جميعاً إليه ، ويضمهم ويربطهم برابطة الإيمان القوية .

ولمّا كنت مسلمًا حقيقياً ، ومؤمنا جاداً ، فقد سافرت لأداء فريضة الحج ، ووفقني الله لأداء هذه الفريضة ، والحج يعني الذهاب إلى مكة ، وأداء شعائر معينة ، في جو حار جداً ، وفي بيئة تنتشر فيها الأمراض الكثيرة[1] ، ويتم أداء هذه الشعائر طبقاً لشروط وقواعد صارمة ، ورغم هذا فإنني أفخر - بوصفي مسلماً - بأنني ذهبت للحج ثلاث مرات ، وزاد إيماني بالإسلام تدريجياً مع كل حجة ، وصار عميقاً ، وتمكنت من فهم عظمة الإسلام الدين الحنيف .

ظل الناس لفترة طويلة يعدون مكة المكرمة مكاناً مجهولاً أو مكاناً تحيط به السرية ، تماماً مثل المرأة المسلمة التي تضع الحجاب على وجهها ، فتبقى مصونة عن أعين الغرباء ، وهكذا لم يكشف العالم الإسلامي عن وجه مكة المكرمة للآخرين ، من غير أهله ، فمكة بالنسبة إلى العالم الإسلامي مثل " حريم البيت " لا ينكشفن على الغريب ، وينكشفن للقريب من المحارم فقط ، طبقاً لأصول الإسلام ، ولهذا فمكة

---

(١) المؤلف يتحدث عن فترة زمنية مضى عليها قرابة سبعين عاماً وقد تغير الأمر تماماً فلا يوجد حالياً أوبئة أو أمراض بين الحجاج ، وذلك نظراً للجهود الكبيرة التي تبذلها وزارة الصحة في المملكة العربية السعودية ؛ حيث تنتشر المستشفيات والمستوصفات في المشاعر التي تقدم العلاج المجاني للحجاج (المراجع) .

حرم مقدس، ولأن غير المسلمين لا يسمح لهم بدخول هذا الحرم المقدس، أي مكة المكرمة، فقد ظن هؤلاء أن مكة مكاناً سرياً.

وأنقل الآن ما كتبه الأستاذ أوكاوا في كتابه السابق ذكره:

"لا تزال معلوماتنا عن هذه المنطقة (جزيرة العرب) قليلة جداً، وحتى يومنا هذا، فمعرفتنا بهذه المنطقة أقل كثيراً من معرفتنا بمناطق القطب الشمالي والقطب الجنوبي، ويسمي العرب هذه المنطقة شبه الجزيرة العربية".

تمكنت بعد زيارتي لمكة ثلاث مرات من أن أتعرف إلى هذه المنطقة، وأن أزيد معلوماتي عنها، وهكذا كتبت "مذكرات الحج"[1] هذه حتى أقدم للناس في بلادي (اليابان) فكرة واضحة عن الجزيرة العربية، تلك التي يظنها الناس "مكاناً غامضاً" و "مكاناً سرياً"، وقد كتبت هذه الصفحات بكل أمانة، وسوف تغمرني السعادة إذا اهتم الناس بالإسلام، ورغبوا فيه، ومالوا إلى اعتناقه، بعد قراءتهم هذا الكتاب.

(١) آثرنا ترجمتها هكذا: "ياباني في مكة" ومن الجدير بالذكر أن إينوموتو موموتارو (الذي توفي في ظروف غامضة، في نيبال) قد كتب أيضاً عن رحلته إلى مكة كتاباً بالعنوان نفسه والفرق هو أن مؤلفنا أضاف إلى مكة كلمة المكرمة (المقدسة) وكان إينوموتو قد سافر للحج في الفترة نفسها، أما رحلة تناكا إلى الحج فكانت بعنوان الحج في الإسلام (السحب البيضاء الطافية في الفضاء).
انظر كتاب الحاج مصطفى كومورا صفحة ٦٥ وما بعدها.

مقدمة المؤلف

ينتشر أكثر من ثلاثمئة مليون مسلم في قارات أوربا وآسيا وإفريقيا وجزر جنوبي شرقي آسيا، يؤمنون جميعاً بإله واحد لا شريك له، وهم جميعاً إخوة، وهم أحرار، تضمهم روابط قوية، يتوجهون جميعاً في صلاتهم إلى مكة؛ حيث القبلة، وقواعد الإسلام وشريعته موجودة في القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، فنظام الشريعة الإسلامية يمضي طبقاً لأحكام القرآن الكريم.

والفكرة الأساسية هي أن الإسلام يقوم على الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره، وفكرة الألوهية عند المسلمين تتلخص فيما جاء في القرآن الكريم من أن الله خالق كل شيء، وهو موجود حي لا يموت، في الحياة الدنيا، وفي الآخرة، لا شريك له في ملكه، ليس له زوجة، ولا ولد ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾ [الإخلاص: ١ - ٤].

والإسلام بني على خمس:

الشهادة (لا إله إلا الله محمد رسول الله): وهي علامة قبول الإسلام، وإعلان وحدانية الله، فيجب أن ننطق الشهادة باللسان: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم نتذكر هذا دائماً، ونؤمن بوحدانية الله وبأن محمداً رسول الله من أعماق قلوبنا.

الصلاة: أداء الصلاة خمس مرات في اليوم متجهين إلى القبلة (الكعبة) في مكة المكرمة، اتجاهاً صحيحاً؛ لأن الاتجاه إلى القبلة شرط لصحة الصلاة، وللصلاة

أوقاتها من الفجر إلى الليل خمس مرات، وهي فرض على كل مسلم سواء كان فلاحاً يعمل في حقله، أم مسافراً مرتحلاً إلى مكان عمله، أو غيرهما، فالكل مطالب بأداء الصلاة في أوقاتها.

الصوم: وهو صوم شهر رمضان (ويأتي رمضان في سبتمبر)[١] وقد ورد ذكر الصوم في محكم التنزيل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣] وجاء أيضاً ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] فهذه قاعدة فالمسافر ليس له أن يصوم[٢] وكذا المريض، وليس على من سيأتي ذكرهم حرج، ويمكنهم ألا يصوموا: المرأة الحامل قبل الوضع وبعده بأسبوعين[٣] والرجل الذي خرج للجهاد.

الزكاة: ورد ذكرها في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ﴾ [البقرة: ١٧٧] فهؤلاء هم الذين يستحقون الزكاة[٤].

---

(١) يذكر المؤلف أن شهر رمضان المبارك يأتي في سبتمبر، وهو يقيس على السنوات التي زار فيها الأماكن المقدسة، وفي حج عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م وهي السنة التي قدم فيها للحج للمرة الثالثة والأخيرة، كان شهر رمضان يوافق شهر نوفمبر من عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م.

(٢) المسافر يستحب له الفطر ومع ذلك يجوز له الصيام (المراجع).

(٣) يذكر المؤلف أنه يجوز للمرأة الحامل أن تفطر في رمضان قبل الوضع بأسبوعين كما يجوز لها أن تفطر بعد الوضع لمدة أسبوعين، والحقيقة أن المرأة بعد الوضع مرتبطة بنزول دم النفاس، أما قبل الوضع فلها أن تفطر إذا رأى الطبيب ذلك أو خافت على الجنين أو ما شابه ذلك. انظر المغني لابن قدامة الجزء الأول باب الحيض ص ٣٨٦ وأيضاً الجزء الرابع باب الفطر في رمضان ص ٣٩٦ و ص٣٩٧ تحقيق د. عبد الله بن عبدالمحسن التركي والدكتور عبد الفتاح الحلو الطبعة الثانية، هجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

(٤) حدد القرآن الكريم الذين يستحقون الزكاة في ثمانية أصناف هم الذين ورد ذكرهم في هذه الآية ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٦٠]، والآية التي ذكرها المؤلف ليست في الزكاة الواجبة وإنما في صدقة التطوع (المراجع).

الحج: وهو الركن الخامس والأخير من أركان الإسلام ويمكن للمسلم أن يحج مرة في حياته، والمسلمون يذهبون إلى مكة للحج في وقت محدد كل سنة، وجاء في سورة الحج قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧] وفي سورة البقرة أيضاً يقول تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] وقوله تعالى أيضاً: ﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ....﴾ [البقرة: ١٩٦] إلى قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ١٩٧].

والحج ركن صعب، وهو أكثر أركان الإسلام متعة وتشويقاً للمسلمين جميعاً.

وعند دخول مكة يتم التحقق من شخصية كل قادم إليها، حتى يدخلها المسلمون فقط، ويتم التحقيق والتدقيق، والفحص، وعندئذٍ يسمح للمسلم فقط بالدخول دون غيره.

لقد سافرت طوال إحدى عشرة سنة إلى بلاد إسلامية متعددة منذ أن كنت في الرابعة والعشرين من عمري، وكانت جزر سيليبز منادو الإندونيسية أول مكان سافرت إليه، فتعرفت فجأة إلى أهمية الإسلام في دول آسيا، كما كنت شغوفاً بالتعرف إلى الإسلام، وبعدها عشت في مثل هذا العالم الذي يضم المسلمين، وصرت واحدا منهم.

هل الإسلام دين سري؟ أم دين غامض؟

لا... لا....

فالإسلام هو أوضح دين بين أديان العالم وأبسطها وأسهلها، ولا يوجد دين غيره من حيث الوضوح والبساطة، وهو الدين الذي يوجد بين الناس علاقات من

الأخوة والمحبة، ويربط المؤمنين به بصلات المودة والتراحم، فالمسلمون إخوة، فيما بينهم، وقديماً قالوا: "إذا لم تعرف شيئاً، ساورك الشك، والشك يعني الاضطراب، وإذا دخلت متاهة، فهذا يعني أنك لا تدري عنها شيئاً"[1].

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن قليلاً جداً من اليابانيين هذه الأيام يعرفون الإسلام، ورغم ذلك فهم يقولون: إن الإسلام دين غامض أو دين سري، إلا أنه من الواجب على اليابان اليوم بعد أن أصبحت زعيمة لبلدان آسيا، أن تتعرف إلى الإسلام، ولا يمكن أن تتجاهل هذا على الإطلاق.

وعلى طبقة المثقفين والدارسين والباحثين اليابانيين واجب دراسة الدين الإسلامي وتعاليمه، والتعرف إلى روح الإسلام.

(١) يدعو المؤلف هنا إلى ضرورة معرفة الإسلام ومعرفة مبادئه معرفة صحيحة، وكان بعضهم يسيء إلى الإسلام؛ لأنه لا يفهم مبادئه.

الباب الأول

الأرض المقدسة
أرض أحلامي

الرحيل من ميناء كوبيه

" مهما قلت، لا يمكن أن نفعل شيئاً من أجلك، إن مصر لم تعترف بمنشوريا بلداً مستقلاً حتى الآن، ولهذا لا يمكن أن نعطي تأشيرة دخول إلى أهل منشوريا " .

كانت تلك عبارة القنصل المصري . .

وأنا الآن مسافر إلى مكة للحج، مع ممثل مسلمي منشوريا[1] السيد/ تشان، تحدثت مع القنصل المصري في كوبيه[2] لمدة ثلاث ساعات، ناقشنا موضوع مرور السيد / تشان عبر الأراضي المصرية، وظل القنصل المصري يكرر العبارة السابقة، مرة بعد مرة، لم يفهم أبداً محاولاتي من أجل إقناعه، بإعطاء تأشيرة إلى رفيقي، وأنا بدوري أتفهم موقفه، فإذا اتخذ إجراءً يتعارض مع قوانين الحكومة المصرية، فسيسبب له ذلك كثيراً من المتاعب مع حكومته، لكني حاولت، وركزت على مسألة الحج، وأن سفرنا هذا هو سفر من أجل أداء فريضة دينية، ولهذا فحديثي معه كان من منطلق الأخوة، فنحن ننتمي إلى دين وحد، أردت أن أجد طريقة ما لحل هذه المشكلة .

---

(١) ينتشر المسلمون في جميع أقاليم الصين حتى التبت ومنغوليا ومنشوريا بقسميها الداخلي والخارجي، ومن المعروف أن الصين تحولت إلى الحكم الجمهوري سنة (١٣٢٩هـ/ ١٩١١م)، ففرح المسلمون بعد أن سمعوا بسقوط الإمبراطورية المنشورية (الظالمة) على يد الحزب الوطني الذي نادى بالديموقراطية، واعتبر المسلمين عنصراً من العناصر الخمسة التي تتكون منها الأمة الصينية (العنصر الصيني، والعنصر المنشوري، والعنصر المغولي، والعنصر الإسلامي "الهوي "والعنصر التبتي) وكان اللون الأبيض في العلم الصيني يدل على العنصر الإسلامي .

انظر كتاب بدر الدين حي الصيني : تاريخ المسلمين في الصين في الماضي والحاضر دار الإنشاء للطباعة والنشر لبنان ١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤م صفحة ١٠١ وما بعدها وانظر أيضاً مجلة الفيصل العدد ٢١٣ ربيع الأول ١٤١٥هـ مقال بعنوان: المسلمون في الصين صفحات مشرقة، من إعداد قسم الترجمة / نجلاء حسن حامد صفحة ٧٥ وما بعدها.

(٢) كوبيه Kobe بكسر الباء من المدن المهمة في اليابان، وهي ميناء يقع بالقرب من مدينة أوساكا، فيها مسجد بناه التجار الهنود.

كان ذلك عند الغروب، في حين أخذت الشمس تميل بسرعة، تتوارى عن الأنظار، ومضينا نمشي في شوارع كوبيه على غير هدى، لم نوفق في الحصول على تأشيرة للسيد/ تشان، وكان من المتوقع أن نسافر في الغد، ولكن تواجهنا الآن مشكلة عويصة، ولهذا بقيت والسيد/ تشان نمضي معاً في صمت، لم يكن هناك سوى صوت وقع خطواتنا المتتابعة، في حين كان الشعور بالحزن العميق يلفنا، والأسى الشديد يشملنا، فانعقدت ألسنتنا عن الكلام، وتوقفت عقولنا عن التفكير.

كنا قد زرنا الوزير البريطاني المفوض في القنصلية البريطانية، وهناك أيضاً قيل لنا الشيء نفسه، ولكن في النهاية قالوا:

"لا يمكن أن نعطيكم تأشيرة على جوازات السفر، يمكن أن نعطيكم ورقة منفصلة أو تصريحاً"(١).

ثم أعطونا تصريح مرور يسمح لنا بالتنقل عبر موانئ المستعمرات البريطانية، ورغم هذا لم نتمكن من الحصول على تأشيرة من القنصلية المصرية؛ مما يعني وجوب تخلينا عن فكرة السفر للحج.

قطع السيد/ تشان الصمت قائلاً:

من فضلك يا سوزوكي! يمكنك أن تسافر وحدك، سوف أتخلى عن فكرة الذهاب للحج هذا العام، فليس هناك من وسيلة تمكنني من السفر، أنا آسف وحزين! لكن هذا قدري، هذا ما كتبه الله لي!

---

(١) وهذا التصريح يسمح لهما بالمرور في مصر التي كانت تخضع للحماية البريطانية.

بدت علامات الحزن واضحة على وجه السيد/ تشان، فلم أتمكن من أن أقول له كلمة واحدة، أخذت أبحث عن الكلمات التي يمكنني أن أقولها له، كانت الكلمات تهرب مني، كلما حاولت الإمساك بها، فخاطبت نفسي:

الطريقة الوحيدة، هي أن نسافر، يجب أن نسافر بأي شكل، حتى وبدون تأشيرة القنصلية المصرية، لا شك في أن في هذه الطريقة مخاطرة، لكن شعوراً ما يخامرني، أو هاتفاً ما بداخلي، يحدثني، ويؤكد لي أننا سنجد حلاً لهذه المشكلة.

فقلت له:

لا تقلق! يجب أن نسافر كما خططنا، يجب أن نرحل غداً، وسوف نؤدي فريضة الحج بمشيئة الله، وبإذن من الله، فالمصريون إخواننا في الإسلام، ولن يعارضونا، ولن يمنعونا من أداء شعائر الحج.

لكن السيد/ تشان كان قلقاً للغاية، ومرتبكاً جداً، فقال:

وإذا رفضت مصر إعطائي تأشيرة دخول!

فقلت:

لا يمكن أبداً أن يحدث مثل هذا الأمر، وإذا حدث - لا قدر الله - فيجب ألا ننزل من السفينة، ولنمضِ في طريقنا إلى أوربا.

ورغم أن الفكرة كانت مقبولة إلا أن السيد/ تشان قال:

لا . . . لا . . . يمكنني الذهاب لاحقاً، ويمكن أن أسافر للحج في عام آخر.

كانت هذه أول مشكلة تواجهني في السفر إلى الحج، ربما بدأ الحظ السيئ يحالفني! لكن مثل هذا السفر يكون عادة مصحوباً بصعوبات ومتاعب.

لقد سافرت مدة عشر سنوات متنقلاً هنا وهناك، ومن خلال تجاربي، أشعر بأن مثل هذه الأمور يمكن أن يوجد لها حلول بسهولة، فإذا فشلنا ولم ننجح في النزول إلى أرض مصر، يمكننا أن نغير خطتنا، ونسافر إلى أوربا.

وهكذا ركبت والسيد/ تشان الباخرة "كاجيما مارو" التابعة لشركة نيهون يو سن - خطوط أوربا".

تحركت السفينة وأخذت تمخر العباب...

ليس هناك ما أكتبه أثناء رحلتنا على ظهر هذه السفينة...

لهذا لن أدَّون شيئاً عن هذا السفر (من كوبيه إلى بور سعيد)

وصلنا إلى بور سعيد بعد ثلاثين يوماً من مغادرتنا ميناء كوبيه، كانت الساعة تقترب من العاشرة ليلاً، لم نتحدث مع قبطان السفينة عن مشكلة التأشيرة، واحتفظنا بهذا السر في صدورنا، لم نطلع عليه أحداً، لكن علينا الآن الاستعداد لمواجهة هذه المشكلة الكبرى.

التحايل على الدخول في مصر

ألقت السفينة بمرساها الضخم في البحر، فصدر عنه صوت كان إعلاناً عن بدء حظنا السيئ، كنت عادة أتمتع بسماع هذا الصوت الناتج من إلقاء السفينة لمرساها (الهلب) في البحر، فهو يمنحني السعادة، لكني أشعر اليوم بعكس ذلك تماماً، كان قلبي يدق بشدة، وكأنه ناقوس يعلن اقتراب الخطر.. وتوقفت السفينة "كاجيما" ثم أطلقت صفارتها لتعلن عن ذلك، فتردد صدى الصفير في جميع أنحاء مدينة بور سعيد، وكأنه إيذان ببدء محاكمة لنا، فهل يحالفنا الحظ؟!

تُرى ماذا كتب الله لنا؟!

انتابني إحساس قوي جعلني على ثقة بأننا سنحصل بلا شك على تأشيرة دخول للسيد/ تشان.

وصل إلينا ضباط الجمارك والجوازات، كنا قد وقفنا قبلاً في صف من أجل فحص الأمتعة، ومضى الصف سريعاً، وانتهت إجراءات فحص الأمتعة بسهولة، وفي النهاية جاء دور فحص الجوازات، وجاء دور السيد/ تشان.

كنا نتوقع بالطبع ما سيحدث، قال ضباط الجوازات:

لا يمكنكم أن تنزلوا من السفينة.

نطقوا هذه الكلمات بجدية صارمة، وبدون أي تفسير أو شرح، أعادوا لنا جواز سفر السيد/ تشان وغادروا السفينة، وتركونا في موقف لا نحسد عليه..

كنت أتوقع أن يحدث هذا، وكنت أعد نفسي جيداً، لكيفية مناقشتهم، لكنهم لم يعطونا فرصة حتى للتحدث معهم بكلمة واحدة، وصعقت من جراء موقفهم هذا تجاهنا، كنت على وشك أن يغمى عليّ من هول الصدمة.

كان قبطان السفينة وموظفوها والمسافرون من حولنا متذمرين غاضبين، فانطلقوا جميعاً يصيحون في وجوهنا ويصرخون:

هذه أول مرة يوجد بيننا مثل هؤلاء المسافرين!

كيف حدث هذا؟

وكيف توقعتم مغادرة السفينة دون تأشيرة؟

ما خطبكما؟! لم تخبرانا حتى الآن بهذا الأمر...

كان من المفروض ألا تمنحكم وكالة السفر التابعة للسفينة تذاكر السفر . . .

كانت هذه العبارات المتتالية تخترق رؤوسنا كالطلقات . .

كان السيد/ تشان حزيناً جداً، أخذ يحملق في وجهي دون أن ينطق بكلمة، وحين نظرت ناحيته لمحت في عينيه حزناً ممزوجاً بالأسف، عندئذ قررت أن أتعارك مع هؤلاء الناس، من أجله، فإذا خسرت هذه المرة، وانتظرت حتى الغد، فسيكون من المستحيل أن يغادر السيد/ تشان السفينة، فقد توقعنا أسوأ النتائج في هذه الرحلة، توقعنا حتى الموت، كانت هذه أول مرة يقوم فيها السيد تشان بالسفر لأداء الحج ممثلاً لمسلمي منشوريا، وكان يضع كل ثقته بي، معتمداً - بعد الله - عليّ اعتماداً كاملاً، وعلى هذا الأساس غادرنا اليابان.

والواقع ما نتعرض له الآن ليس مشكلة كبيرة؛ لأننا كنا سندخل الجزيرة العربية التي تشهد موت عشرين بالمئة من الحجاج كل سنة[1]، فاندفعت وحدي إلى مكتب الجوازات، كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة ليلاً . . .

بدأت أناقش ضباط الجوازات بشدة وعنف، وامتد النقاش حتى الساعة الثانية صباحاً، وفي النهاية نجحت في إقناعهم . . لا أصدق! لا أصدق!!

كنت فرحاً، طرباً، أود أن أقفز في الهواء، أو أطير من فرط السعادة.

حين رجعت إلى السفينة، وجدت السيد/ تشان جالسا في انتظاري، فضربته

(١) كانت تحدث وفيات في الحج نتيجة عدة أسباب من أبرزها: شدة تزاحم الحجاج؛ ومع ذلك تبدو النسبة التي ذكرها المؤلف فيها مبالغة. وقد تحسن الوضع كثيراً، وأصبحت نسبة الوفيات قليلة جداً مقارنة بالأعداد الكبيرة التي تفد إلى مكة كل عام؛ وذلك نتيجة الرعاية والخدمات التي تقدم للحجاج من قبل الدولة (المراجع).

على ظهره . . وأخبرته بما حدث، فوقف فجأة، وراح يحملق في عيني، دون أن ينطق بكلمة، فقد كان ما حدث أمرٌ غير متوقع على الإطلاق، ولم يكن في الحسبان أبدع مما كان!

لكن إذا ما واجهنا المشاكلات، مهما كانت، بصدق وإخلاص، فسوف نجد لها حلاً مناسباً، هذا ما كنت أشعر به في أعماق قلبي.

" . . . نحن ذاهبون إلى مكة المكرمة للحج، بأمر من الله، نحن مسلمون صادقون مخلصون لله ولدين الله، والله تبارك وتعالى لم يضع حدوداً بين المسلمين على أساس القومية أو العرقية أو الجنسية، فالمسلمون جميعهم أمة واحدة، وهم إخوة، وسواسية، هذا ما جاء في القرآن، والقرآن كلام الله، وكلام الله صحيح، والله صادق أمين . . " .

" أنا على يقين من أنكم ـ أنتم المصريون ـ تحترمون كلام الله، وتقدرونه، ولهذا فملككم، ملك مصر، يعد نفسه الآن ليكون خليفة المسلمين، وأعتقد أن ملك مصر، سوف يسمح لنا بأداء فريضة الحج، ولا يمكن لحكومة جلالته أن تعترض على ذلك، فإذا اعترضتم، ووقفتم حائلاً بيننا وبين أداء فريضة الحج، فهذا يعني أنكم تخالفون أوامر الله؛ لأن أداء فريضة الحج أمر من عند الله، فإذا عارضتم ذلك، فسأعلن لجميع المسلمين في العالم ما حدث، وسوف أناجي الله في صلواتي، سوف أخبره بأننا قدمنا لأداء فريضة الحج، وزيارة بيته العتيق، ولكنكم منعتمونا من ذلك " .

أخذت أكرر تلك العبارات بلغة إنجليزية ركيكة . . . وبعدها كان التوفيق الإلهي.

لم نتمكن أنا والسيد/ تشان من النوم، أخذنا نتحدث ونحن في قمة السعادة والانبساط، بل في ذروة الانفعال، أخذ السيد/ تشان يحملق في تأشيرة دخوله إلى مصر، والبقاء فيها لمدة شهر كامل، وأخذ يتحسسها بعينيه، ثم يحرك يديه، كأنه يريد أن يلمس الكلمات، ويتحقق من وجودها على صفحة جواز سفره، لقد حصل أيضاً على تصريح بتغيير العملة النقدية. .

والآن نعد العدة للنزول من السفينة إلى أرض مصر.

مبنى القنصلية السعودية

جلست مع السيد/ تشان في إحدى غرف القنصلية السعودية انتظاراً لفحص جوازاتنا، شاهدنا بعض موظفي السفارة الذين كانوا يرتدون ملابس غريبة علينا.

حين نزلنا في بور سعيد بالأمس، انتهى تفتيش الأمتعة بسرعة وسهولة غير مألوفة، فحين جئت أول مره هنا، كان التفتيش دقيقاً وصعباً، واستغرق وقتا طويلاً، وفي المرة الثانية حدث الشيء نفسه، فقد كانوا حريصين على كتابة كل ما أحمل معي، حتى لو كان شيئاً صغيراً للغاية، إذا ما شعروا بأن هذا الشيء من المنتجات الحديثة، لكن حين عرفوا بأنني ذاهب إلى الحج، تغيرت طريقة معاملتهم تماماً، حتى إنهم راحوا يصافحونني، ولم يهتموا أبداً بما أحمل من أمتعة، وتمنوا لي حجاً مبروراً، ودعوا الله أن يوفقني في أداء الحج على خير وجه، ولهذا وفي هذه المرة (الثالثة) أوضحت لهم من أول وهلة بأنني قادم للحج، وهكذا تم كل شيء بسهولة ويسر، ولم نضطر إلى الانتظار طويلاً.

كان هذا نوعاً من حسن المعاملة بين المسلمين نتيجة الشعور بالأخوة الإسلامية.

وجوه عربية

بعد الانتهاء من فحص الأمتعة والإجراءات المتبعة، اتجهنا إلى القاهرة بالقطار، ركبنا قطار الساعة الثانية عشرة ظهراً، وقضينا ليلة رائعة في أحد فنادق القاهرة.

ذهبنا في صباح اليوم التالي إلى السفارة اليابانية، طلبنا من المسؤولين بالسفارة الاتصال بقنصل المملكة العربية السعودية، وأخذنا موعداً، ووصلنا إلى مبنى القنصلية السعودية، كان مشيداً في معظمه من الخشب، وكان مبنياً على الطراز العربي، الذي يتسم بالزخارف العربية الجميلة، دخلنا غرفة كانت الإضاءة فيها ضعيفة، وكان فيها عدد قليل من المقاعد، فجلسنا حتى يتم فحص جوازات سفرنا.

شاهدنا في الوقت نفسه أربعة مسلمين صينيين، جاؤوا مثلنا لفحص جوازاتهم، والحصول على تأشيرة الحج، أخذوا يحملقون فينا، كانوا يجلسون متجاورين ومتلاصقين، لم أشعر تجاههم بالألفة والمودة، كانت مشاعرهم جافة،

وأخيراً ومن خلال موقفهم هذا عرفت من يكونون!! وأي نوعية من الناس يمثلون!! لكن الغريب أنه كان من بينهم أحد الصينيين، وليكن "زيد" من الناس، يدرس في جامعة الأزهر، وقد قابلت هذا "الزيد" من الناس، في مكة السنة الماضية، وأصبحنا أصدقاء، وكان قد سافر من مصر إلى مكة العام الماضي، ليتولى الترجمة لبعض جنرالات الجيش الصيني، وكان من بينهم الجنرال "ما رين"[١] حاكم مقاطعة "تشن كاي"[٢].

حين قابلته آنذاك، تردد علي كثيراً، وزارني مع رفاقه في غرفتي، وكنت إذا ما زرته يرحب بي كثيراً، وفي اليوم الذي غادرت فيه مكة المكرمة، جاءني بهدية ثمينة من عطر "المسك" كان قد أحضرها الجنرال "ما رين" من بلدته في الصين، وصافحني قائلاً:

هذه هدية تذكارية من الجنرال، وهي غالية جداً، فاحتفظ بها، لقد حملتها إليك نيابة عنه، وهو يبلغك التحية، وآمل أن نكون أصدقاء أعزاء إلى الأبد.

وظل يصافحني طويلاً، ممسكاً بيدي، يهزها عدة مرات.

والآن يجلس هذا "الزيد" من الناس بالقرب مني، لكنه بدا شخصاً مختلفاً تماماً، حين ذهبت إليه مباشرة لأصافحه، لم يبسط يده ليصافحني، وبدا على وجهه شعور من البلادة واللامبالاة، وتجاهلني تماماً، وبدأ يتكلم مع الآخرين!!

---

(١) الجنرال ما رين واحد من القادة العسكريين في تلك الفترة، وكان المسلمون قد بدؤوا الالتحاق بالجامعات، والدخول في إدارات الدولة في مدن الصين المختلفة، مثل: تشنغهاي، وبكين، ونانكين، ووصل عددهم إبان الحرب العالمية الثانية في مؤتمر الصين الوطني ثمانية نواب، فضلاً عن اثنين من المسلمين يمثلان في مجلس الحزب السياسي المركزي، وكان الجنرال تسيانغ كاي شيك الذي سيأتي ذكره فيما بعد قد قال بأن المسلمين أقلية صينية فقط، وبهذا فهم ليسوا بأقلية دينية متميزة. انظر بدر الدين حي مرجع سابق صفحة ١٣٦.

(٢) مقاطعة تشن كاي (بكسر الأول) إحدى المقاطعات الصينية بها نسبة كبيرة من السكان المسلمين.

يجب أن أعتذر، وأتأسف!! فالعلاقات بين اليابان والصين قد تغيرت تماماً، مئة وثمانين درجة، عن العام الماضي، فالحرب لا تزال تدور بيننا[١] كما أن الصينيين الأربعة المرافقين له، أُرسلوا عن طريق حكومتهم بوصفهم وفد حج رسمي، يمثل مسلمي الصين، وتلقوا أوامر من "وان سون زن"[٢] بالقيام بأعمال دعائية ضد اليابان، ولهذا فنحن الآن أعداء، وقد نسيت هذا الأمر تماماً، فأردت مصافحتهم، لكن موقف صديقي القديم هذا أصابني بصدمة ذكرتني بحقيقة الموقف اليوم، ولهذا تأسفت كثيراً.

أثناء القيام بالحج يجب أن نتوقع مواجهة مثل هذا الشعور المؤسف، والمواقف المحزنة.

---

(١) يتحدث المؤلف عن الحرب التي اندلعت بين اليابان والصين في السنة السابقة على قدومه للحج، والتي أثرت بشكل إيجابي على وضع المسلمين في الصين إذ حاول كاي شيك عام ١٩٣٦م/ ١٣٥٥هـ كسب ود المسلمين، وذلك لظروف الصين في الحرب ضد الغزو الياباني، ومقاتلة الشيوعيين.

انظر الأقليات المسلمة في آسيا وأستراليا لسيد عبد المجيد بكر، سلسلة دعوة الحق عدد ٣٢ خاص صفر ١٤٠٤هـ رابطة العالم الإسلامي ص ١٠٥.

(٢) وان سون زن أحد القادة الصينيين المسلمين، قاد الوفد الصيني للحج بهدف الدعاية ضد اليابان في موسم الحج، ويذكر بدر الدين حي الصيني في كتابه السابق ذكره (صفحة ١٣٦ وما بعدها) أن المسلمين أسهموا في الدفاع عن وطنهم، بزعامة الجنرال عمر ياي تشونج هشي الذي أسس جمعية الصين الإسلامية لإنقاذ الوطن سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م، التي اتخذت من تشونج كنج عاصمة الصين الحربية مقرا لها، ثم نقلت مقرها الرئيس إلى نانكين بعد هزيمة اليابان عام ١٣٦٤هـ/ ١٩٤٥م؛ وكان من أعمالها إرسال الطلبة المسلمين إلى مصر وتركيا والبلاد الإسلامية، ولأجل كسب التأييد الأدبي والمعنوي للقضية الوطنية، قامت الجمعية بإرسال بعثات الصداقة وحسن النية إلى البلدان الإسلامية في الشرق، بما فيها بعثة الحج في سنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م؛ وذلك لمقاومة الدعاية اليابانية المضللة التي تقوم بها بعثة إسلامية يابانية في الشرق الأوسط في السنة نفسها، فزارت بعد أداء مناسك الحج البلدان الإسلامية في الشرق الأوسط والهند في طريق عودتها إلى الصين.

وبالطبع تختلف وجهة نظر بدر الدين الصيني عن وجهة نظر تاكيشي سوزوكي مؤلف رحلتنا الذي رأى أن الصينيين لا يعرضون الحقيقة، ويريدون الإساءة لليابان، وهذا ما سيتكلم عنه في صفحات مختلفة من رحلته.

انظر أخبار الحرب الصينية اليابانية في صحيفة أم القرى الأعداد الصادرة ابتداء من رمضان ١٣٥٦هـ نوفمبر ١٩٣٧م وما بعدها على مدار سنة أو أكثر.

من القاهرة إلى السويس

انطلقت بنا السيارة بسرعة ستين كيلاً أو سبعين كيلاً في الساعة، كان الطريق الصحراوي الواصل بين القاهرة والسويس مرصوفاً بطريقة جيدة، فقد كانت السيارة تمضي عليه بيسر وسهوله كأنها تزحف بل تتزحلق.

في النهاية.. وبعد أسبوعين من هبوطنا أرض مصر، حصلنا على إذن بدخول المملكة العربية السعودية.. تسلمنا الإذن مساء أمس.

ناقشنا مع "شركة مصر للملاحة" ومقرها القاهرة - وهم هنا يطلقون على القاهرة اسم مصر - موضوع سفرنا بالسفينة التابعة للشركة، غادرنا القاهرة في الساعة الرابعة صباحاً، وسوف نسافر بالسفينة "زمزم" التي كانت قد تعرضت مؤخراً لهجوم الألمان، وكادت تغرق، وكانت مشكلة كبيرة، ومن الجدير بالذكر أن هناك العديد من السفن التي تتولى نقل الحجاج من ميناء السويس إلى جدة[1] والسفن المصرية في موسم الحج تركز على هذا الأمر فتغير وجهتها، وبدلاً من الذهاب إلى أوربا، تحمل الحجاج إلى جدة، كما توجد أيضاً سفن بريطانية وإيطالية تعمل في نقل الحجاج أيضاً.

حين وصلنا مدينة السويس وجدناها تعج بالحجاج المتوجهين إلى جدة، وخصوصاً أن حجاج غرب إفريقيا وصلوا هنا اليوم، كانوا يرتدون أزياءهم التقليدية، وملابسهم القومية المتميزة، كانت هناك جماعات مختلفة من الناس، ينتمون إلى جنسيات عديدة، تجمعوا جميعاً في مكان واحد، مما أعطاني شعوراً غريباً.

---

(١) ورد في جريدة أم القرى ذكر أسماء تلك السفن.

كان هذا الزحام والتجمع قاصراً على الشارع الرئيس من المدينة فقط، فإذا ما تخطينا هذا الشارع، وذهبنا إلى مسافة تبعد عنه قليلاً، وجدنا الهدوء، فلا زحام على الإطلاق في الشوارع الأخرى، فهذه هي المنطقة السكنية الخاصة بشركة قناة السويس، التي يقال بأنها تكسب أموالاً طائلة، وهي حالياً من أكبر شركات العالم من حيث الدخل.

أخذت أتطلع إلى ميناء السويس، كانت الشمس تطلع من خدرها، تعلن عن وقت الشروق، وكان الهواء ساكناً يترقب ظهور الشمس، في حين بدا البحر الهادئ كمرآة صافية.

تربط قناة السويس بين: البحر الأبيض المتوسط، بالبحر الأحمر، ولهذا يمكن أن نقول: إن مدينة السويس هذه رمز للسلام في العالم، فهي مكان لقاء أهل الدنيا، وهي مكان مهم جداً، نظرا لموقعها الجغرافي الذي يتحكم في الحركة بين القارات، لكن بالنسبة إلي، فأنا أرى أمامي مدينة هادئة فقط، ولا يمكن أن أرى ما وراء ذلك. .

وتاريخ مدينة السويس تاريخ عريق، سمعت هذا من عجوز بالمدينة يعمل في مطعم صغير، وهو مصري، يبدو مختلفاً إلى حد ما عن الآخرين، وهو من النوع الذي يرغب في التحدث إلى الغرباء، وكأنه مرشد سياحي، كانت القصة التي حكاها لي مشوقة.

قال لي:

أنت ياباني؟ أليس كذلك؟

من خبرتي الطويلة. . لا أعتقد أنك صيني.

وهكذا سألني عن جنسيتي، وبعد أن تأكد من أنني ياباني، لم يبدِ أي اهتمام

آخر، لكنه أراد أن يشبع غريزته الكلامية، واتخذ من التاريخ موضوعاً لذلك، فبادرني بالقول:

هل تعرف تاريخ قناة السويس؟

أجبته:

لا..

عندئذٍ بدت السعادة على وجهه، فقد شعر أن الفرصة واتته ليبدأ الحديث.

أحضر الشاي والخبز ثم بدأ يتكلم:

نعم... نعم إني على يقين من أنك لا تعرف هذا الأمر، فالسويس بعيدة جداً عن بلدكم، ومن الطبيعي ألا تعرف عنها شيئاً.

تكلم إليّ كما لو لم يكن هناك أي نوع من الكتب التي تحكي عن التاريخ، لكني لم أشأ أن أقف ضد رغبته الجامحة في الكلام، خصوصاً أن لدي متسعاً من الوقت، ولهذا فيمكن أن أستمع إلى قصته طويلاً، فقد كان الرجل فخوراً بما يقدمه لي من معلومات وحكايات.

قال لي:

الآن يمكنك أن ترى قناة السويس هذه التي تربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، هذه القناة التي تحقق للناس فوائد عظيمة، لكنا شهدنا هنا كثيراً من الأحداث حتى استكملت هذه القناة وهي أحداث لا تعرف تفاصيلها بالطبع.

استمر الرجل في الكلام لفترة طويلة، وسوف أذكر هنا خلاصة ما قاله لي:

" . . ظل الناس يفكرون لفترة طويلة في أهمية هذه القناة، وضرورتها، كان ذلك في زمان الفراعنة، الذين خططوا لربط نهر النيل بالبحر الأحمر، كما أرادوا أيضاً الوصول إلى البحر الأبيض المتوسط، في عصر الفراعنة ١٣٠٠ سنة قبل الميلاد، خططوا لذلك، ولكن أحد أباطرة مصر سنة ٦٠٠م طلب من العرافين المشورة فيما يتعلق بخططه لربط البحر الأبيض المتوسط، فقال العرافون: إذا قمت بهذا العمل العظيم، فلن يفيد هذا مصر أبداً بقدر ما سيفيد العالم الخارجي، وطلبوا منه أن يتوقف عن هذا العمل، لكنه لم يلقِ بالاً إلى كلامهم، وأراد أن ينفذ خططه مهما كان الأمر، ولم يكد يبدأ مشروعه حتى حذره العرافون بأنه سيتعرض لشيء خطير أثناء استكمال المشروع، وعندئذٍ هب إعصار شديد في شكل زوبعة حلزونية، أودى بحياة مئة وعشرين ألفاً ممن كانوا يحفرون القناة، فتخلى حاكم مصر عن الفكرة[1].

وظل حكام مصر التالون يفكرون في هذا المشروع، وعدّوه واجباً يجب القيام به، وخلال العصر الإسلامي وفي عهد الخليفة عمر - رضي الله عنه -، ظهرت فكرة تنفيذ هذا المشروع من جديد عن طريق ربط النيل بالبحر الأحمر، لكن عمر بن الخطاب أعرب وهو في مكة عن تعجبه، وأرسل إلى عمرو بن العاص رسالة أمره فيها بالتوقف عن تنفيذ هذا المشروع، والسبب هو أن ربط البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، يعني أن الأجانب يمكنهم الدخول إلى مصر بسهولة، مما سيسبب

(١) يقال إن فرعون مصر "نخاو" قد حفر خليجاً في برزخ السويس من البحر الأبيض إلى البحر الأحمر، وقد قام بطليموس الثاني بالعمل نفسه.
انظر محمد حسين هيكل الفاروق عمر الجزء الثاني صفحة ١٦١، ١٦٢ دار المعارف الطبعة التاسعة.

فوضى واضطراب في العالم ، وكانت هذه هي كلمات الخليفة عمر رضى الله عنه . فقد - كان رضي الله عنه - يتوقع آنذاك (نحو سنة ٨٠هـ/ ٧٠٠م) ما يحدث الآن من اضطراب وفوضى في العالم "[١].

خشيت أن تتحرك السفينة "زمزم" بسرعة، لكن العجوز لم يكن يهتم بما أفكر فيه، واستمر في الحديث دون توقف، ورغم دخول ثلاثة زبائن، لكنه لم يهتم أيضاً بهم.

جلس الزبائن الثلاثة على الطاولة المجاورة، وأخذوا يستمعون إليه، ولم يطلبوا طعاماً أو مشروباً، وسألني العجوز:

يا "مستر ياباني" "مستر ياباني" هل تعرف نابليون بونابرت؟!

كان هذا العجوز يعرف ما يتعلق بقناة السويس جيداً، لكنه لم يكن يدري شيئاً عن أمور العالم الأخرى، إن اليابانيين، حتى الأطفال منهم، يعرفون كثيراً عن الشخصيات التاريخية في العالم، وأنا بدوري أتعجب، فمن ذا الذي لا يعرف نابليون بونابرت؟!! لكن بونابرت الذي يعرفه العجوز هو بالنسبة إليه بونابرت الذي وصل إلى مصر، وحاول أن يشق قناة السويس، ولا شيء أكثر من هذا.

في سنة ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م حين احتل نابليون مصر، حاول أن يشق قناة السويس، كان هذا صحيحاً، لكنه أيضاً تعرض لمشاكلات سياسية في فرنسا، مما اضطره إلى التخلي عن الفكرة.

"وخلال فترة حكم محمد علي باشا، عرض عليه أحد المخترعين فكرة حفر قناة السويس، لكن محمد علي باشا رأى أن هذا المشروع غير ضروري؛ لأن

(١) انظر رأي المؤرخين في المصدر السابق صفحة ١٦١، ١٦٢.

ضرره أكثر من نفعه، ثم قال إسماعيل باشا نفسه: القناة ملك لمصر، لكنها لن تكون مفيدة لمصر".

هكذا أخبرني العجوز ثم قال:

وهكذا استغرق الأمر ١٣٥٠ سنة حتى استكملت هذه القناة!! فهذا المشروع العظيم كان محض خيال، العمل العظيم يحتاج إلى وقت طويل!! لكن فائدة هذه القناة سوف تعود على البشرية بشيء لا يتوقعه الناس".

عندئذٍ سألته:

هناك فائدة كبيرة لمصر..!

فابتسم قائلاً:

بالطبع نعم إن الفائدة تفوق قدرتي على الحساب، لكن بالنسبة إلى الشركة فالفائدة التي تحققها أكثر وأكثر، فالشركة تجني فوائد ضخمة تفوق حساباتي وتصوري، فحق ملكية الأرض ثمنه يفوق التصور، فأرض القناة مئة وخمسون ألف فدان...

وسألته عن الفدان، فذكر لي معناه، وحين أخذت أقوم ببعض الحسابات، أحوّل الفدان إلى المقياس الذي نستخدمه في اليابان قاطعني قائلاً:

نعم.. نعم يصعب عليك ذلك، فالفدان بنحو كذا، وحين اشترت الشركة الأرض من الحكومة المصرية كان الفدان بعشر ليرات، وبعد عشر سنوات، وصل سعره إلى عشرين ليرة، وهذا مبلغ كبير كسبته الشركة، والإنجليز يجنون الفوائد

كلها، والأمة المصرية تعتمد الآن كلية على نهر النيل، إلا أن الإنجليز استولوا على السد المقام على النيل، وكأنهم يمسكون برقابنا ويقبضون على حناجرنا.

بعد أن أنهى كلامه، بدا عليه التعب فسألته:

ألم يكن صحيحاً ما قاله خليفة المسلمين عمر بن الخطاب رضي الله عنه؟[1]

فأجاب:

نعم.. نعم... الإسلام دين عظيم.

نطق بهذه الجملة ثم سكت، لا أدري لماذا سكت العجوز فجأة، لكني عرفت أنه يكره الإنجليز، ولهذا وجدت وسيلة لإسكاته الآن.. فشكرته ودفعت له الحساب وخرجت من المطعم.

كان الجو حاراً، وبدت الصحراء حمراء تحت وقع أشعة الشمس الحارقة، وبدت الرمال التي تهب على المدينة حمم بركان قادمة من بعيد، في حين كان لون البحر أزرق صافيًا.

جمرك السويس

كان الميناء مزدحماً للغاية بالحجاج المسافرين إلى الأماكن المقدسة، وبالمودعين الذين جاؤوا لوداع أقاربهم وأصدقائهم، وبالباعة الذين أخذوا يروجون لبضاعتهم

(١) كان عمرو بن العاص عازمًا على حفر القناة، لولا اعتراض الخليفة عمر بن الخطاب، فقد رأى أن حفر القناة سيسهل للروم اختراق هذه القناة وتسيير سفنهم إلى البحر الأحمر، ولم يكن للعرب يومئذ أسطول يقف في وجه أسطول الروم أو ينافسه، وهكذا كان العدول عن حفر القناة بعض ما يقضي به الحذر كما يقول حسين هيكل في كتابه السابق ذكره صفحة ١٦٢.

هنا وهناك، وبالحمالين الذين يقومون بحمل أمتعة المسافرين، وبرجال الشرطة المنتشرين هنا وهناك، وبرجال الجيش أيضاً، كان زحاماً أشبه بكمية من الأرز تنسكب حباتها من وعاء في غير نظام.

حين وصلت سيارتنا إلى رصيف الميناء، هرع إلينا الحمالون، الذين وضعوا على سواعدهم شارات حمراء، وعلى صدورهم قطعاً من القماش الأحمر، فاشتبكوا بعضهم مع بعض، وتعاركوا عراكاً فعلياً، كانوا يتقاتلون ويتسابقون على حمل أمتعتنا، ووصل بهم الأمر إلى دخول السيارة بالقوة، وبدا الأمر كأنهم سيسلبوننا أمتعتنا، فجاء شرطي، وخلّصنا منهم، ومنعهم من دخول السيارة، لكن بعضهم ظل لاصقاً بالسيارة، لا يريد أن يتزحزح، مما اضطر الشرطي إلى استخدام "الكرباج" أي السوط لتفريقهم.

لم أنطق بكلمة، كنت أراقب الموقف في صمت، ربما كانت بعض أمتعتي قد آلت إلى أيدي هؤلاء، ساعدني الشرطي، وطلب مني أن أختار أحد الحمالين، فاخترت رجلاً عجوزاً، حمل حقائبي إلى مكتب الجمرك.

منحت الشرطي ثلاث قطع من النقود الفضية، معبراً له عن شكري وامتناني، فابتسم الشرطي حين تسلم النقود، ثم أخذنا إلى مكتب الجمرك، بسرعة متخطياً الصفوف، وحيانا تحية عسكرية، ثم عاد إلى مكانه.

في مكتب الجمرك، تحركنا هنا وهناك لفحص الجوازات، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ولماً انتهى فحص الجوازات، وظننت أنه يمكنني أن أركب السفينة، نادى الضابط اسمي، وراح ينظر في الجواز، ويحملق في وجهي، كما لو كان لم يشاهد حاجاً يابانياً من قبل، ثم خاطبني بصوت يحمل نبرات الأسف:

هل أخذت التطعيم المطلوب؟

فسلمته شهادة التطعيم التي حصلت عليها من شركة مصر للملاحة في القاهرة، بعد أن قاموا بتطعيمي وقلت له:

نعم أخذت التطعيم.

لكن الضابط قال:

لا يمكن أن تكون هذه شهادة..

ثم أضاف:

لا قيمة لهذه الورقة.

لكن قبل أن أغادر القاهرة سمعت من المسؤولين في شركة الملاحة، ومن الناس الذين يعرفون كل شيء عن إجراءات الحج عن ضرورة التطعيم، ولهذا قمت بأخذ الأمصال الضرورية في القاهرة، ودفعت في سبيل ذلك كثيراً من المال، وحصلت على شهادة بذلك، ولهذا لا يجب أن آخذ هذه الأمصال مرة أخرى، هكذا ظننت، لكن الضابط أوضح لي الأمر قائلاً:

شهادة التطعيم يجب أن تثبت على جواز السفر، ولا تكون في ورقة منفصلة.

ولسوء الحظ لم أكن أعرف هذا الأمر، أي إثبات التطعيم على جواز السفر، وحاولت أن أريه آثار علامات التطعيم، فقربت ذراعي منه، لكن هذا لم يغير من موقفه، كان كثير من الناس ينتظرون خلفي في صف طويل، وكان وقت الرحيل يقترب، ولم تكن هناك من وسيلة سوى أن آخذ مصل التطعيم مرة ثانية، وطلبت منه بعدها أن يثبت هذا على جواز السفر.

تورمت ذراعي، فقد أخذت مصلين مرتين في ظرف يومين متتاليين، كما أن إبرة التطعيم هذه كان يعلوها الصدأ، ودفعت مبلغ ثلاثين قرشاً مصرياً.

صعود السفينة في السويس

أكملت جميع الإجراءات الجمركية، وإجراءات الجوازات، وغادرت المكتب، فوجدت الشرطي الذي ساعدني والحمال الذي حمل أمتعتي، في انتظاري، بدا عليهما التعب من طول الانتظار، نظرت إلى السلم الذي يصل ما بين الرصيف والسفينة زمزم، شاهدت في نهاية السلم رئيس موظفي السفينة، ورئيس ضباط الجمرك، ورئيس الشرطة، كانوا يفحصون الجوازات، في حين كان كثير من الحجاج يصعدون السلم مع أمتعتهم الضخمة، ووصلت أخيراً إلى السفينة زمزم.

كان وقت الإبحار قد مضى عليه نصف ساعة، ولم تتحرك السفينة، أخذت أنظر من فوق السفينة إلى الرصيف، حيث كان كثير من الحجاج لا يزالون يكملون إجراءات فحص الجوازات، كانوا يتحركون على الرصيف باتجاه السلم ببطء شديد للغاية، لا بد أن هذا سيستغرق وقتاً طويلاً، وبالإضافة إلى الزحام كان هناك بعض كبار السن ممن جلسوا على أمتعتهم، ينتظرون انتهاء شدة الزحام، في حين انتظر بعضهم الآخر على الرصيف منشغلين بتلاوة القرآن الكريم، وكان هناك بعض الشباب يودعون زوجاتهم، وهم يبكون.. مناظر مختلفة ومتنوعة..

الساعة الثانية بعد الظهر، انتهى صعود الحجاج السفينة، شاهدت "كومة" ضخمة من مواقد "الجاز"[1] مئات ومئات، ملقاة على الرصيف، ففي العادة يحمل الحجاج هذه المواقد، لاستخدامها في طهي الطعام أثناء الحج، إلا أن

(١) موقد الكيروسين، أو "وابور" الجاز الذي كان يستخدم، ولا يزال في الطبخ وما إلى ذلك.

مسؤولي السفينة زمزم رفضوا بشدة إدخال هذه المواقد إلى السفينة؛ خوفاً من مخاطر اندلاع النيران، ولهذا تركت هذه المواقد على الرصيف.

وأخيراً وفي نحو الساعة الثانية والنصف بدأت السفينة تستعد للابتعاد عن الرصيف إيذاناً بالإبحار، وبدأت فرقة موسيقية مصرية تقليدية تعزف مقطوعة موسيقية لوداع السفينة، لم نشاهد هنا ما تعودنا عليه في اليابان من إلقاء الأشرطة الورقية بين المودعين والمسافرين، ورغم ذلك فقد سيطر على قلبي شعور لا يمكن أن أعبر عنه، نظراً لقصوري في التعبير، وضعف قدرتي الأدبية، لكنه شعور عميق احتواني كلية وهزني من داخلي، كنا كجنود ذاهبين إلى ميدان المعركة.

حان الآن وقت الذهاب لتحقيق الأماني، أماني ياباني مسلم، فها نحن نتجه إلى المكان الذي شهد مولد الرسول ﷺ. فهل هناك من سعادة أكثر مما نحن فيه الآن؟

كان هؤلاء الناس أيضاً في انتظار هذه الأيام، ورغم سعادتهم إلا أن ملامح الحزن تسيطر على وجوههم أيضاً، فالحاج يواجه صعوبات أيضاً، عليه أن يتخطاها أيام الحج، وهناك بعض الأعمال الشاقة يجب أن يؤديها، فالجزيرة العربية ليست بالمكان المريح، فهي تصيب الحجاج بالتعب والإرهاق، ويقال إن عشرين بالمئة من الحجاج يموتون كل عام، وحدث ذات مرة أن مات مئتان وعشرون ألف حاج من بين نحو مئتين وخمسين ألف حاج!![1].

ويقال إن من يموت أثناء الحج يعد شهيداً![2] ويحترم الناس ذكراه، ورغم هذا

(١) لم يحدد المؤلف العام الذي حصلت فيه هذه الوفيات، ولعله يتحدث عن أمر قديم جداً (المراجع).

(٢) لم يثبت قول المؤلف بأن من يتوفى في الحج يعد شهيداً، ولكنه توفي وهو يؤدي مناسك الحج وهو فرض من فروض الإسلام.

فكل حاج يتوق إلى العودة إلى بلده بعد أداء فريضة الحج، فالزوجة تنتظر زوجها، والحاج الذي ترك أطفاله يريد أن يعود ليضمهم إلى صدره من جديد، ومع ذلك فمن بين الحجاج من لن يتمكن من رؤية بلده ثانية، لن يرى سهولها أو جبالها أو أنهارها. . .

كانت هذه الأفكار تدور في خاطري وأنا قابع على ظهر السفينة؛ لأن مشاعري تحركت بعمق، واهتزت أحاسيسي، وفجأة أفقت على صوت السيد/ تشان يناديني:

يا سيد سوزوكي. . يا سيد سوزوكي

يا سيد سوزوكي يا سيد سوزوكي!

كانت السفينة على وشك الابتعاد عن الرصيف، نظرنا أسفل عند الرصيف فوجدنا الصينيين، منشغلين على ما يبدو بالبحث عن شيء، ثم أخذوا يعيدون ترتيب أمتعتهم، ويتطلعون إلى السفينة التي كانت ستبحر بين لحظة وأخرى.

سيطر علي شعور غريب ومعقد، كنت أفكر. . من الأفضل ألا يتمكنوا من صعود السفينة، في حين تمنيت من ناحية أخرى أن يتمكنوا من الصعود. . فاليابان الآن في حرب مع بلدهم، ولا يمكن أن أتناسى شعورياً أنهم أعداء لدودون لي، لكني في الوقت نفسه أشعر بضرورة مساعدتهم، أشعر بذلك من صميم قلبي؛ لأننا ننتمي إلى منطقة واحدة، فنحن نقيم هناك معاً في الشرق الأقصى، كما أن أصولنا واحدة، وجذورنا تمتد في منطقة مشتركة، وأشعر بأننا أقرب إليهم من بقية الأجناس الأخرى.

لكن. . تلاشي شعوري الطيب تجاههم بعد لحظات، وسيطر علي الشعور العدائي تجاههم، كانت هذه الأحاسيس المتناقضة أمراً غريباً بالنسبة إلي، لم أتمكن من التحكم في مشاعري، وفي عواطفي الداخلية. . . الآن بدؤوا يصعدون إلى

السفينة، وهكذا زاد شعوري العدائي أكثر فأكثر، لقد ظننت أنهم لن يستطيعوا ركوب السفينة، لكنهم للأسف تمكنوا من ذلك، كانوا يقفزون قفزات سريعة ليلحقوا بالسفينة قبل أن تتحرك، لا يمكن أن أكون سعيداً أو مسروراً، وأنا أراهم هكذا، والسبب ببساطة شديدة أن هؤلاء أعدائي، حتى رغم انتمائنا إلى منطقة جغرافية واحدة، أقصد منطقة الشرق الأقصى.

حين شاهدت حالتهم السيئة، ومدى تعاستهم؛ لأنهم لم يتمكنوا من صعود السفينة، شعرت بالتعاطف نحوهم؛ لأنهم جيراني، لكن الوضع اختلف الآن، وقد عرفت سبب نجاحهم في اللحاق بالسفينة، لقد ساعدهم أحد البريطانيين، فبريطانيا تساعد الصين، وشعرت بعداء أشد تجاه بريطانيا أكثر من عدائي للصين؛ لأن البريطانيين يتحكمون في الصين، ويحاولون الاستفادة حتى من صغائر الأمور؛ بريطانيا لئيمة، وسياستها خبيثة، وأسلوب تعاملها ماكر.

تكلم البريطاني أولاً مع الصينيين، ثم اندفع إلى مكتب الجمرك، وبعدها ذهب إلى قبطان السفينة، وظل يتحرك هنا وهناك حتى نجح، وتمكن من مساعدتهم، ربما كنت سأشعر بالسعادة لو أنهم فعلوا ذلك بأنفسهم، لكنهم استمدوا العون من هذا البريطاني، ولهذا لم أستطع أن أتحكم في شعور الغضب الذي انتابني، والحقيقة أن مثل هذه المشاعر تنتابني دائماً طوال أيام الحج، ولم يكن هذا شعوري وحدي، لكن السيد/ تشان شاركني في هذه المشاعر أيضاً، فقد واجهنا فيما بعد بعض المشكلات بسبب ما قام به هذا البريطاني.

تأخرنا خمس ساعات عن الموعد المحدد للرحيل، فتحركت السفينة في الثالثة عصراً، وابتعدت عن الرصيف متجهة إلى جدة.

سفينة الحجاج

كانت الشمس تميل ناحية الغروب، فتنعكس أشعتها على الجبال التي تظهر صورتها الحمراء على مياه البحر، ولهذا أطلقوا عليه اسم البحر الأحمر.. ربما!

انتهت مشاعر الإثارة التي تملكتني، وخصوصاً بعد أن تحركت السفينة، وشعرت كأنني فقدت طاقتي كلها، وتلاشت هذه المشاعر كلية قبل الغروب.. كان الحجاج المتلهفون إلى الذهاب إلى الحج يتوجهون إلى الله بالدعاء، كان بعضهم يرتل القرآن الكريم، وكان بعضهم يصلي، وبدا الجميع في غاية التقوى والورع، كانت عقولنا جميعاً تفكر في شيء واحد، وتُركز على شيء واحد، وهو أننا ذاهبون إلى الأماكن المقدسة.

كانت سفينة الحج تتجه جنوباً، تحمل أناساً تضمهم مشاعر قوية تجاه الدين والعقيدة، كان الإرهاق الشديد قد أصابنا، وأخذ منا التعب مأخذه منذ الصباح، ولهذا دخلنا في الفراش للراحة، لكننا لم نتمكن من النوم رغم ما بنا من تعب.

حين غادرنا اليابان عن طريق ميناء كوبيه، كان في وداعنا الأستاذ كوباياشي مع ثلاثة أو أربعة من الأصدقاء، كان وداعاً حزيناً، قلة من الأصدقاء، لازلت أتذكر ذلك اليوم وتلك الساعة، كان الجو بارداً، وكانت السماء تمطر، أما الوضع في السويس فكان مختلفاً، كان منظر الوداع كله متعة وإثارة، متعة من الناحية الدينية وسرور ممزوج بمشاعر الإيمان، لقد غيّرني هذا المنظر كثيراً، وأثار أشجاني، فصرت إنساناً مختلفاً تماماً..

كنت أستمع، ولا أزال أستمع حتى الآن إلى تلاوة القرآن الكريم من كل جانب على ظهر هذه السفينة "زمزم" أخذت أتذكر حين قمت للحج أول مرة، وحين

وزير مالية كانو في غرب إفريقيا

ذهبت للحج ثانية، لا تزال ذكريات هذه الأيام باقية في ذهني . . لهذا لم أتمكن من النوم، فقد كانت ذكريات متشابكة ومتداخلة .

هذا العام جئت للحج مرافقاً للسيد/ تشان الذي جاء بدوره للحج أول مرة، وهو أول مسلم يأتي للحج من منشوريا، ولهذا تقع على عاتقي مسؤولية كبرى تجاهه، وبدا السيد/ تشان قلقاً لا يستطيع النوم أيضاً، بسبب مشاعر المتعة والإثارة التي تنتابه .

أخذت أدعو الله من أعماق قلبي أن نؤدي شعائر الحج خلال شهر، وأن يديم الله الصحة على السيد/ تشان .

رويداً رويداً . . . ساد الهدوء وعم الصمت السفينة، ولم يكن هناك ما يسمع غير صوت "رفاصات" محرك السفينة وهي تمخر عباب البحر .

استيقظت على صوت دقات الباب، قدم أحد الناس لينبهنا إلى وقت صلاة الفجر، استيقظنا بسرعة، وانتهينا من الوضوء، وتوجهنا للصلاة، كانت السفينة كلها مثل الخلية، تُسبح بحمد الله، انتهينا من الصلاة، وانتظرنا لنشاهد شروق الشمس لأول مرة على ظهر السفينة[١] وبعد ليلة هي الأولى لنا هنا، صار الناس في السفينة أصدقاء وأحباء، جاء كثير من المسافرين إلينا، يصافحوننا، ويعانقوننا بحب، أعطيت لمن قدم للسلام علي بطاقتي، واكتشفت أن جميع بطاقاتي قد انتهت خلال نصف ساعة فقط، ومن بين البطاقات التي تبادلتها مع المسافرين بطاقات لمصريين وسوريين وبطاقة وزير مالية كانو في غربي إفريقيا.

قدم بعض الحجاج التركستانيين للسلام عليّ، كانوا قد وصلوا هنا بعد سفر استغرق عدة أشهر، كما قدم إلي أيضاً بعض العراقيين الذين قدموا من بغداد، وقدم بعض من جاء من الهند وإندونيسيا، ورغم هذا لم يظهر أمامنا الصينيون الخمسة أبداً.

كان البحر الأحمر يبدو بلون أزرق، وكان هادئاً كالمرآة، وفي صالة واسعة كان هناك عجوز سيلقي موعظة دينية ستصل إلى المسافرين في الدرجة الثانية والثالثة عن طريق مكبر الصوت، وفي صالة الطعام كانت المقاعد محددة، كما لو كنا في هيئة الأمم المتحدة، هذه هي المرة الثالثة التي أحج فيها، في المرة الأولى تقاسمت الطاولة نفسها مع الجنرال ما رن حاكم تشن كاي، وفي المرة الثانية تقاسمت الطاولة نفسها مع المفتي الأعظم[٢] الذي يحمل عداء شديداً لبريطانيا، وتقاسمتها أيضاً مع رئيس مجلس الأمة المصري بسيوني باشا، وتحدثنا معاً كثيراً . . . ذكريات أخذت تجول في خاطري . . . كنت أتناول طعاماً مصرياً تقليدياً، الطبق الرئيس فيه لحم الضأن.

---

(١) يلاحظ أن بيئة المؤلف وحياته في اليابان تؤثر على أسلوبه في الكتابة وطريقة تعبيره، فاليابانيون يعشقون مشاهدة الشروق، والشمس عندهم لها مكانة خاصة، وإذا كان العرب يقولون بأن الوجه جميل كالقمر، فاليابانيون يقولون بأنه جميل كالشمس.

(٢) يقصد بالمفتي الأعظم الشيخ أمين الحسيني، وقد ذكره فيما بعد، وصوره وأثبت صورته في كتابه.

كانت طاولتنا اليوم هادئة جداً، وهو أمر في غاية الغرابة؛ لأن الضوضاء كانت سمة من السمات التي ألفناها حول الطاولة، لم أعرف السبب؛ لكن السيد/ تشان كان على معرفة به، فوشوشني:

هؤلاء الصينيون يشتكون.

فقلت له:

الصينيون، ماذا حدث للصينيين؟

فقال السيد/ تشان:

إنهم يشتكون، يقولون إن مقاعدهم على الطاولة ليست في الأماكن الجيدة، ويقولون يبدو أن اليابانيين، يحتلون الصدارة على الطاولة، كما أنهم يشتكون من عدم اهتمام مسؤولي السفينة بهم، ويقولون بأن العاملين على السفينة لا يعيرونهم الاهتمام اللازم.

قلت للسيد/ تشان:

هؤلاء ممثلو الصين ولهذا يجب أن يُعاملوا بطريقة جيدة.

فقال السيد تشان:

لا... لا يا سيد/ سوزوكي، إنهم ليسوا ممثلي الصين، إنهم يمثلون تايوان.

وتذكرت أن الجيل الجديد من أمثال تشان لديهم مشاعر وطنية حماسية تجاه وطنهم، فالسيد/ تشان يردد دائماً عبارته المعهودة: "هناك مستقبل ينتظر وطنه منشوريا، ولهذا يجب على تايوان أن تتعاون معهم، لكن التايوانيين لا يتعاونون

معهم " وهو يقول بأنهم ليسوا بالممثلين الحقيقيين للصين، فهم مجرد أداة في يد داعية الحرب الصيني، قال لي السيد/ تشان فجأة:

انظر . . انظر إنهم يغادرون الغرفة دون تناول الطعام.

ثم استطرد قائلاً:

أنا في غاية الخجل، فهؤلاء على كل حال جيراننا .

وبدت ملامح الحزن واضحة على وجهه . . .

كان هؤلاء الصينيون يشكون إلى " جرسونات " المطعم؛ لأنني كنت أجلس في صدارة الطاولة، على أحسن مقعد، وتعجبت لماذا التنازع على مثل هذه الأمور الصغيرة؟ لماذا يريدون إثارة خلافات مع اليابانيين أمام الآسيويين الآخرين. إن اليابان تقاتل الآن من أجل أن تبني مستقبلاً أطيب لبلدان جنوب آسيا، لتنقذ هذه البلدان من التخلف، واليابان تقود الآن بلدان آسيا[1] وهي تمثل الجيش الآسيوي والقوة الآسيوية، وبالنسبة إلي بوصفي يابانياً، فإن هؤلاء يعطون نموذجاً سيئاً للآسيويين، وسلوكهم هذا يحطم عزتنا وفخارنا، وفي حين كنت غاضباً، كان السيد/ تشان حزيناً.

بعد أن غادر الصينيون قاعة الطعام، عمَّ الصخب، وعلت الضوضاء المكان ثانية، لم أرَ مثل هذه الضوضاء من قبل، كان موضوع الحديث الذي دار بين الناس يتركز على نقد الحرب التي تدور بين الصين واليابان[2] كما لو كانوا يركزون عليّ شخصياً وعلى السيد/ تشان.

---

(١) يظن اليابانيون أنهم رغم احتلالهم لبعض بلدان آسيا فإن هذا لا يسمى احتلالاً Occupation بل يسمى " تحت السيطرة " Under control، وأن سيطرتهم على إندونيسيا مثلاً هو في صالح الشعب الإندونيسي؛ لأنهم بذلك يخلصونه من الاحتلال الغربي، وهذه وجهة نظر تحتاج إلى مراجعة بالطبع. انظر مقدمة الترجمة.

(٢) انظر أخبار الحرب في جريدة أم القرى أواخر سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م وسنة ١٣٥٧هـ/ ١٩٣٨م.

بدأت أشرح لهم، وأحاول أن أفهمهم موقف اليابان العادل، وحاول السيد/ تشان مساعدتي، وكان نعم المساعد، وظللنا حتى وصولنا مدينة جدة، نعطي للناس معلومات مفيدة، ولم أستطع رؤية الصينيين في المطعم أبداً.

فيلم دعائي على ظهر السفينة

ظهرت أمامنا سماء إفريقيا الصافية، والنجوم تتلألأ على صفحة السماء، منظر رائع وجميل...

هكذا بدأنا نشاهد فيلماً على ظهر السفينة، كان ركاب الدرجة الثالثة والثانية يجلسون في الخلف، يفصل بينهما حاجز، في حين يفصل بيننا نحن ركاب الدرجة الأولى وبين ركاب الدرجة الثانية حاجز أيضاً، كان الفيلم الأول منتجاً في أمريكا، وهو فيلم فكاهي، جعل الركاب يضحكون من قلوبهم، بل صاروا يقهقهون ويقرقرون، وعمهم السرور وغمرتهم السعادة.

حين عرض الفيلم الثاني أردت أن أغادر، لكني كنت أرغب في مشاهدته حتى النهاية، وتمالكت وتحاملت على نفسي وصبرت، فقد جعلني الفيلم أشعر بالملل والحزن، ما هذا الفيلم؟!

كان فيلماً تجارياً عن القطن المصري، وكان يحمل في الوقت نفسه دعاية سيئة من جانب شركة مصر؛ تهدف إلى رفض المنتجات اليابانية، دعاية سيئة للغاية..

بدأ هذا الفيلم بمنظر في قرية مصرية، وهو منظر مهرجان أو حفل، ترقص فيه بعض النسوة بطريقة عجيبة، تحرك كل واحدة أردافها بطريقة غريبة[1] على وقع

(١) يشير إلى ما يعرف باسم الرقص البلدي، ولم يكن معروفاً في اليابان، والعجيب أنه صار معروفاً هذه الأيام وافتتحت مدارس كثيرة يتعلم فيها كثير من اليابانيات هذه الأيام!!

موسيقى تنبعث من آلات بدائية، واستمر الحفل، في حين قامت امرأة كانت تشاهد هذا الحفل، بالدخول بين الراقصات، واستمر الرقص الغريب، وفجأة جذب بعض الناس ملابس هذه المرأة التي توسطت الراقصات، فتمزق ثوبها، وفي حين الرقص مستمر، استمر جذب ثوب المرأة وتمزقه، حتى صارت من فرط تمزقه كالعارية.

تجمعت الراقصات يشاهدن ملابس المرأة التي تمزقت، وسألنها عن مصدر قماش ثوبها، فأرتهم "ماركة" الثوب، وظهرت "الماركة" واضحة جداً، فأخذت النسوة يوبخنها: لماذا صنعت ثوبك بمثل هذا القماش؟ وتعجبت المرأة، وتضايقت، وأرادت أن تتعارك مع الراقصات، وبدأ عراك استمر طويلاً، ورغم هذا لم تتمزق ملابس الراقصات في حين تحول ثوب المرأة إلى نتف صغيرة، فانكشف معظم جسدها، فأخذت تصرخ وتبكي، فقالت لها الراقصات:

لماذا اخترت مثل هذه المنتجات اليابانية الضعيفة؟ في مصر أقمشة أفضل وأمتن ألف مرة من الأقمشة اليابانية، وشركة مصر للأقمشة تصنع أقمشة رائعة، يجب أن نتخلى عن الأقمشة المستوردة، وعلى المصريين أن يستخدموا المنتجات المصرية، انظري! ملابسك تمزقت بسهولة في حين ملابسنا التي أنتجتها شركة مصر للأقمشة لم تنقطع منها "فتلة"، إذا لبست ملابس من منتجات شركة مصر للأقمشة فسنصبح صديقات حميمات.

ذهبت المرأة باكية إلى المدينة، واشترت قماشاً من إنتاج شركة مصر، وعادت إلى الحفل، فرحبت بها الراقصات وصرن جميعاً صديقات لها..

كان فيلماً دعائياً سخيفاً، قصة بسيطة، بدون تفاصيل، لكنها قصة ماكرة،

وأسلوبها في جذب قلوب الناس أسلوب ماكر أيضاً، إنني أعترف بذلك ورغم أن هذا الفيلم ضد بلادي، فهو فيلم ناجح دعائياً بلا شك.

صفق المشاهدون كثيراً في نهاية الفيلم، وهذا يعني أن الفيلم كان مؤثراً، ولو كان الفيلم يعرض على المصريين فقط، لما كان له تأثير كبير، لكن على ظهر السفينة أناس من جميع بلدان الشرق الأوسط، بالإضافة إلى بلدان إفريقيا، وهم أيضاً ينتمون إلى جميع طبقات المجتمع، ومستوياته.

بعد الفيلم تحدث معي أحد السوريين، وكان يجلس بجواري، يحاول أن يخلصني من غضبي، وكان يقاطعني أيضاً أثناء عرض الفيلم، ومن العجيب أنني وجدت في اليوم التالي شيئاً غريباً، ففي حين كنت أتمشى على سطح السفينة، نظرت إلى شاشة العرض، فشاهدت على أحد أركانها مربعاً صغيراً كتب فيه "صنع في اليابان" مع رقم الإنتاج أيضاً، وكان ذلك واضحاً جداً، فتذكرت فيلم الليلة الماضية، وسيطر علي مزيج عجيب من المشاعر، فلم أتمكن من السيطرة على نفسي، وانفجرت ضاحكاً، وعدت إلى غرفتي، وقصصت على السيد/ تشان، ما حدث، وأخذنا نضحك معاً، لفترة طويلة حتى تخلصنا من الضيق الذي سيطر علينا منذ ليلة أمس.

ربما سيكتشف من أعجبهم فيلم الأمس هذه الحقيقة وبأسرع مما نتوقع.

الباب الثاني

الوصول إلى صحراءجزيرة العرب

ملابس الإحرام

سوف تصل سفينة الحجاج إلى جدة في غضون ثلاثة أيام، وقبل أن نصل بيوم واحد، سيقوم جميع المسافرين بالوضوء، وارتداء ملابس الإحرام.

حين حانت ساعة ارتداء ملابس الإحرام، كان جميع الحجاج في سعادة غامرة، وانطلقت ألسنتهم بالتلبية والتكبير: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. . . " في حين كانت دموع الفرح والسعادة تنهمر أحياناً من عيون بعضهم، شاهدت الشيخ الذي كان يلقي خطبة في الناس يبكي بحرقة، وكان من يستمعون إليه يبكون أيضاً، في حين كان الملبون والمكبرون يبكون أيضاً وهم يرفعون أيديهم إلى السماء، وألسنتهم تلهج بالتلبية: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. . . "

لا يمكن أن أشاهد في أي مكان آخر، مثل هذه المشاعر الجياشة، والأحاسيس العميقة، والعواطف الحارة، إلا في هذا المكان، وفي تلك اللحظات بالذات.

كان الحجاج يرتدون ملابس الإحرام، لا فرق بين غني وفقير، كنا جميعاً نرتدي الملابس نفسها، المصنوعة من قطعتين من القماش الأبيض، ففي الحج يتساوى الجميع؛ قطعتان من القماش: قطعة لتغطية الجسم من أسفل وأخرى تغطي أعلى الجسم فوق الكتفين، ولا شيء سوى هاتين القطعتين من القماش، وحين نرتدي ملابس الإحرام يجب ألا نلبس الأحذية المخيطة أيضاً، ولا يجب أن نغطي الرأس، ويحرم لبس المخيط [1].

---

(١) لا مانع شرعًا من لبس الأحذية المخيطة للمُحرِم، والممنوع هو ارتداء الملابس المخيطة كما ذكر المؤلف بعد ذلك (المراجع).

اشتدت حرارة الجو، وارتفعت تدريجياً حرارة العواطف، وزادت دقات القلوب فغداً سنصل إلى ميناء جدة.

الخطوة الأولى على أرض الجزيرة العربية

غادرنا السويس منذ ثلاثة أيام ونصف اليوم، حين وصلنا إلى ميناء جدة كانت أشعة الشمس الحارقة تلهب الوجوه، كنا ننظر بشوق من بعيد إلى ميناء جدة، وكان الجميع في سرور وفرح، والوضع في ميناء جدة شبيه بالوضع في جزر "سايبان" في المحيط الهادي[1] يجب أن تتوقف السفينة بعيداً جداً عن الساحل بسبب انتشار الشعب المرجانية هنا.

بدت مدينة جدة من بعيد بلون رمادي، شعرت للحظة أننا ذاهبون إلى عالم غريب، لا وجود له إلا في الأساطير القديمة، كان الجميع بمن فيهم أنا والسيد/ تشان في ملابس الإحرام، وكان هذا المنظر بالنسبة إلي غامضاً، جعلني أشعر وكأننا في عالم آخر، لكن ما هو أكثر من كل هذا هو أن ما نطالعه أمامنا بدا أكثر غموضاً، ولا أجد هنا كلمات تعبر عنه غير أنه غامض.

تحركت سفينة الحجاج ببطء، وتوقفت بهدوء، وقدمت إلينا قوارب صغيرة مزخرفة، ومزدانة بأعلام بلاد مختلفة، وأخذت تدور حول السفينة، وبدأ الزحام الشديد، فقد أسرعت القوارب الصغيرة، بمجرد أن اقتربت السفينة من الميناء، وبدا هذا المنظر كأن هناك فوضى عارمة من حولنا، فهذه القوارب لم تكن تتحرك في نظام، في حين كانت الريح تهب بشدة، وكانت حرارة الشمس لا تزال قوية.

---

(١) تقع جزيرة سايبان في المحيط الهادي جنوبي اليابان من الناحية الشرقية وهي تابعة لأمريكا مثلها مثل جزر هاواي وهي جزيرة صغيرة تشتهر بما حولها من شعب مرجانية.

ازداد الزحام في السفينة، وتلاصقت الأجساد، ولم يكن من السهل على أحد أن يتحرك، وتساقطت حبات العرق على وجوه الجميع، في حين كان العطش يحرق حلوقنا، فأخذت أصوات التلبية تضعف شيئاً فشيئاً حتى صارت همساً. . عندئذ شاهدنا قارباً يتجه ناحيتنا، واقترب من السفينة، كان يحمل عجوزاً يبيع بطيخاً، فكان هدية لنا من الله، وشعرنا أن هذا العجوز أنقذنا مما كنا فيه، فكانت قطعة البطيخ التي التهمتها تساوي مليون قطعة ذهبية. . شعرت براحة شديدة وانتعاش، وكان هذا حال بقية المسافرين الذين أكلوا البطيخ، فبدأت أصوات التلبية تعلو من جديد: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك".

استغرق نقلنا من السفينة عبر القوارب الصغير إلى صالة "الجمرك" نحو ثلاث ساعات.

يا له من وقت طويل! لكن الحج يبدأ من هذه النقطة.

امتلأت مكاتب "الجمرك" الصغيرة بأعداد كبيرة من الحجاج، كما تراكمت الأمتعة والبضائع، التي كان رجال "الجمرك" يفحصونها، قطعةً قطعة، مع جواز سفر كل حاج، ولأنهم فكروا بأن اليابانيين يدينون بدين آخر، فقد مكثنا منذ اللحظة الأولى، لم نتحرك لفترة طويلة، كنا نجلس على أريكة خشبية، نتوجه إلى الله بالدعاء.

كانت هذه هي المرة الثالثة بالنسبة إلي، ولهذا لم أشعر بالقلق، لكن الأمر اختلف بالنسبة إلى السيد/ تشان، فهذه أول مرة يأتي فيها للحج، ولهذا كان يصيبه القلق، إذا ما تعرضنا لشيء بسيط، لم نتبادل الحديث، وجلسنا في صمت. .

رفعت رأسي ونظرت إلى السيد/ تشان، أردت أن ألمح الأمل على قسمات وجهه، وجدت في وجهه علامات بريق، فحمدت الله، فهذا البريق يعني أن الحظ

سيحالفه دائماً بإذن الله، لقد سافرت إلى إندونيسيا، وعشت هناك ثماني سنوات، عرفت خلالها الإسلام، والتقاليد الإسلامية، والعادات الإسلامية، فقد عشت في كل وقت مع مسلمين مختلفين، صليت معهم، وتدربت معهم على أداء شعائر الإسلام، حتى صرت مسلماً مخلصاً من كل قلبي، ورغم هذا فحين أقترب من هذه الأماكن المقدسة، أشعر بنوع من القلق، ما هي هذه المشاعر؟ لا أدري! ولا أجد تفسيراً لذلك.

كنت مع السيد / تشان نحملق في هذا الباب الصغير من أمامنا، في حين شاهدنا قارباً يصل إلى الرصيف، وتمكنت من أن أشاهد الصينيين من بين ركابه، فأخذنا نحملق فيهم كأننا نحملق في شيء قبيح، مروا من أمامنا، كما لو كانوا يتجاهلون وجودنا تماماً، كانوا على وشك أن يفتحوا الباب المواجه لنا، فدقوا الباب، لكن أحداً لم يرد من الداخل، فحاولوا مرة بعد مرة، دون أن يرد عليهم أحد، فأصيبوا باليأس، وجلسوا مثلنا.

كان علينا أن ننتظر حتى ينفتح هذا الباب الذي أطلقنا عليه " طاقة القدر " كانت عيوننا تتلاقى معاً، كحجرين يقدحان شرراً، فهمست في أذن السيد/ تشان:

ربما يظنون أننا فشلنا في اختبار الدين.

فقال السيد/ تشان:

ربما ظنوا هذا، لكني على يقين من أنهم لا يعرفون شيئاً عن قضايا الدين، وربما ظنوا أنه بإمكانهم الحصول على تصريح مرور بمساعدة شخص ما، لكن الأمور هنا مختلفة، فلا توجد وساطة في هذه المسألة.

صحيح ما قاله السيد/ تشان: لا يمكن أن توجد وساطة تنفعهم في مثل هذا

الأمر؛ حتى لو كان لديهم توصية من هذا البريطاني، فإن مثل هذه التوصية ستسبب لهم مشكلة، حتى البريطاني لا يمكنه أن يفعل شيئاً الآن، فإذا كانت هناك مشكلة سياسية فيمكنه أن يستخدم توصية ما، لكن الأمر هنا يتعلق بالدين، والنصرانية دين مختلف عن ديننا الإسلامي، لهذا لا يمكنهم الدخول إلى الأراضي المقدسة.

هناك من النصارى من حاول دخول الأراضي المقدسة بعد أن تظاهروا بالإسلام، لكن بالنسبة إلى الأوربيين، يستغرق فحص مسألة الدين أسبوعين بالتمام، ولهذا يتراجع معظمهم، ويعود دون تحقيق هدفه، فلا يمكن لغير المسلم دخول الأراضي المقدسة.

قال السيد/ تشان:

لا شك أن خطاب التوصية الذي يحملونه معهم سيسبب لهم متاعب أكثر.

وفي حين كنا نتحدث في مثل هذه الأمور انفتح الباب، طاقة القدر، من الداخل دون أن يصدر عن ذلك صوت ما، فوقفنا، وقدم أربعة قضاة يرتدون الملابس العربية[1] فاندفع الصينيون فجأة ناحيتهم، وأطلعوهم على الخطاب الذي معهم معتقدين أنهم سيمرون بسهولة، ولكن كما توقعنا، نظر القضاة إلى الخطاب وأعادوه إليهم، وتجاهلوهم تماماً، وجاؤوا ناحيتنا وقالوا لنا:

---

(١) عينت حكومة الملك عبد العزيز رحمه الله قضاة لمراقبة القادمين إلى الحج، وذلك ضمن الهيئة الدينية المُشكَّلة في جدة، والتي يحق لها النظر في شهادات معتنقي الإسلام، أو اختبار معتنقي الإسلام، ممن لا يحملون شهادة.
وتتكون الهيئة من:
- رئيس المحكمة الشرعية بجدة.
- رئيس هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- أحد العلماء الذين ترى الحكومة كفاءتهم للقيام بالعمل.
انظر صحيفة أم القرى العدد (٦٨٥) ٢ من ذي القعدة ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٧م.

يسرنا ويشرفنا أن نستقبل إخوتنا المسلمين اليابانيين، فاليابان من أقوى دول آسيا، ويشرفنا بوصفنا عرباً أن نرحب بكم.

صافحونا، ثم سألونا بعض الأسئلة في الدين، وأجبناهم، فابتسموا وأخذونا إلى مكان آخر، وفي النهاية سمح لنا بالمرور لأداء الحج بوصفنا مسلمين مخلصين، ومؤمنين شرفاء.

انتهت مشاعر القلق داخلنا، وغمرنا السرور والفرح واحتضنني السيد / تشان وتعانقنا، وانهمرت الدموع من عينينا من فرط الفرح والسعادة، ولا أزال أتذكر هذه اللحظات، وأنا أكتب هذه السطور، وقلبي يطرب فرحاً، ربما لا يستطيع القارئ أن يتصور هذا الموقف، والمشاعر التي انتابتنا.

أخذونا إلى غرفة أخرى، لم يكن لدينا وقت للتفكير فيما حدث لأولئك الصينيين؛ لأن المطوفين كانوا يحيطون بنا، وكان علينا أن نختار أحدهم، لنكون تحت رعايته خلال موسم الحج، فوجدت من بينهم الرجل الذي قابلته في العام

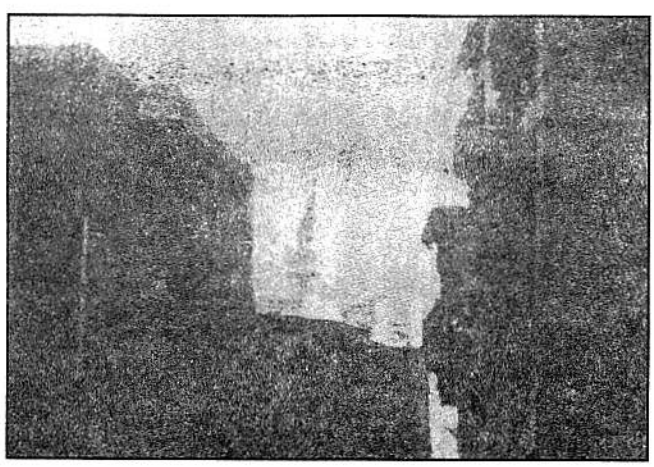

منظر من مدينة جدة

الماضي، رآني الرجل فقفز ناحيتي، وتعلق برقبتي، وأخذ يقبلني بحرارة، معلناً للجميع أن هذا الضيف الياباني من نصيبي، وأخذ يرحب بي بحرارة شديدة، وتبعناه إلى أن وصلنا إلى المكان الذي سنقيم فيه.

كان الجو حاراً خارج منطقة الجمارك، عبرنا ساحة واسعة، ووصلنا إلى منطقة تجارية، تتلاصق فيها المباني التي تتكون من أربعة أو خمسة طوابق، وتمتد على طول شوارع ضيقة جداً، وعلى الحجاج أن يعبروا هذه الشوارع الضيقة جداً، يدفعون بعضهم بعضاً، وسط زحام شديد، فقد كانت الحمير والجمال والسيارات تشاركهم أيضاً هذه الشوارع الضيقة[1]، كان من الصعب علي أن آخذ أنفاسي نظراً للغبار المنبعث من زحام مخلوقات الله، وكان الناس من أهالي هذه المنطقة شغوفين بالتعرف إلينا؛ لأننا قدمنا من اليابان، البلد الآسيوي القوي، وكان الأطفال يتبعوننا، في حين المطوف يعلن بكل فخر للناس الذين يمرون بنا، أو نمر عليهم، أن لديه حجاجاً من اليابان.

أخذ المطوف يصيح في المتسولين، الذين يلحون في طلب الصدقات، أن يبتعدوا عنا، كنت أتعجب كثيراً من مثل هذا الترحيب الحار.

مساكن الحجاج

لا يسمح للحجاج بأن يقرروا أماكن إقامتهم بأنفسهم، فالحكومة تشرف على أماكن إقامة الحجاج، وهناك قواعد لتحديد هذه المساكن التي سنطلق عليها تجاوزاً فنادق، وإذا كانت لدينا شكوى من الفندق، وانتقلنا إلى فندق آخر، فإن هذا لا يؤذي مشاعر أهل مكة فحسب، بل سيسبب لنا كثيراً من المتاعب أثناء موسم الحج.

---

(١) هذا كان موجوداً في ذلك الوقت، ولكن في الوقت الحاضر لا يمكن مشاهدة ذلك، فقد اختفت الحمير والجمال، وظهرت الشوارع الفسيحة في كل مكان في المملكة العربية السعودية (المراجع).

ومن الجدير بالذكر أن نحو خمسة آلاف أو ستة آلاف حاج يصلون مكة المكرمة كل يوم، والمسؤولون الذين يتعاملون معهم، يتعاملون بسهولة ويسر، وبطريقة سريعة، فقد تعودوا على التعامل مع هذه الأعداد الكبيرة، منذ مئات السنوات، ولا نقول آلاف السنوات، فالتاريخ عوّدهم على ذلك، وأكسبهم الخبرة اللازمة لذلك، وإذا ما قام كل حاج بعمل كل شئ طبقاً لرغبته، فسيسبب هذا مشكلات لا حصر لها، في كل مكان.

حين جئت للحج أول مرة حددوا لي بيتاً أقمت فيه وهو البيت (الرواق) التركستاني الذي كان يمتلكه عبد الله موسى، والسبب هو أننا ننتمي إلى منطقة واحدة، هكذا ظنوا، فأسكنوني هناك، وفي المرة الثانية أخذونا مع الحجاج الإندونيسيين، وبالمناسبة هناك قصة مشوقة أرى من المناسب إثباتها هنا، فيما يتعلق بالبيت الذي أقمت فيه أول مرة، وفي المرة الثانية، وكان الأستاذ تناكا[1] قد قدم

---

(١) الأستاذ تناكا إيبّي ولد في قرية كوكانيه Koganei وهي الآن ضاحية من ضواحي طوكيو سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م، بعد تخرجه في المدرسة الثانوية التحق بمدرسة الجمعية التايوانية، التي كانت نواة جامعة شوكوتاكو Shokutaku الحالية في طوكيو، وكانت هذه المدرسة قد أسست حين احتلت اليابان تايوان أثناء الحرب مع الصين، ومن هنا بدأت اليابان الاهتمام بتعليم اللغة الصينية، فكان الأستاذ تناكا أول من تخرج في هذه المدرسة سنة١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م وعمل مترجماً إبان الحرب اليابانية الروسية، وكان يعمل في مجال جمع المعلومات عن طريق معرفته باللغة الصينية.

ويقال إنه أسس مدرسة لتعليم الأطفال الصينيين داخل الصين، وعاش هناك عشر سنوات يعلمهم "العلوم الأخلاقية" القائمة على العقيدة الكونفوشيوسية، وفي تلك الأثناء أعلن إسلامه وألف كتاباً عن تجاربه في الصين بعنوان: اليقظة من أجل تقرير مصير آسيا الكبرى "تو آ - سينكاكو - شيشي - كيدن Toa Senkaku Shish Kiden .

وفي سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٣م أدى الأستاذ تناكا وكان اسمه الإسلامي محمد نور مناسك الحج وهو الياباني الثاني الذي يؤدي مناسك الحج بعد ياماوكا (انظر مقدمة الترجمة) وبعد عودته كتب مذكراته عن الحج الذي وضع لها عنواناً فرعياً هو السحاب الأبيض يطفو في السماء "هاكوؤن يوكي Hakuun Yuki" وذكر في كتابه هذا كيف أصبح مسلماً، وقد حج للمرة الثانية، وتوفي بعد عودته وكان يتوق إلى أن يدفن في الأماكن المقدسة.

انظر الصفحات التالية من الرحلة ومقدمة الترجمة، وانظر أيضاً كتاب الحاج مصطفى كومورا (تاريخ الإسلام في اليابان) صفحة ٥٦ وما بعدها وأيضاً كتاب تكويا تازاوا Tkuya Tazawa بعنوان: المسلمون اليابانيون Muslim Nippon طبع في طوكيو ١٤٠١هـ/ ١٩٨٠م ونال جائزة من الشركة الناشرة التي يعمل فيها المؤلف صفحة ٦٦.

للحج في السنة الثامنة من شوا [١] وقد أقمنا في المكان نفسه أي في منزل عبد الله موسى "البيت التركستاني" وكان هذا البيت يتعامل مع الصينيين عادة، وكان هناك تنافس على إسكان اليابانيين، وربما السبب هو عظمة اليابانيين، وهذا لا يعني أنني عظيم؛ لكن لأن اليابان بلد عظيم، ولهذا يعدوننا عظماء أيضاً، ووجودنا في الأماكن المقدسة هو بالنسبة إليهم "نجدة" فمعظم البلاد الإسلامية، أكثر من نصفها، تخضع لاحتلال البلدان الأوربية، وأيضاً جميعها من الأجناس الملونة، وتقع في الغالب في آسيا، ولدى هذه الشعوب نوع من التصميم والعزيمة، وهذا يعني أنهم يبحثون عن وسيلة للتحرر، وقد يئسوا من إمكانية التخلص من احتلال المستعمر الأوربي لبلادهم. . وهذا اليأس ليس هو الطريق الصحيح، فهذا يعني أنهم جبناء وضعفاء، ولمّا كانت اليابان قد انتصرت في حربها مع روسيا، البلد الكبير الضخم، لهذا صارت بالنسبة إليهم بلداً عظيماً، وأعطاهم هذا نوعاً من الأمل بعدما أصابهم اليأس، وقد اكتشفوا وجود اليابان، وعرفوا أنه يمكنهم الاستفادة من اليابان، وهكذا صاروا يحترمون اليابان، ويرحبون باليابانيين للسبب الذي ذكرته قبلاً ـ آسف فهذا ليس موضوعنا، لكن هذه البداية كانت ضرورية قبل أن أبدأ الحديث عما جرى في الفندق.

حين انتهينا من أداء شعائر الحج في المرة الأولى، بدأ صاحب الفندق (البيت) الأول يتعارك مع صاحب الفندق (البيت) الثاني، كان الشيخ محمد بدوي القادم من "جاوة" يتوقع مستقبلاً طيباً إذا ما صار من نصيبه مسؤولية إسكان الحجاج اليابانيين

(١) يؤرخ اليابانيون بسنوات حكم كل أسرة أو إمبراطور على حدة وفي العصر الحديث الذي يبدأ بعصر ميجي (١٨٦٨م) يبدأ بالسنة الأولى ميجي ويستمر حتى يبدأ عصر تايشو سنة ١٩١٢م ثم عصر شووا الذي يبدأ سنة ١٩٢٦م، والعصر الحاضر هو عصر هيسيه بياء مخففة ويبدأ عام ١٩٨٩م.
وهكذا فإن سنة ٨ شوا يقابلها سنة ١٣٥١هـ/ ١٩٣٣م.

الذين توقع وصولهم للحج بأعداد كبيرة، ولهذا قدم طلباً رسمياً للشريف حسين حاكم الحجاز آنذاك ليكون الحجاج اليابانيون من نصيبه، ومن جهة أخرى فكر الشيخ عبد الله موسى في الأمر، واعتقد بأن اليابانيين من جنس الصينيين، ولهذا فمن حقه أن يكون اليابانيون من نصيبه مع الصينيين، ولهذا قدم طلباً بذلك، وأصر كل منهما على رأيه، وفي النهاية قال الشيخ محمد بدوي: إن أجدادنا (الإندونيسيين) كانوا يابانيين، وهذه الجملة جعلته يكسب القضية، ويفوز، ويصبح من حقه إسكان الحجاج اليابانيين، وكان الرجل يظن أنهم سيصلون بأعداد كبيرة، لكن خاب ظنه، ولم يأته أحد، ونسي الرجل الأمر كلية.

وفجأة وصل الأستاذ تناكا للحج، لكن عبد الله موسى أسكنه عنده، ومنذ ذلك الوقت عقد عبد الله موسى علاقات طيبة مع الحجاج اليابانيين، وهكذا حين جئت للحج الأول مع تناكا سكنا عند عبد الله موسى، وانتشر هذا الخبر في المدينة وشاع، وعرف محمد بدوي بالأمر حين رجع من جاوة، وأدرك أن اليابانيين جاؤوا للحج،

ولي عهد كانو (غرب إفريقيا) في جدة

وبعد عودتنا تشاجر الاثنان معاً، ورفع بدوي قضية ضد موسى، وطبقا للقرار الذي أصدره قضاة الحكومة السعودية الحالية[١] تقرر أن يكون سكن الحجاج اليابانيين عند الشيخ محمد بدوي؛ لأنه سبق وحصل على هذا الحق قبل أي شخص آخر.

وإذا ما فكرنا في الإقامة في فندق آخر بغير هذه الطريقة، فهذا ليس بالمستحيل، فقد حددت الحكومة فندق جدة في مدينة جدة، وفندق مصر وهو خاضع لإدارة بنك مصر[٢] وهما فندقان جديدان، ويُسمح لنا بالإقامة في هذين الفندقين فقط، لكن لا يمكن أن نتجاهل الناس الذين يتوقون لإسكان الحجاج اليابانيين، وحتى إذا اخترنا فندقاً بأنفسنا فيجب أن نكون تحت كفالة "مطوف" معين أثناء فترة الحج، وأنا بدوري أوصي اليابانيين الذين يأتون للحج باختيار الشيخ بدوي (جاوة) فهو يتعامل مع الحجاج بعطف، وهناك بعض الزبائن لا يأخذ منهم نقوداً على الإطلاق، ولكن على الحجاج أن يعطوا المطوف بعض النقود مقابل كفالته لهم، وهذا أمر ضروري فالشيخ بدوي يكسب عيشه خلال موسم الحج، وهذا يمثل بالنسبة إليه العمل الذي يقتات منه.

وهذا الفندق أو البيت يحصل على دعم من الحكومة، بالإضافة إلى ما يكسبه من الحجاج، ويتوقف دعم الحكومة على عدد من يقيمون فيه من حجاج، فالحكومة

---

(١) يقصد حكومة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود.

(٢) انتهت أعمال بناء فندق مصر أو "لوكاندة" مصر في ٢٢ رمضان ١٣٥٦هـ/ ٢٦ نوفمبر ١٩٣٧م وكانت جريدة أم القرى قد نشرت هذا الخبر تحت عنوان "أفخم بناء مهم في قلب الجزيرة" وجاء فيه:

انتهت أعمال البناء في العمارة الضخمة الهائلة التي أنشأها حضرة صاحب المعالي الشيخ عبد الله بن سليمان وزير المالية في حي أجياد، بناء على طلب شركة بنك مصر، لتكون مقراً لفندق فخم تعتزم إنشاءه الشركة المذكورة في هذا المبنى الكبير، ويجري العمل.. تمهيداً لافتتاحه قبيل موسم الحج الحالي.. وهذه العمارة تقع في أحسن حي من أحياء العاصمة.. وقد بنيت على أحسن طراز ومزودة بالماء والكهرباء، وفيها مصعد كهربائي.

انظر صحيفة أم القرى ٢٢ رمضان ١٣٥٦هـ.

وقد افتتحت "لوكاندة" مصر في الرابع غرة ذي الحجة ١٣٥٦هـ/ أول فبراير ١٩٣٨م وقد نشر هذا الخبر في جريدة أم القرى العدد الصادر في الرابع من ذي الحجة ١٣٥٦هـ.

تفرض مبلغاً معيناً على كل حاج، وتقوم بتسليم هذه المبالغ لأصحاب الفنادق وأصحاب بيوت إسكان الحجاج، ولهذا كان التنافس شديداً بين أصحاب الفنادق للحصول على الزبائن، ولا شك في أن الحكومة وضعت قوانين لذلك؛ منها أنه من غير المسموح لصاحب فندق أن يأوي حجاجاً من غير المنطقة المحددة له، ومن هنا بدأ هؤلاء الناس يعطون الهبات والهدايا للحجاج الذين يرجعون إلى بلادهم حتى يقوموا بالدعاية لهم هناك، كما يقوم هؤلاء الناس أنفسهم بزيارة البلاد الإسلامية كل حسب منطقته، للدعاية وجذب الحجاج، ولهذا يجب أن نحتاط كثيراً حين نختار المطوف والفندق.

صبيان المطوفين

من بين الحجاج الذين يأتون كل عام من بلدان العالم الإسلامي المختلفة، يوجد أتباع للمطوفين، يطلق على الواحد منهم اسم صبي المطوف أو خادمه أو سلفه، ويقوم هؤلاء بقيادة الحجاج كل سنة، نظير مبلغ معين يؤخذ من كل حاج، وعادة ما يأتي الصبي من بلده بالحجاج إلى الأماكن المقدسة.

ومن الجدير بالذكر أن هؤلاء يجب أن يسجلوا لدى الحكومة بشكل رسمي، عن طريق المطوفين، وهم يحصلون على فوائد جمة أثناء الحج، ويوجد بين هؤلاء أيضاً منافسة كبيرة، للحصول على أكبر عدد من الحجاج، ومن بينهم من يأتي للحج منذ أكثر من خمس عشرة سنة متتالية، ويقود الواحد منهم ما يقرب من ثلاثمئة أو أربعمئة حاج، وبالنسبة إلى المطوّف نفسه، فدخله يتوقف على دقة اختياره للصبية أو المساعدين المذكورين، والصبي هذا الذي يساعد المطوف، لا يحصل على حقه من الحجاج فقط، بل ومن المطوف أيضاً، كما ينال أحياناً هبات وغير ذلك، كما أن

شركات سفن الحجاج التي تتولى نقل حجاج إندونيسيا، تدفع بعض الأموال لمثل هؤلاء الناس طبقاً لعدد الحجاج الذين يصطحبونهم، وهذا بدوره يدر ربحاً عليهم، وعلى المطوف أيضاً، وعلى كل حال فعملهم وعمل المطوف يدخل في بند "العمل في سبيل الله" وهذا ما يفكر فيه هؤلاء الناس، فحياتهم مرهونة بما يدفعه الحجاج لهم، ولهذا ينبغي أن يكونوا على معرفة طيبة بتعاليم الإسلام، وعلى فهم كبير لروح الإسلام، وأن يتعاملوا طبقاً لآداب الإسلام، ويجب أن يكونوا موضع ثقة الناس واحترامهم، فالسكان المحليون في مكة يشعرون بالطمأنينة أثناء وجود المسلمين من مختلف أنحاء العالم في مكة المكرمة؛ لأنهم تحت كفالة هؤلاء المطوفين، وتحت قيادتهم، وتحت إشراف صبيانهم، وهؤلاء المطوفون هم موضع ثقة أهل مكة الذين يحترمونهم ويبجلونهم.

الرحيل من جدة

اتجهنا عبر المنطقة التجارية المزدحمة التي تؤدي إلى بيت الشيخ نور الخضري، كان مالك البيت وخدمه في انتظارنا أمام البيت، أخذونا إلى صالة واسعة بالطابق الثاني، لفتت نظري تلك الثريا الجميلة التي تتدلى من السقف، يبدو أنها ثريا أعجمية من بلاد فارس، كانت الصالة فسيحة للغاية، وكأنها ساحة فرشت بسجادة عتيقة، لكنها رائعة جداً، وكان السقف مصنوعاً من الخشب المستورد من بلدان جنوب المحيط الهادي، وكانت أعمدة المنزل والنوافذ و"المشربيات" مصنوعة من الخشب نفسه، ويقال إن هذا الخشب من نوع شجر خاص، قُدم هدية من مسلمي إندونيسيا، وقد تكلف بناء هذا البيت نحو أربعين ألف جنيه، وأعتقد أنه لا يوجد له مثيل في جدة، وهو يتكون من ستة طوابق، وبني على الطراز العربي الخالص، وإذا اعتلينا سطحه، أمكننا مشاهدة مدينة جدة كلها، بما في ذلك الميناء أيضاً.

بدأنا التعارف، قدم كل منا نفسه إلى الآخرين، وقدم الحجاج الإندونيسيون للترحيب بنا.

شعرنا براحة كبيرة بعد وصولنا هنا، وحين رغبنا في أن ننال قسطاً من النوم، لم نتمكن من ذلك نظراً لاستمرار تدفق المرحبين بنا، قُدّم إلينا الشاي، في وقت بلغ فيه العطش مبلغه، وجفت حلوقنا، كأن بها حريق، ولهذا كان الشاي "نجدة" لنا، تمتعنا بارتشافه، كان لذيذاً جداً، وانشغل خدم البيت طوال الوقت بخدمة الناس، وشملونا برعاية خاصة، وقد اختاروا لنا أحد الخدم، الذي اهتم بنا بطريقة طيبة جداً، وكان يحدثنا بحب وإخلاص، وكانت مشاعره الطيبة نابعة من صميم قلبه.

وجدنا راحة ما بعدها راحة، كان برفقتنا نجل الشيخ ويدعى يوسف، فجعلنا نشعر أننا في بيتنا، وسعدنا بصحبته، وشكرناه كثيراً.

قال يوسف:

لقد جئتمونا من اليابان، من مكان بعيد جداً، ولهذا فنحن سعداء بتشريفكم، ونرحب بكم في بيتنا المتواضع، الصغير!! لكنكم في قلوبنا، وفي قلوبنا متسع لكم، أرجو أن تقدروا عواطفنا القلبية تجاهكم.

قلت له:

لا... لا.. نحن سعداء جداً، ونشكركم على هذا الكرم الزائد والترحيب العظيم.

والحقيقة أن يوسف شاب ينتمي إلى طبقة المثقفين العرب، سافر إلى إيطاليا للدراسة، حيث قضى هناك عاماً، ورغم أنه في السادسة عشرة من عمره إلا أن

شاربه كان كثيفاً تحت أنفه، وهو متزوج من فتاة في الثانية عشرة من عمرها، في الثانية عشرة فقط!! لا أصدق! لكن في جزيرة العرب ليس هذا الأمر بمستعجب، وخصوصاً بين الأثرياء من الناس.

قال لي أحد الخدم:

إنكم مرهقون جداً.. لماذا لا تجلسون هنا حتى الغد ثم تسافرون بعدها إلى مكة.

لكني أريد أن أذهب بأسرع ما يمكن إلى الحرم المكي، فشكرت لهم كرمهم قائلاً:

إنني في شوق للوصول إلى مكة بأسرع ما يمكن لأدعو الله، وأشكره على توفيقه لي، و نجاحي في الوصول إلى الأراضي المقدسة، فأرجو مساعدتي.

فقالوا:

نحن في شوق إلى لقائكم ثانية حين ينتهي موسم الحج.

وبدؤوا يعدون العدة لإحضار سيارة، وتصريح الذهاب، وانشغل كثير من الناس في هذه الأمور، كنت أشعر بضرورة البقاء هنا هذه الليلة، لكني عرفت أن هؤلاء الصينيين سوف يتحركون إلى مكة في الساعة الرابعة بعد الظهر، ولهذا يجب أن نغادر اليوم أيضاً.

أخبرنا رب البيت أننا سنتناول طعاماً خفيفاً، فانتقلنا إلى حجرة الطعام، وهناك تعجبت، لماذا أحضروا جميع هذه الأنواع من المأكولات، وبهذه الكمية الضخمة،

كان معنا بعض أهالي جـدة، ربما أصدقاء لصاحب البيت، أعتقد أن هذا الطعام صنع بأيدي "الحريم" كان الطعام يتكون أساساً من "خروف مشوي" على الطريقة العربية، مع أنواع أخرى من الأطعمة العربية اللذيذة.

جلس صاحب البيت بجوارنا، مع أبيه وابنه، وتناولنا الطعام معاً، قال صاحب البيت:

سوف تذهبون بالسيارة، وسوف تشعرون بالجوع في الطريق، لا محالة، إن لم تأكلوا جيداً.

وقال الآخرون الشيء نفسه، وحذرونا، وطلبوا منا أن نأكل حتى نشبع.

كانت لدي خبرة سابقة، فأكلت كثيراً طبقاً لنصائحهم، ولم أتردد، لكن السيد/ تشان فكر بأننا سنذهب بالسيارة، لا مشياً على الأقدام، ولهذا لم يكن هناك معنى لمسألة الجوع في الطريق، فنصحته بأن يأكل جيداً، وقلت له بأن الطعام لذيذ، وأكلنا معاً حتى شبعنا.

حين جئت هنا لأول مرة، حذرني الناس، ونصحوني بالأمر نفسه، ويمكن للقارئ أن يفهم هذا الأمر إذا سافر في طريق صحراوي غير ممهد لأربع ساعات[1]، فالسيارة تمضي عبر الصحراء، تقفز إلى أعلى، وتهبط إلى أسفل أكثر مما نظن، على طريق طوله خمسة وأربعون ميلاً، ويجب علينا طوال الطريق أن نشد أجسامنا جيداً، ونلصقها بالسيارة، التي تعلو وتهبط فجأة، هذا بالإضافة إلى أن السيارة كانت كثيراً

(١) كان هذا في زمن المؤلف أما الآن فيربط مطار جدة بمكة طريق مسفلت مزدوج سريع ذو عدة مسارات يستغرق السائر فيه للوصول إلى مكة قرابة أربعين دقيقة فقط (المراجع).

ما "تغرّز" أي تغوص في الرمال، وعندها يجب أن ننزل لنسحب السيارة بأنفسنا، ويتكرر هذا المشهد ثلاث مرات أو أكثر، ولهذا سنشعر بالجوع، وفي جزيرة العرب يقولون: "إن السفر بالسيارة يعني الجوع". وليس هذا بالأمر السهل على الحجاج، وكنت أشعر أحياناً بأن من يمشون على الأقدام أحسن حالاً منا نحن راكبي السيارات.

الآن تم الانتهاء من جميع الترتيبات اللازمة للرحيل: السيارة، والتصريح، وبطوننا الممتلئة بالطعام... وهكذا غادرنا جدة.

على مشارف الأراضي المقدسة

يجب أن نمر بنقطتي تفتيش حتى خروجنا من بوابة جدة، في إحدى نقاط التفتيش، فحصوا كمية الوقود في السيارة، وفي نقطة التفتيش الثانية طلبوا منا إبراز شهادة كوننا مسلمين، والورقة التي تفيد دفع ضريبة الدخول، والرسوم الأخرى التي تدفع للمطوف، وغير ذلك، وظل يوسف نجل صاحب البيت يرافقنا إلى آخر لحظة، وقد ساعدنا كثيراً.

كان اليوم عاصفاً، وكانت الريح تهب من ناحية الغرب، وكانت العواصف الرملية تدور بين المباني، وعلى الطريق، وبدا قرص الشمس أحمر قانياً، في حين شاهدت قافلة من قوافل الحجيج، تحاول الهروب من العاصفة، وسط قطيع من الماعز والخراف، ورغم أن الشمس كانت على وشك الغروب، إلا أن حرارة الجو كانت شديدة محرقة، وكانت حبات الرمال تلتصق بجلدي كأنها اللهب.

وصلنا إلى البوابة الأخيرة لسور مدينة جدة، فسألنا الشرطي الحارس بعض الأسئلة، وعندها قدم من خلفنا عدد كبير من الحجاج الفارين أمام العاصفة، ورغم

أنهم كانوا متضايقين ومتعبين بسبب العواصف المحملة بالرمال إلا أنهم كانوا يرددون عبارات التلبية "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. . . " دون انقطاع.

كان هناك من الحجاج من يمشي على قدميه، وكان منهم من يجلس بين الأمتعة، فوق أحد "اللوريات" كانوا جميعاً مؤمنين مخلصين، صادقين، وكان إيمانهم القوي يعطيهم قوة تمنع عنهم ما قد يصيبهم من ضعف، في طريقهم الطويل إلى الأماكن المقدسة، وكان إيمانهم يقوي من عزيمتهم، فلا يصيبهم التعب. .

لقد واجهوا المتاعب المتنوعة في كل خطوة مشوها من بلدهم حتى وصولهم هنا إلى الأراضي المقدسة، وقد سمعت أن بعض حجاج إفريقيا القادمين من الساحل الغربي يأخذون سبع سنوات ذهاباً وإياباً، وبعض الناس يأتون من تركستان، يعبرون المناطق الجبلية المغطاة بالثلج، ويصارعون العواصف الثلجية، حتى إذا ما وصلوا بالقرب من الأماكن المقدسة، وجدوا جواً مختلفاً تماماً، وجدوا جواً جافاً وحاراً تهب فيه العواصف الرملية. . .

حين أفكر في تلك المصاعب الشديدة التي واجهوها حتى وصلوا إلى هنا، لا يمكنني أن أتمالك نفسي من البكاء، فتنهمر الدموع غزيرة من عيني، فالحجاج ليسوا دائماً من الأغنياء الموسرين، ويظل الفقراء يكسبون القليل والقليل من أجل القدوم للحج، وهذا نابع من صدق إيمانهم، وفي طريقهم ينفقون أقل القليل، وأحياناً يذيبون الدقيق بالملح، ويسدون به رمقهم، وهم في غاية السرور، والرضا بما قسم الله لهم؛ لأنهم قادمون لأداء فريضة الحج، ورغم كل هذا، يقدمون تلك الأموال التي كسبوها بشق الأنفس، صدقة في سبيل الله، إذا ما لجأ إليهم بعض أطفال الفقراء والمساكين، يقدمونها بنفس رضية، يمدون أيديهم الخشنة بقطع فضية صغيرة إلى هؤلاء المساكين، تلك الأيدي التي تحكي تاريخ شقائهم وتعبهم من أجل الحصول على هذه الأموال.

حين شاهدت كرمهم هذا وسخاءهم، رغم ضيق ذات اليد، شعرت بنقاء إيمانهم، وصفاء ضمائرهم، وانهمرت الدموع من عيني ثانية، فهؤلاء لم يستخدموا سيارة، ولم يركبوا جملاً أو بعيراً، استمروا في المسير، يستخدمون أرجلهم، ويمشون الهوينا، وعيونهم معلقة ناحية المدينة المقدسة، وفي صدورهم قول الله تعالى في سورة البقرة:

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ﴾[البقرة: ١٩٦].

وقوله تعالى:

﴿فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وما يعطيه الحجاج هنا يعني "صدقة" ومن الواجب على الحاج أن يتبع ما أمر الله في كتابه العزيز، والحاج يمضي في طريقه، يؤدي شعائر الحج، مهما تعرض لصعوبة في الأماكن المقدسة، وهو يعطي الصدقات بقدر ما يستطيع، طبقاً لمقدرته، وإعطائه الصدقة يعنى السعادة التي لا يمكن أن ينالها من أي طريق آخر، فالصدقة من أهم واجبات المسلم، وأوامر الله في القرآن الكريم واضحة، ويجب ألا نعصي له أمراً، وما يقدمه الحجاج في صدقات، هو تعبير عن مشاعرهم تجاه إخوانهم في الدين، وهذا أيضاً يعني أن نتعاطف مع العرب الذين يحافظون على الأماكن المقدسة، والذين يعيشون في ظروف صعبة[1]، فهم إخوة لنا في الدين، في حين

(١) لقد أنعم الله سبحانه وتعالى على هذه البلاد «المملكة العربية السعودية» بعد نعمة الإيمان والأمن بنعمة البترول في أراضيها منذ منتصف القرن الرابع عشر الهجري فتغيرت أحوالها المعيشية وتحسنت بفضل الله تعالى، وتحدثنا بنعمة الله سبحانه وتعالى نذكر ذلك بهذه المناسبة (المراجع).

نحن نعيش في بلاد طيبة تتوافر فيها عوامل الراحة، فيجب أن نقدم لهم الصدقات، لنعبر لهم عن مشاعرنا الطيبة تجاههم، فهم حماة الأماكن المقدسة.

ويعيش بعض العرب حياة معقولة هنا في مكة والمدينة وجدة، بسبب هذه الصدقات والهبات التي يحصلون عليها من الحجاج.

حين توقفت سيارتنا عند نقطة التفتيش، شاهدت عجوزاً مع بعض الأطفال، على جانبي السيارة، مدوا أيديهم إلينا طالبين صدقة، فأعطيناهم بعض النقود، عن طيب خاطر، فشكرونا، ورفعوا أيديهم بالدعاء لنا.

يتكرر هذا المنظر كثيراً أثناء أداء مشاعر الحج، ولهذا وجب علينا أن نجمع العملات المعدنية: الذهبية والفضية والنحاسية، وكنا نشعر بأن جعبتنا المصنوعة من الجلد قد امتلأت بهذه العملات، ولكن حين نرجع، نشعر بأنها فارغة تماماً.

طريق الحج

خرجنا من بوابة جدة، وأخذنا الطريق المؤدي إلى مكة، كان ذلك في الساعة الرابعة عصر يوم الخامس من يناير سنة ١٣ من شوا، الموافق الرابع من ذي الحجة[١] زادت السيارة من سرعتها، وهي تقطع الطريق وسط الصحراء، كنا نمر بالحجاج الذين يمشون على أقدامهم، متفرقين، أو في جماعات صغيرة، أو ضمن قوافل كبيرة، وكان المنظر من حولنا كما هو لا يتغير، رمال مترامية على مرمى البصر، عند حد الأفق، لا يوجد ما يلفت النظر سوى نباتات صغيرة، ولا شيء سوى امتداد الرمال حيثما نظرنا، ومن الجدير بالذكر أن هبوب الرياح هنا، حتى ولو كان بهدوء

(١) سنة ١٣ شوا أي سنة ١٩٣٨م/ ١٣٥٦هـ - ١٣٥٧ هـ.

شديد للغاية فهذا يعني زوبعة رملية، وهذا يعني تعرض راكبي الأنعام للخطر، كان الطريق مغطى بالرمال، ولا يمكن للسيارة أن تقلل من سرعتها.

هذا هو طريق الحج، وهو عبارة عن "مدقات" نتجت من سير السيارات والإنسان والدواب، ولا توجد فيه علامات، سوى إطارات السيارات الموضوعة أحياناً لتحدد مسار الطريق ليس إلا، وتخفيض سرعة السيارة على الطريق يعني أن "تغرز" السيارة في الرمال فوراً، وإذا غرزت السيارة في حفرة عميقة فهذا يعني أنها ستغرز في الرمال مسافة تصل إلى حد ركبة الإنسان، وعلينا عندئذٍ أن نسحب السيارة من هذا العمق، ولا أدري كم مرة سنفعل هذا حتى نصل.

كان الطريق في بعض الأماكن صخرياً، يعلو بنا ويهبط، ومن هنا وجب علينا أن نتماسك، وأن نلصق أجسامنا بالسيارة حتى لا نرتطم بها، من شدة الاهتزاز، كان الطريق يرتفع ويهبط بشدة، وكما قالوا في جدة، جعلنا هذا نشعر بالجوع الشديد.

كان طريق الحج هذا مرصوفاً حتى مسافة مئة متر بعد بوابة جدة، ثم يتحول الطريق إلى مدقات دون رصف، أما الجزء المرصوف فقد قامت برصفه الحكومة المصرية كتجربة، لتحصل على عطاء يسمح لها بتوقيع عقد لرصف طريق الحج هذا، وعليه فيمكن أن يكتمل رصف الطريق حتى مكة بالمواصفات نفسها التي شاهدناها عند بوابة جدة.

وقد سمعت أن الحكومة المصرية حصلت على حق تعبيد الطريق ورصفه، ولم تحصل على هذا الحق فقط، بل حصلت على تنظيم تسيير الطريق البحري الخاص بالسفن، والطريق الجوي من مصر إلى جدة، وفي سنة ١٢ شوا[1] قاموا بتطوير

(١) سنة ١٢ شوا أي سنة ١٩٣٧م/ ١٣٥٥ هـ - ١٣٥٦ هـ.

الطريق الجوي من جدة إلى المدينة المنورة[١] لكن حدث شيء ما يتعلق بالطائرات هذا العام، ومن ثَمَّ تم إلغاء السفر جوا.

إذا أخذنا الطائرة من جدة إلى المدينة المنورة استغرق ذلك ساعتين، ولكن إذا ركبنا الجمل استغرق ذلك مدة أسبوعين، ربما يتعجب صحابة الرسول ﷺ لو بعثهم الله الآن، وعرفوا أن الحجاج يأتون لزيارة المدينة الآن بالطائرة، في مثل هذه المدة القصيرة.

على كل حال وفي القريب العاجل سيصبح هذا الطريق الذي جعلنا نشعر بالجوع، طريقاً جذاباً جميلاً، يمكن أن تمضي عليه السيارات بسهولة ويسر، دون غرزٍ أو حوادث...

وإذا كان الشيء بالشيء يذكر، فأذكر أنني في الحج السابق تعرضت مع رفاقي لحادثة مفجعة، يمكن أن نصفها بأنها كانت مأساة على الطريق. أتذكر جيداً ما حدث في ذلك الوقت، فقد أطلق عليها السيد هوسوكاوا[٢] "حادثة الصحراء الدامية" وأود أن أشير هنا باختصار إلى ما حدث.

---

(١) "وافقت حكومة جلالة الملك (عبد العزيز بن سعود) على طلب شركة مصر للطيران بأن يفتح خط الركاب الجوي بين جدة والمدينة في موسم الحج الحالي، لنقل الزائرين من الحجاج، طبقاً لما كان في العام الماضي، ويتظر أن يفتح هذا الخط في شهر يناير المقبل "(أي ذي القعدة) - هذا ما ورد في صحيفة أم القرى في ٣٠ رمضان ١٣٥٦هـ وهذا يعني أن الطائرات كانت قد نقلت الحجاج في العام السابق بين جدة والمدينة.

وكانت صحيفة أم القرى قد نشرت أيضاً خبراً مفاده أن طائرة مصرية وصلت إلى مطار جدة ومنها إلى المدينة ثم العودة إلى مصر. انظر صحيفة أم القرى ٢٣ رمضان ١٣٥٦هـ.

وكانت صحيفة أم القرى قد نشرت في ذي الحجة من العام السابق أي ١٣٥٥هـ/ فبراير ١٩٣٧م خبراً يفيد بأن الطائرة التابعة لشركة بنك مصر، والتي تقوم بنقل الحجاج والبريد بين جدة والمدينة قد بدأت عملها، فقامت في الساعة الثامنة إفرنجي صباحاً، ووصلت المدينة في الساعة التاسعة والدقيقة الأربعين وعليها خمسة من الحجاج الفلسطينيين، ثم غادرت المدينة في الساعة العاشرة ونصف إفرنجي قبل الظهر فوصلت جدة بعد ساعتين إلا ربع، وقالت الصحيفة: "لا شك بأن هذه أول حركة من نوعها في البلاد المقدسة".

انظر صحيفة أم القرى غرة ذي الحجة ١٣٥٥ هـ/ ١٢ فبراير ١٩٣٧م.

(٢) هوسوكاوا لم نجد عنه معلومات غير ما أورده المؤلف.

في حين كانت السيارة تمضي على الطريق، تعلو وتهبط، وتهبط وتعلو، كنا نلصق أجسامنا بالسيارة حتى لا نطير منها، وكنا نتماسك معا، تتشابك أيدينا، وفجأة علت السيارة كأنها تطير، ثم نزلت مرتطمة في الأرض بشدة، فاصطدمنا ككتلة في سقف السيارة: أنا وهوسوكاوا والسيد كؤوري[1].

جُرح السيد كؤوري في جبهته، كما أصيب أنف السيد/ هوسوكاوا، وسالت منه الدماء بغزارة حتى احمرت ملابس إحرامه من كثرة الدماء التي سالت عليها، وأصيبت أنفي أيضاً، وتحطمت نظارتي بعد أن تهشم زجاجها، توقفت السيارة على الفور، فخرجنا منها، وقمنا بتضميد جراحنا، ووضعنا بعض الماء على الجراح حتى تبرد، وفجأة فقد السيد/ هوسوكاوا وعيه، وأغمى عليه، فانشغلنا به أنا والسيد/ كؤوري، وقمنا بمحاولات لوقف الدماء التي كانت تسيل من أنفه، فحشونا أنفه بالورق، حتى توقفت الدماء، وبعد أن استرد وعيه، قررنا أن نستريح، فرقدنا فوق الرمال التي صارت أكثر برودة، مع دخول الليل، وأخذنا نتطلع إلى السماء من فوقنا دون أن ننطق بكلمة...

كم كانت السماء جميلة ورائعة!!

لا يمكن للكلمات مهما كانت أن تصف جمالها الخلاب!!

بل لا توجد تلك الكلمات التي تعبر عن روعة سماء ليالي جزيرة العرب الساحرة..

ربما لأننا ننظر إلى السماء بعد أن تعرضنا لهذه المأساة!

---

(١) كؤوري لم نجد عنه معلومات غير ما ذكره المؤلف.

خلال سفري هنا وهناك، الذي امتد على مدى عشر سنوات، شاهدت سماوات وسماوات، سماء يزينها القمر، وسماء مملوءة بالنجوم، وسماوات خالية من كل شيء كأنها صفحة بيضاء وهكذا.

كنت أشاهد السماء أثناء رحلتي على ظهر سفينة، وتمتد الرحلة وتطول فوق المحيط الهادي، وأحياناً أشاهد السماء من على ظهر السفينة في البحر الأحمر، وكنت معجباً ومغرماً بروعة السماء في الليل.

في السنوات الثماني الماضية ذهبت إلى إندونيسيا، وكنت معجباً بجمال سماء المحيط الهادي، ولكن الآن بعد أن صارت لي تجارب عدة هنا وهناك فإني أقر بأنه لا مثيل لسماء ليالي جزيرة العرب بنجومها الساحرة الخلابة، لم أر مثيلاً لها من قبل، ولن أرى مثيلاً لها من بعد.

ولا شك أن سماء ليالي المحيط الهادي جميلة، لكني شعرت بجمالها فقط لا أكثر، وفي رحلاتي الطوال على ظهر السفينة شاهدت سماوات كثيرة في الليل، فكنت أشعر بعظمة السماء، ورحابتها وضخامتها، وبهولها أحياناً، لكن جمال سماء الجزيرة العربية في الليل أجمل كثيراً وأروع من كل ما شاهدت، وجمالها يخلب اللب، ويصل تأثيره إلى أعماق القلب!

ربما كان هذا نوعاً من الشعور الغامض تجاه الصحراء، غمرني بقوة وبطريقة غير متوقعة، فنسيت كل شيء عن أنفي المجروح، ونظارتي المهشمة، فقد كنت معجباً أشد الإعجاب بروعة سماء جزيرة العرب في الليل..

يمكن القول بأن الصحراء غامضة، لكن إذا عممنا ذلك، وقلنا بأن جميع الصحراوات غامضة، فإن صحراء مصر يجب أن تكون غامضة، لكن مشاعري في

مصر وتجربتي في صحرائها ليلاً تختلف تماماً عما شعرت به هنا، ولا يمكن أن أجد سبباً لذلك، فحين شاهدت الأهرامات التي يرجع تاريخها إلى نحو خمسة آلاف سنة، وشاهدت أيضاً أبا الهول تحت السماء في الليل، شعرت بالطبع بعظمة السماء في الليل، لكني افتقدت سحر الغموض الذي يمنحني التأثير الذي أشعر به الآن، وأنا أرقد فوق الرمال الناعمة، أتطلع إلى سماء الجزيرة العربية في الليل[1].

يجب أن أذكر بأننا كنا آنذاك ذاهبين إلى الأماكن المقدسة، ومنذ نحو ١٣٥٠ سنة أدى محمد ﷺ شعائر الحج، ونحن الآن نمضي على سنته، ونفعل ما فعل، ونرتدي الملابس نفسها التي كان يرتديها، ونردد الدعاء نفسه الذي كان يردده، ونسلك الدروب التي سلكها، وهكذا نصبح صدى للصوت الذي يتردد منذ ألف وثلاثمئة وخمسين سنة مضت... شعور يكتنفه الغموض، سر من الأسرار لا يعلمه إلا الله، ربما جعل جمال سماء ليالي جزيرة العرب الغموض يشملنا جميعاً في تلك اللحظات.

---

(١) حب الطبيعة في قلوب كل ياباني، ويرجع ذلك لأسباب متعددة، منها ما هو ديني فهم يعتقدون بالفكرة البوذية القائلة بأن "الجبال والأنهار والنباتات والأشجار كلها مقدسة"، ومنها ما يتعلق بطبيعة اليابانيين أنفسهم، وما جبلوا عليه من تعاليم أخلاقية تمثلت في "البوشيدو" أو روح الفارس، وهذا ما جعل البروفسور الدكتور إنازو نيتوبه يبدأ كتابه "البوشيدو بالعبارات الآتية: الفروسية زهرة استأثرت بها التربة اليابانية كما استأثرت بأجمل الأزاهير "الساكورة" أو الكرز "ونسجت منها شعار الوحدة الوطنية.

أما يوتاكا تازاوا الأستاذ بجامعة ماساشينو، وسابورو ماتسوبارا الأستاذ بجامعة تشيبا، وياسونوري ناجاهاتا المحاضر بجامعة واكو فيذكرون في تقديم كتابهم التاريخ الثقافي لليابان نظرة شاملة ما يأتي:

"... لو حاول المرء أن يصف الثقافة اليابانية في كلمات قليلة لأمكن القول بأنها تكشف عن محاسنها الداخلية في مواجهة البهاء الخارجي.. والإحساس بالجمال الذي يتسم به اليابانيون يعبر عنه بـ "ميابي" أي الأناقة ذات الذوق الرفيع و "مونو نو أواري" أي الرأفة بالطبيعة و "وابي" أي الذوق الهادئ و "سابي" أي البساطة الأنيقة، وهذا يوحي بعالم من الانسجام الجمالي والعاطفي".

كما أن النمط الشعري المعروف في الأدب الياباني باسم (الهايكو) يعتمد على الشعر المستنبط من وحي الطبيعة والفصول الأربعة.

انظر التاريخ الثقافي لليابان نظرة شاملة الترجمة العربية وزارة الخارجية، اليابان ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٧م. وانظر أيضاً مقدمة كتاب مختارات من الأدب الياباني تأليف مجموعة من الكتاب اليابانيين، وترجمة صبري أبو الفضل الهيئة المصرية العامة للكتاب الألف كتاب (الثاني) ٥٧ القاهرة سنة ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

بعد نصف ساعة بدأت السيارة تتحرك من جديد، كان الجو هادئاً والريح ساكنة، كأن الهواء اختفى في ليل الصحراء. كنا نشاهد على ضوء كشافات السيارة الحجاج يمشون على أقدامهم، كان الإرهاق بادياً على وجوههم، وكانوا متعبين، لا يفكرون إلا في تحريك أقدامهم التي تحملهم إلى الأمام، ومررنا أيضاً بجماجم البعير، وبأحجار تدل على أن هناك من ماتوا، ودفنوا هنا، وعند هذا المشهد أطبق الصمت، لم نكن نسمع سوى صوت محرك السيارة، وفجأة غاصت سيارتنا في الرمال، ربما كانت هذه هي المرة السادسة، كنا مرهقين، ومع ذلك فيجب علينا أن نرفع السيارة، ونسحبها، لكن جهودنا لم تثمر سوى الفشل، ومر الوقت دون أن نحقق أي نجاح، فقررنا البقاء بجوار السيارة، وفجأة ظهرت لنا جماعة من الحجاج، ساعدنا أفرادها في رفع السيارة، دون أن ينطقوا بكلمة، واختفوا عن الأنظار، كما لو كان ما شاهدناه مجرد خيال، فما حدث تم في لحظة، وشكرناهم كثيراً.

وبدأت السيارة تتحرك من جديد، وشاهدت السيد/ كؤوري يبكي وينتحب، فسألته:

لماذا تبكي؟

فتردد برهة ثم قال:

قد تظن أنني مخبول أو مجنون أو أنني إنسان غير عادي..

قلت له:

تكلم!

فقال:

رغم محاولاتنا المستميتة لرفع السيارة من قبل، لم ننجح، عندئذ شعرت بالقلق الشديد، وفجأة شاهدت كما لو كان السيد تناكا (الذي كان قد مات) يربت على كتفي، فالتفت فوجدت السيد/ ناكا واقفاً خلفي، أشار إلى السيارة، عندها نظرت فوجدت جماعة الحجيج تلك، التي ظهرت فجأة وساعدتنا في رفع السيارة. هذه ظاهرة غريبة جداً، فقد تحركت السيارة بسرعة، والسيد/ تناكا الذي توفي، وقلبه معلق بالأماكن المقدسة، ربما هو الآن معنا بروحه، لذلك لم أتمالك نفسي، وبكيت.

كنا نحمل ملابس السيد/ تناكا التي كان يرتديها قبل وفاته، وكان قد أوصانا بدفنها في الأماكن المقدسة[1]، ولهذا حملناها معنا الآن.

والسيد/ تناكا كان مسلماً صادقاً ومخلصاً، وكان يريد لشعوب آسيا كلها أن تتطور وترقى، وحين قدم للحج آخر مرة، كان يشعر بدنو أجله، وكان يظن أنه سيفارق الحياة في الطريق؛ لأنه كان مريضاً، وتحامل على نفسه كثيراً، وأدى شعائر الحج كاملة، وفي طريق العودة، وفي حين هو في السفينة اشتد عليه المرض، وفارق الحياة، ولم نفكر أبداً في أننا سنشاهد روحه في هذه الصحراء، أليس هذا سراً من أسرار صحراء جزيرة العرب.

لقد صدّقت أنا والسيد هوسوكاوا تلك القصة التي حكاها لنا السيد/ كؤوري، ودعونا الله أن يتغمد المرحوم الأستاذ تناكا برحمته، وأن يسكنه فسيح جناته.

هذا ما حدث لي منذ ثلاث سنوات مضت...

---

(١) هذا العمل لا أساس له في الشرع ومن ثَمَّ فلا فائدة منه (المراجع).

ولا زلت أتذكر ما حدث، وأنا أسلك الطريق نفسه الآن، وحين أتذكر مثل هذه الأمور أجد نفسي، رغماً عني، أتماسك وألتصق بالسيارة تماما كأنني والسيارة قطعة واحدة.

وصلنا بعد فترة إلى "بحرة"[١] التي تقع في منتصف الطريق بين جدة ومكة، وهناك نحو عشرين استراحة يقولون بأنها "بيت" أو "منزل" وهي عبارة عن أحجار مرصوصة إلى بعضها مع رمال، كانت هذه الاستراحات مصفوفة على جانبي الطريق، وكانت هناك مظلات تقي أشعة الشمس، وهناك يباع الشاي والخبز والبيض المسلوق والبطيخ والبرتقال.

حين وصلنا "بحرة" كان الليل قد حل، وشاهدنا "الكلوبات"[٢] بأضوائها

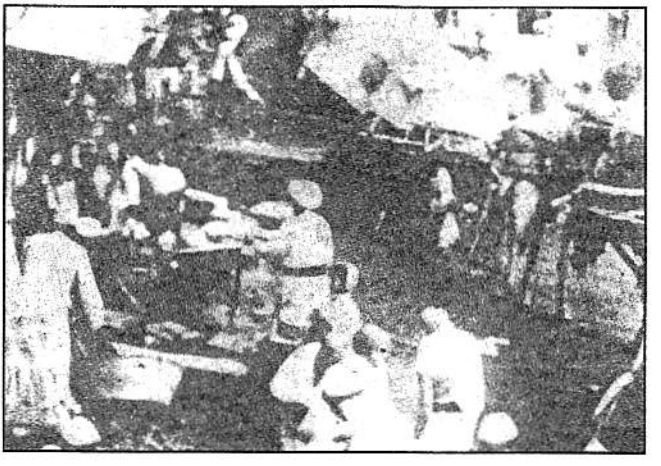

مقهى في بحرة

(١) (بحرة) وصفها المؤلف وتقع في وسط الطريق بين جدة ومكة انظر (معجم البلدان السعودية) للشيخ حمد الجاسر رحمه الله.

(٢) كانت "الكلوبات" تستخدم عادة في الإضاءة لعدم وجود كهرباء، وكانت الإعلانات عن أنواعها وقدراتها على الإضاءة تملأ الصحف التي كانت تصدر في تلك الأيام، مثل: أم القرى، والبلاد السعودية.

الزرقاء في كل استراحة، تُنير المكان، كانت الاستراحات مكتظة بالحجاج، وقررت أن أستريح، ووافقني السيد/ تشان، فجلسنا بين الزحام، كنا نسمع الناس من جميع الجهات تلهج ألسنتهم بالتلبية: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك. . . " استرحنا قليلاً ثم بدأنا نتحرك ثانية، وبدأت مشاعر متنوعة تنتابني، وأنا أمضي على طريق الحج، كنت أرى الأحجار التي تدل على دفن الموتى هنا، كانت هناك أحجار صغيرة مرصوصة بعضها فوق بعض، كأنها قباب صغيرة متلاصقة، شاهدنا كثيراً منها بجوار "بحرة" عندئذٍ شعرت بالأسف والحزن، وسألت السائق عن هذه الأحجار فقال:

هذه الأحجار كلها مقابر، وهي لحجاج كانوا في طريقهم للحج، وماتوا من التعب والإرهاق وضربات الشمس.

تأثرت كثيراً حين سمعت هذه العبارة، وشعرت بالحزن، فهؤلاء الناس جاؤوا لأداء فريضة الحج، الفرض الخامس من فرائض الإسلام، ولكن قبل أن يتموا شعائر الحج، وقبل أن تكتحل أعينهم برؤية الكعبة المشرفة، ماتوا. . لا بد أنهم حزنوا كثيراً وأسفوا على ذلك. لكن هؤلاء الموتى، الذين ماتوا في الحج، يعدون من الأطهار، فموتهم هنا أثناء قدومهم لأداء فريضة الحج، يعطيهم مكانة عالية، وموتهم هذا كموت شهداء الجهاد، وهم حين يموتون يبتسمون، فهم بلقاء ربهم فرحون. . .

آلاف الناس ماتوا على هذا الطريق، كتب الله لهم ذلك، فماتوا وهم يبتسمون؛ لأنهم مؤمنون بالله واليوم الآخر، ولكني أجد نفسي متعاطفاً مع هؤلاء فلم أتمالك نفسي عن البكاء من أجلهم.

بوابة مكة

حين أذكر بوابة مكة، لا يمكن أن أتمالك مشاعر الفرح والسرور بداخلي، وبالنسبة إلي أتذكر حين جئت إلى الحج في المرة الثانية، تأثرت كثيراً ببوابة مكة تلك، لا يمكن أن أصف أحاسيسي ومشاعري، نظراً لقلة باعي في القدرة على التعبير الأدبي، ولا يمكن أن أقارن بين المشاعر التي احتوتني طوال الحج، وتلك التي احتوتني عند بوابة مكة[1] وكما ذكرت يصعب علي أن أجد الكلمات التي أعبر بها عن إحساسي عند هذه البوابة، والآن أقترب أكثر فأكثر من هذه البوابة، في حين زادت سرعة السيارة، فظهر لنا كثير من التلال والمرتفعات.

قال السائق:

سوف نصل بسرعة.

واقتربت السيارة، ثم علت منطقة مرتفعة، أمكننا من فوقها أن نشاهد تلك العلامة التي تعلن عن مدينة مكة المكرمة، وأمكننا أن نشاهد المدينة المقدسة، فغمرنا الفرح وتعانقنا سوياً، كانت هذه هي المرة الثالثة بالنسبة إلي، في حين كانت المرة الأولى للسيد/ تشان ممثل مسلمي منشوريا، تذكرت المشكلات التي واجهتنا حتى

---

(١) لا بد من الإشارة هنا إلى تأثر المؤلف الشديد ببوابة مكة ومنظرها، بالإضافة إلى الدلالة المعنوية لديه، وقد يكون لنشأته أثر في ذلك، فالعقيدة الشنتوية تولي البوابات أهمية دينية خاصة، فكل بوابة يتبعها مكان عبادة هي بوابة مقدسة يطلق عليها "طوري Tori" والبوابة هي علامة المزار الرئيسة التي تميز وجوده، وهي علامة رمزية للوصول من العالم الدنيوي إلى عالم الكامي (الإله) ومن العلمانية إلى الروحانية، ونظراً لأهميتها منعوا الناس من بناء البوابات عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م واقتصرت على المزارات الخاصة بالدولة وبعض طوائف الشنتو، وهم يطلقون على الطريق من البوابة إلى حرم المزار اصطلاحاً اسم "ساندو Sando".

انظر الصفحات الأولى من عقيدة الشنتو في بحث الأديان في اليابان بقلم سمير عبد الحميد إبراهيم ضمن موسوعة الأديان التي تنشرها دار إشبيلية بالرياض.

وصولنا إلى هنا، والآن لا أتمالك نفسي، فانهمرت الدموع من عيني، وانخرطت في البكاء، وحين شاهدنا المدينة المقدسة تعانقنا، وبدأت أردد التلبية مع السيد/ تشان: "لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك".

وتمنيت أن نعبر البوابة دون تعقيدات أو مشكلات، فنقطة التفتيش هنا هي أكثر نقاط التفتيش جدية وصرامة، ووصلنا إلى البوابة، كانت هناك أربعة أعمدة، انفتحت البوابة على مصراعيها، واقترب جنديان، كل مع بندقيته، فتوقفت السيارة، وقدم الجنديان، يصوبان بندقيتيهما ناحيتنا، في البداية وجها أسئلتهما إلى السائق، ثم رغبا في الاطلاع على شهادة القاضي في جدة التي تفيد بأننا ندين بالإسلام، وكذا تصريح الدخول إلى مكة.

فحصوا كل الأوراق ثم اقتادونا إلى مكتب صغير للتفتيش، كان علينا أن نتلو أمامهم بعض آيات من القرآن الكريم، وأن نجيب عن بعض الأسئلة المتعلقة بالإسلام، وفي النهاية حصلنا على تصريح بالمرور من البوابة.

انهمرت الدموع من عيني، وبعيون مغرورقة بالدموع، تطلعت إلى بوابة مكة التي عبرناها، بدت لي البوابة من وراء دموعي، بوابة محترمة مقدسة قوية حصينة تحمي الأماكن المقدسة من مرور غير المسلمين، هذه البوابة العظيمة شهدت أحداث التاريخ عبر ألف وثلاثمئة وخمسين سنة مضت، شهدت المسلمين الذين مروا من هنا يحملون للعالم النور والهداية، وشهدت المسلمين الذين قدموا للحج بمشاعر عميقة، وبإخلاص، مثل هؤلاء الناس وغيرهم عبروا هذه البوابة، حتى جنود تركيا، وجنود ملك الحجاز السابق الشريف حسين، والرجل الشجاع ابن سعود الحاكم الحالي، مثل هؤلاء الناس عبروا هذه البوابة، ورغم أن هذه هي المرة الثالثة التي أعبر فيها هذه البوابة، إلا أن مشاعري لم تتغير، بل زادت على ما كانت عليه في المرات السابقة.

قدم لاستقبالنا صاحب المكان الذي سنقيم به في مكة، وكان يحمل معه ماء زمزم، وفور تسلمنا التصريح اندفع إلينا، فأعطانا ماء زمزم، ورحب بنا قائلاً:

أحسنتم، أحسنتم . .

وبدا سعيداً جداً من أجلنا، ولم يكن هو الوحيد الذي ظهرت على وجهه علامات السعادة، بل كان جميع من حولنا سعداء من أجلنا؛ لأننا مسلمون، والمسلم أخو المسلم، هكذا يرشد القرآن، وشعرنا بالسعادة وسط هؤلاء الإخوة، فكلنا مسلمون، وكان هذا هو أسعد وقت في حياتنا، لا توجد بيننا أسرار، التف حولنا العديد من الناس، وأخذوا يتصايحون:

يابانيون . . يابانيون.

كما لو كانوا لم يشاهدوا يابانيين من قبل، فأرادوا أن يصافحونا، وامتدت الأيدي بالسلام، أيادٍ بيضاء، وأيادٍ سمراء، لم تتوقف الأيدي الممتدة إلينا بالمصافحة.

كان هذا هو ما حدث حين جئت في المرة الأولى، وفي المرة الثانية، والآن أخوض التجربة نفسها للمرة الثالثة، كنت ألقى ترحيباً عظيماً خلال رحلتي الطويلة؛ لأنني ياباني، ولأن اليابان الآن أمة عظيمة، وإني لأشعر بالفخر لأني ولدت في اليابان، ولأني ياباني[1].

---

(١) مشاعر الوطنية اليابانية ظهرت لدى اليابانيين منذ فترة طويلة يصعب تحديدها، وهذه المشاعر هي التي شكلت الأمة اليابانية المتحدة داخل الجزر التي تعرف اليوم باليابان، وقد يعيب بعضهم إغراق اليابانيين في الوطنية، وانتبه المفكرون اليابانيون إلى هذا ودافعوا عن الإنسان الياباني بقولهم: فالإنسان (الياباني) الذي بدأ تكوينه الاجتماعي بالتربية الوطنية المحلية لم يعد بالرجل القومي، وإنما أصبح إنساناً بالمعنى المطلق لهذه الكلمة.
ويمكن أن نطبق هذا على مؤلفنا فهو رغم شعوره القومي الجارف، وحبه لوطنه، وتغنيه بكل شيء فيه، نشعر به يتعاطف مع بقية البشر، من جميع الأجناس حتى مع أعدائه.

قالوا إن عدد الحجاج هذا العام بلغ مئة وخمسين ألفاً ينتمون إلى أربع وعشرين جنسية[١] لكن ماذا عن الأوضاع في بلادهم، ربما تمر بلادهم بأوضاع صعبة وسيئة.

هل يعيشون يحدوهم الأمل؟!

هل لديهم ما يعتمدون عليه؟!

هل ينشدون مساعدة أحد؟!

هل يريدون أن يثقوا في شيء ما؟!

إنهم ضائعون، فبلادهم التي وثقوا بها، يحتلها الآخرون، والجنود الذين يحمون حدود بلادهم، لا ينتمون إلى بلادهم، إنهم يراقبونهم، ويفتشونهم؛ لأنهم جنود قدموا من خارج البلاد، وهؤلاء الناس مخدوعون دائماً، يعيشون حياة الفقر والحاجة، والشيء الذي يمتلكونه، ولا يمتلكون غيره، هو الإيمان بالله، والإيمان بالله يعني الحياة بالنسبة إليهم.

وهم يؤمنون بأن من الواجب طاعة الله، بل هذا فرض، ومكة المكرمة المكان المقدس هو مكان آمن لهم، ولهذا حين يدخلون مكة يشعرون بالسعادة الحقيقية، وهذا شيء طبيعي، لهذا لا يسمح لغير المسلمين بالدخول هنا، أما المسلم فهو هنا آمن، فالمسلمون إخوة بنص القرآن، وهم أحبة، يساعد بعضهم بعضاً، ويسعى المسلم إلى راحة أخيه المسلم، وهو راضٍ بهذا وسعيد.

---

(١) بلغ عدد الحجاج القادمين بالبحر حتى الرابع من ذي الحجة (٥٤٦٧٥) وقد ذكرت صحيفة أم القرى أن عدد حجاج جاوة (١٤٩٧٦) بالغاً و(١١١٣) من الصغار كما كان عدد الحجاج المصريين (٩٨٨٥) من البالغين و(١١٢) من الصغار، أما الهنود فكان عددهم (١٤٨٣٠) من البالغين و(٤٠٨) من الصغار، وكان عدد اليابانيين ٤ من البالغين وصفر من الصغار ومن الأحباش (٤٩٩) من البالغين واثنان من الصغار، ومن الصومال (٧٦٦) من الكبار وخمسة من الصغار، ووصل العدد الإجمالي إلى (٦٧٢٢٤).
انظر صحيفة أم القرى العدد ٦٨٩ الصادر في ١٨ ذي الحجة.

وأنا مسلم، ومع هذا أشعر بالفخر لأني ولدت في بلد الإمبراطور[١] وأشعر بالسعادة أيضاً، ويأتيني هذا الشعور، حين أُدرك أن من واجبنا إنقاذ أولئك الناس الذين يعيشون حياة بائسة بسبب الاحتلال، ويقشعر بدني حين أرى حالتهم هذه.

حين رحب بنا العديد من الناس، ركبنا السيارة مرة أخرى، ثم تذكرت فجأة الحقيبة الجلدية المملوءة بالنقود المعدنية، فوزعت النقود على الأطفال والعجزة، صدقة لهؤلاء الناس، ومن العجيب أن هؤلاء الناس الذين قدموا للحصول على الصدقة كانوا قد نسوا تماماً لماذا حضروا.. بعد أن انشغلوا بمصافحتنا!!

شكرونا كثيراً، وتبعوا سيارتنا لفترة طويلة، لم يتوقفوا أبداً إلا بعد أن جاء رجال الشرطة وأبعدوهم..

ثم بدأت السيارة تسرع في طريقها إلى الهدف المنشود.

---

(١) كان للإمبراطور الياباني في تلك الفترة - ولا يزال - مكانة في نفوس اليابانيين، تصل إلى درجة التقديس، فمن أحكام دستور ميجي لعام ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م أن "الإمبراطور هو رمز الدولة ووحدة الشعب" وتقول الأساطير اليابانية بأن الإمبراطور قدم من السماء!

الباب الثالث

الحرم المكي المقدس

الوصول إلى مكة

أفسح لنا الشرطي الطريق وسط الزحام، وانطلق معنا أحد الجنود من ناحية اليسار، في حين مضى صاحب الفندق (البيت) الذي سننزل فيه من ناحية اليمين، مضت السيارة في طريق ضيق ، كان الناس على جانبي الطريق يصفقون من أجلنا، كيف يمكن أن يعتقد هؤلاء أننا حجاج؟!

لا يوجد حجاج يركبون سيارة جديدة، ويحرسهم الجنود، ظن هؤلاء أننا من المسؤولين الكبار، ورغم هذا لا يمكن أن ترى عيناي أي منظر آخر غير مكة، وقد وصلت مشاعر الإثارة بداخلي إلى قمتها، كان الحجاج بملابس الإحرام البيضاء، يمضون على الطريق، وألسنتهم تلهج بالتلبية: "لبيك اللهم لبيك. . لبيك لا شريك لك لبيك. . "وكان الغبار يرتفع، والضوضاء تعلو وتعلو، في حين صاحب الفندق (البيت) يحاول أن يقول لي شيئاً، لكني لم أكن أسمع ما يقول، ومضينا على هذه الحال حتى وصلنا إلى الفندق بعد خمس عشرة دقيقة.

كان الحجاج الإندونيسيون الذين وصلوا قبلاً، يقفون أمام الفندق في انتظارنا، كانت هذه هي المرة الثانية التي أنزل فيها بهذا الفندق، ولهذا كنت أعرف جميع موظفي الفندق، كنا سعداء جداً باللقاء ثانية، لكن يجب علينا أن نتخلص من مشاعر السعادة، يجب أن نبدأ في أداء شعائر الحج، وهناك قاعدة تقضي بأن نغتسل حتى لو كان الوقت منتصف الليل[1]، فقد كان من الواجب أن نسرع بالذهاب إلى

---

(١) يستحب الاغتسال لدخول مكة ولا يجب، أما الطواف بالبيت فيكفي فيه الوضوء (المراجع).

الكعبة، ونشكر الله على توفيقه لنا، ووصولنا إلى الأراضي المقدسة في أمن وسلام، ورغم ما نعانيه من جوع وعطش، فلا يمكن أن نأكل شيئاً أو نشرب شيئاً حتى ننتهي من الدعاء لله وشكره.

كان يوماً حافلاً، فقد نزلنا من سفينة الحجاج، وأنهينا الفحص، واجتزنا الاختبار أمام القاضي، وانتهينا من الإعداد للسفر إلى مكة، وانطلقنا على طريق الحج، وعبرنا بوابة مكة، وهكذا أصابني الإرهاق الشديد، وتهالك جسمي، وصار مثل كومة قطن، لكن لا يجب أن نذكر هذه المتاعب أو حتى نفكر فيها، فالحج يعني تكرار المشاق.

إلى الكعبة

دون أن نأخذ أي قسط من الراحة، وفي صمت اتجهنا إلى مكان الغسل والوضوء، كان المكان مشيداً بالخرسانة ومساحته نحو ثلاثمئة وثلاثة أمتار مربعة؟!، وكان هناك مصباح معلق على الحائط، و"برميل" ضخم مملوء بالماء، وحين دخلت المكان شاهدت جماعات من الناموس، حاولت أن أشق طريقي وسط الناموس، وأخذت أهش عليه بيدي، ثم قرأت بعض آيات القرآن الكريم، واغتسلت[1].

وهكذا انتهيت بعد وصولنا بعشرين دقيقة من الاغتسال، وتغيير ملابس الإحرام، وتبعت المطوف الذي كان يعلمني الأدعية، ويقودني في طوافي، سلكنا طريقاً ضيقاً متعرجاً، كانت البيوت المقامة على جانبيه تكاد تتلاصق، وتضغط علينا، ومضينا حتى وصلنا إلى الكعبة المشرفة.

(١) هذا موجود في ذلك الوقت نتيجة قلة الإمكانات وحداثة الدولة أما الآن فلا يواجه المقيم في مكة شيئاً من هذا (المراجع).

سكنت في السنة الماضية في مكان يبعد كثيراً عن الكعبة، على مسافة ثلاثة أحياء، بالقرب من "منى" وحين جئت إلى الكعبة، لم أسلك هذا الطريق الضيق المتعرج، وقال صاحب المكان الذي سكنت فيه العام الماضي إنه أجره لمسؤولين في الحكومة، ولهذا رأيت أن أقيم في هذا الفندق (البيت) القريب من الحرم، فكانت هذه هي أول مرة أسلك فيها مثل هذا الطريق الضيق.

شعرت بالبرودة الشديدة تسري في قدمي، لكن هذه البرودة جعلتني أنسى المتاعب التي مرت بي. وكانت المباني مشيدة على الطراز العربي، وترتفع على جانبي هذا الطريق الضيق المظلم الذي أعتقد أنه موجود منذ ألف وثلاثمئة وثلاثين سنة، يقود المسلمين المؤمنين إلى طريق الكعبة، وهو طريق صخري أملس.

يمكنني الآن أن أتخيل كيف كان صعباً أن ينتشر الإسلام عبر التاريخ منذ عهد الرسول ﷺ، كنت أتخيل ذلك وأنا أمضي أتحسس بقدمي الطريق الصخري الأملس.

ساحة الحرم

بعد خمس دقائق تقريباً شاهدت ساحة الحرم من أمامي، هذا هو أهم مكان بالنسبة لثلاثمئة مليون مسلم ينتشرون في أرجاء المعمورة، وهذه الكعبة التي ترتفع وسط ساحة الحرم هي بيت الله العتيق، وهي أقدس مكان بالنسبة إلى جميع المسلمين، وساحة الحرم كما هي منذ أكثر من ألف سنة[1]، يبلغ طول الجزء المحيط

(١) جرت للحرم المكي توسعات ضاعفت كثيراً من مساحته؛ وذلك بعد العام الذي حج فيه المؤلف. فقد أمر الملك عبدالعزيز - رحمه الله - بتوسعته، وتمت التوسعة في عهد الملك سعود بن عبدالعزيز - رحمه الله - ثم بعد ذلك التوسعة للملك فهد بن عبدالعزيز - رحمه الله - وأصبحت مساحة المسجد الحرام حالياً (٣٦١,٠٠٠) متر مربع تستوعب (٧٣٠,٠٠٠) مصل وقد يصل إلى مليون مصل وقت المواسم ولازالت أعمال التوسعة مستمرة في عهد خادم الحرمين الشريفين الملك عبدالله بن عبدالعزيز آل سعود. انظر تطور عمارة المسجد الحرام وتوسعته د. محمد بن سالم، ص٨١ (المراجع).

بالحرم ستمئة "شاكو"[١] كما يبلغ عرضه أربعمئة وخمسة وستين "شاكو"[٢] وهناك ست مآذن موزعة على ساحة الحرم، ويبلغ ارتفاع الجزء المحيط بالحرم نحو عشرين "شاكو"[٣]، كما يوجد ستمئة عمود مصنوعة من المرمر أو الجرانيت، وتسع وثلاثون بوابة صغيرة على شكل قنطرة، وفي الناحية الشرقية توجد البوابة الرئيسة ويطلق عليها باب الأطهار![٤].

والكعبة مركز الحرم، وهي مبنية بأحجار الجرانيت السوداء، بارتفاع نحو ستين "شاكو"[٥]، وبطول خمسة وخمسين "شاكو"[٦] وبعرض خمسة وأربعين "شاكو"[٧] ويوجد للكعبة مدخل واحد فقط، وهو يواجه الجدار الشرقي ناحية الجنوب قليلاً، ويعلو عن العرض بارتفاع سبعة شاكو[٨]، وباب الكعبة مصنوع من الفضة المنقوشة، وفي داخل الكعبة، على الحائط، شاهدت قطعة من القماش مكتوب عليها بخيوط ذهبية آيات من القرآن الكريم، وهناك أعمدة أيضاً، أما من الخارج فالكعبة مغطاة، بقماش قطني أسود خاص، يقال له "كسوة الكعبة" ومكتوب عليه بخيوط مذهبة آيات من القرآن الكريم ، ويقال إنهم أنفقوا سبعة آلاف ومئتين من الجنيهات من أجل هذه الكسوة، وهذا يعني مئة وثلاثين ألف (ين

---

(١) الشاكو يساوي ٣٠ سنتيمتراً وهكذا فإن ٦٠٠ شاكو تساوي ١٨٠ متراً.

(٢) أي ١٣٩ متراً ونصف المتر.

(٣) أي ستة أمتار.

(٤) قال المؤلف: باب الأطهار انظر صفة أبواب المسجد الحرام وعددها في أخبار مكة وما جاء فيها من آثار لأبي الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد الأزرقي، تحقيق رشدي الصالح ملحس المجلد الثاني ص٨٧ مطابع دار الثقافة بمكة المكرمة.
وانظر أيضاً تطور عمارة المسجد الحرام وتوسعته حتى عهد الملك فهد بن عبد العزيز آل سعود للدكتور محمد بن سالم العوفي ص٨٩ طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

(٥) أي ثمانية عشر متراً.

(٦) أي ستة عشر متراً ونصف المتر

(٧) أي ثلاثة عشر متراً ونصف المتر.

(٨) متران وعشرة سنتيمترات.

ياباني)، وهو مبلغ كبير جداً، وتصنع هذه الكسوة مرة كل سنة، ويتم تغييرها في العاشر من ذي الحجة[١] ورغم أن الكسوة تغطي الكعبة من الخارج إلا أنها لا تخرب؛ لأن الأمطار قلّ أن تسقط، كما أن لجفاف الجو أثره في ذلك أيضاً.

الحجر الأسود

لا يمكن أن نتجاهل الحديث عن الحجر الأسود، فهو يأتي بعد الكعبة من حيث الأهمية، وهو موضوع في جانب الركن الجنوبي الشرقي للكعبة على ارتفاع قد الإنسان، وهو بيضاوي الشكل.

صورة بائع البطيخ في مكة

(١) ذكر المؤلف تغيير كسوة الكعبة في العاشر من ذي الحجة من كل عام، وكانت جريدة أم القرى قد ذكرت في عددها الصادر في ١١ ذي الحجة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م خبر تسليم كسوة الكعبة المعظمة يوم السبت الماضي من مندوبي الحكومة المصرية، وتسلمها من مندوبي حكومة جلالة الملك الشيخ محمد صالح نصيف نائب مدير الأوقاف العام، كما أوردت الجريدة خبر غسيل الكعبة أيضاً، وحالياً كسوة الكعبة تصنع سنوياً في مكة المكرمة في مصنع خاص بها بأيدٍ سعودية.

وهناك أساطير وخرافات تقول بأن الله اتفق مع أولاد آدم، فوضع الكتاب السماوي في هذا الحجر، ويوم القيامة سيظهر هذا الكتاب للمؤمنين بالله، وهكذا يحاول المسلمون لمس الحجر الأسود وتقبيله، للحصول على مغفرة الله؛ لأنه مملوء بالبركة [١].

ويتعارك الحجاج على تقبيل الحجر الأسود أو لمسه على الأقل، في حين يحاول الحراس منع هؤلاء من العراك، ولا يتورعون عن استخدام "القوة"، ويفشلون في ذلك أحياناً.

وقد رصفت المساحة المحيطة بالكعبة بالمرمر، وفي نهايتها تتفرع طرق رصفت بأحجار سوداء صغيرة، مع رمال ناعمة، وفي نهاية هذه الطرق، مسارات أخرى صخرية ملساء.

توجد بئر زمزم بجوار الكعبة، وهي البئر التي اكتشفتها هاجر أم إسماعيل [٢].

حين وصلنا الحرم كان الليل قد انتصف، وكان الحرم مُضاءً بنحو خمسمئة أو ستمئة مصباح كهربائي، وكانت حشود الناس مسرورة جداً، وهم يطوفون حول الكعبة، وكان الناس الذين وصلوا، يدعون الله ويطوفون، وقد سيطرت عليهم مشاعر جعلتهم يتحركون دون وعي، بعضهم كان يمضي بسرعة، والآخر ببطء،

---

(١) ما ذكره المؤلف نوافقه أنه أسطورة لا أساس لها ومع ذلك فإن تقبيل الحجر الأسود أو استلامه باليد ليس مستنداً إلى هذه الأسطورة أو الخرافة، ولكنه يستند إلى أمر الرسول ﷺ وفعله وقد قال [خذو عني مناسككم] (المراجع).

(٢) يقول المؤلف: البئر التي اكتشفتها هاجر، وملخص ما ورد في البخاري أن هاجر وابنها إسماعيل بعد أن تركهما إبراهيم بواد غير ذي ماء وزرع، ودعا لهما، هبط ملك من السماء وفحص الأرض بعقبه أو جناحه حتى ظهر الماء، فأخذت هاجر تخوّضه إذ كان يفور كلما غرفت منه. وتقع بئر زمزم إلى الجنوبي الشرقي من الكعبة قبالة الحجر الأسود، وزمزم في اللغة تعني الماء الغزير، ولم يرد اسم زمزم في القرآن نصاً أو إشارة؛ ولهذا يعتمد في شأن ذلك على روايات الإخباريين.

لكن سعادتهم كانت واحدة، وقمنا بالطواف خلف المطوف، واحمرت وجنتانا، وصرنا نتحرك مثل بقية الناس ندعو الله ونمضي فاقدي الوعي أيضاً[١].

السعي بين الصفا والمروة

انتهينا من الطواف حول الكعبة ثم خرجنا من باب الصفا، وعلينا الآن أن ننتهي من السعي بين الصفا والمروة، وسوف نمشي، ونهرول أحياناً، من جبل الصفا إلى جبل المروة (نحو سبعمئة شاكو) سبع مرات[٢] ونحن نرتل بعض آيات القرآن الكريم.

كان الزحام عند الصفا والمروة شبيها بزحام الطواف حول الكعبة، وكنت أشعر بالغبار المنبعث من الرمال، والغبار مع الزحام يجعل السعي بالنسبة إلي أمراً صعباً، وكان المسعى مملوءاً بالحجاج من مختلف أنحاء العالم.

كانت مجموعات البدو تهرول، في حين شعورهم بدت منكوشة، وكان هناك أناس أصابهم التعب الشديد، فأخذوا يتحركون بصعوبة، في حين هناك عجوز محمولة داخل شيء أشبه بالقفص، وهناك رجل غطاه العرق الغزير المتساقط من أعلاه إلى أسفله، وزوجة تتساند على كتف زوجها، وشاب يحمل أمه العجوز، التي بدت على حافة الموت..

هذه هي قوة الإيمان..

هذا هو سر الإيمان..

من ذا الذي يستطيع أن يجد تفسيراً لكل ما يشاهد هنا؟!

---

(١) يقصد في حالة من الشعور الديني القوي أفقده الشعور بمن حوله، ولعله يعني الخشوع في الطواف.

(٢) قدّر المسافة بسبعمئة شاكو أي ٢٠١٠ متراً.

فالجميع داخله نوع ما من الإيمان، عيونهم حمراء كما لو كانوا قد فقدوا وعيهم، فهم لا يفكرون في أي شيء سوى الله، والله وحده، الواحد الأحد، وبدأ زحام الحجيج يزداد رويداً رويداً، وبدأت مشاعرهم تلتهب أكثر فأكثر، وارتفعت أصوات الدعاء، وارتفع صوت تلاوة القرآن أكثر فأكثر، وكأنهم يريدون لأصواتهم أن تصل إلى السماوات!

انتهينا من السعي، وشعرت كأن ركبتي انكسرتا، وحلقي يحترق، كنت أتماسك، وأحاول أن أقف على قدمي بصعوبة شديدة.

الحلق والتقصير

بعد الانتهاء من السعي بين الصفا والمروة، شعرنا بتعب وإرهاق شديدين، لا ندري كيف سنتمكن من استكمال بقية الشعائر، كان هناك عدد كبير من الحلاقين على جانبي الطريق، كانوا يتلون آيات الذكر الحكيم، ويقصرون أو يحلقون رؤوس الحجاج، ذهبنا إليهم وقصرنا، وانتهينا من واجبات يومنا.

لا يمكن أن أشرح لماذا قصرنا شعرنا، ليس لدي سبب مؤكد أشرح به ذلك، إذا تخيلت ما فعلته هنا، وما شاهدته، ربما يبدو للآخرين شيئاً مضحكاً، لكن المسلمين حين يفعلون هذا لا يعتقدون ذلك، ويأتي الناس في صفوف لا تنتهي يقصر بعضهم شعر رأسه من الجانب الأيمن، في حين يقصر الآخر من الجانب الأيسر، وبعضهم يترك أعلى الرأس فقط، ويقص البقية، وآخرون يقصرون شعر الرأس كله، وقد يظن بعضهم أننا في "عرض لمهرجي السيرك" لكن العجيب أن كل من كان يقصر شعره، كان ينخرط في البكاء، بكاء حقيقي، فالمسلم يؤدي شعائر الحج طبقاً لما أمر به الله ورسوله، ويؤدي ذلك بكل إخلاص[1] وقد سمعت أن تقصير الشعر بطريقة معينة

(١) يريد القول بأننا كنا نتبع سنة رسول الله ﷺ دون جدل أو نقاش.

يعني أن هذا الشخص ينتمي إلى جماعة معينة، أو أن هذه الجماعة تنتمي إلى طائفة معينة من المسلمين، ويعني أيضاً أنك ستعرف إلى أي جماعة ينتمي هذا الرجل[١].

كنا نلهث من شدة العطش، وقفنا أمام محل صغير يبيع الماء الملون الممزوج بالسكر: ماء بلون أبيض، وآخر بلون أزرق، وثالث بلون أحمر، ورابع بلون أصفر، وقد وُضع الماء المذاب في السكر في أواني زجاجية ضخمة، والعجيب أن الذباب كان يملأ هذه الأواني، وكان بعضه يطفو فوق سطح الماء، ولم يكن هذا وقت التعبير عن "القرف" أو "الاشمئزاز" لأننا كنا في غاية العطش، ولم يكن يهمنا وجود ذباب أو غبار في هذا الماء الملون الممزوج بالسكر، أخذنا كوباً مملوءاً بالماء الملون وداخله أربع أو خمس ذبابات، أخرجت الذباب، وشربت الكوب في جرعة واحدة.

أما عن الآخرين فكانوا يشربون الماء الملون هذا بذبابه، ولا يهتمون أبداً بالذباب الموجود داخله، أما نحن فأخرجنا الذباب الميت، ثم شربنا، وتعود الناس من أهل البلاد هنا على شرب الكوب بما فيه، ثم يبصقون بعد ذلك الذباب، وتعجبنا، وأثنينا على هذه المقدرة الرائعة[٢].

وأتخيل الآن ما حدث، وأفكر كيف أمكنني شرب ذلك الكوب، لكن في ذلك الوقت كان الكوب الذي شربته يساوي بالنسبة إلينا ألف جنيه، وعلى كل حال، انتهينا من أداء شعائر أول يوم من أيام الحج، وعدنا إلى مقر إقامتنا.

---

(١) المشروع هنا هو حلق جميع الرأس أو تقصيره، وما ذكره المؤلف أنه رآه من بعض الحجاج يخالف ذلك فلا مستند شرعي له (المراجع).

(٢) المؤلف - رحمه الله - يتحدث عن فترة زمنية مضت قد يوجد فيها مثل هذا، لكن الواقع الحالي لا تشاهد فيه هذه المناظر إطلاقاً (المراجع).

الليلة الأولى في مكة

تبدو مكة في الليل وكأننا في النهار، كل شيء مستيقظ، لا ينام، فليل مكة هذه الأيام نهار، ويبدو أن هذه حال المدينة قبل بداية الحج بخمسة أشهر، فالطرق في مكة تعج بالحجاج طوال الليل، فالجميع يحاول أن يتجنب حرارة النهار الشديدة، وهكذا يكون الليل أشد زحاماً، وأكثر نشاطاً من النهار، حتى الفقراء الذين يحتاجون إلى الصدقات، يخرجون من بيوتهم ليلاً، فهم ينتظرون موسم الحج، مرة في السنة، وهو بالنسبة إليهم مهم جداً، وبالنسبة إلى غيرهم من الرعاة والجمّالين الذين يأتون من البادية بقطعان الغنم والماعز وبجمالهم، وتجعل كل هذا العناصر مجتمعة من موسم الحج، موسماً مملوءاً بالبهجة والمتعة، وهو مهرجان يغمر الجميع بمشاعر السرور والفرح.

تزيد الحركة كلما دخل الليل، وطبقاً لحساباتهم هنا، فالغروب يعني منتصف الليل، ولهذا فهم يستخدمون التقويم القمري، والساعة العربية، ولهذا الأمر -بلا شك - مغزاه، وتظل هذه المنطقة من جزيرة العرب، التي تتوسطها مكة المكرمة، في حركة ونشاط دائمين لستة أشهر، في حين تبدو خالية، وشبه مهجورة، وكأنها تغط في نوم عميق، لستة أشهر أخرى، ويذكرني هذا بأولئك الناس الذين يعيشون في المنطقة القطبية[1]، الذين ينامون لنصف العام، لكن ما يحدث هنا هو العكس فحركة الناس هنا تتوقف في أكثر الأوقات حرارة في السنة.

كان الحجاج يمشون متشابكي الأيدي، خوفاً من أن يفقدوا أحدهم وسط الزحام، ويزيد هذا بالطبع من شدة الزحام وصعوبة المرور في الطرقات.

---

(١) يبدو أن المؤلف - رحمه الله - لم يشاهد مكة في الأيام العادية، فمكة رغم انقضاء موسم الحج، فالعمار والزوار يتوافدون إليها من كل مكان طوال العام بأعداد كبيرة (المراجع).

انتهينا من أصعب مرحلة خلال ثلاث ساعات من وصولنا إلى مكة، وفي حين كنا نمضي في طريق عودتنا إلى مقر إقامتنا، كنا نسمع أصواتاً مختلفة متنوعة تصدر من الحجاج، وكلمات، وعبارات، ونداءات، ودعوات إلى الله، مع أصوات التكبير والتلبية.

عند وصولنا إلى الفندق، اندفع الموظفون ناحيتنا، وأخذ صاحب الفندق وأولاده يباركون لنا، وجاء الموظفون يريدون مصافحتنا، وأخذوا يعانقوننا بسرور وفرح، وتأثرت كثيراً بهذا الموقف، وهذا الترحيب الحار، رغم أن هذه هي المرة الثالثة التي آتي فيها للحج، وامتلأ قلبي بمشاعر الشكر والامتنان لله عز وجل، فقد أنهيت واجبات اليوم الأول للحج بدون متاعب أو مصاعب، ولكن هذه هي البداية، فابتداء من الغد، سنواجه المشقة الحقيقية، ومع أن متاعبنا زادت، وزادت، إلا أن المتاعب التي سنواجهها أشق علينا مما مضى، وكنت قلقاً دائماً، على صحة السيد/ تشان، إلا أن بناءه الجسماني المتين، ومعنوياته العالية، ستمكنه من تحمل مشقات شهر كامل، وكانت حالته الصحية الجيدة، تجعلني بدوري قادراً على تحمل جميع أشكال التعب والمشقة.

وأود أن أذكر لأولئك الذين لا يعرفون شيئاً عن الأماكن الحارة الجافة أنه لا يوجد هناك أصعب من الحياة هنا في الجزيرة العربية.

أمكنني اليوم - لأول مرة - أن أسترخي على الطريقة اليابانية، وأمد جسدي في راحة وهدوء.

كان صاحب الفندق قد جاء لرؤيتنا مع أولاده وأقاربه، فجلسوا معنا، ودار الحديث عما جرى في العام الماضي، والحرب اليابانية الصينية، كنت مرهقاً جداً، فكنت أتحدث معهم، وأستمع إليهم، كما لو كنت في حلم.

قال صاحب الفندق:

في السنة الماضية وعدتني بالمجيء ثانية، ولهذا كنت متأكداً من مجيئك هذا العام، ثم نشبت الحرب بين اليابان والصين، وهي الحرب التي لا تزال تدور رحاها، فاعتقدت أنك لن تأتي هنا ثانية، لكني قرأت مقالاً كتب بالإنجليزية، عرفت منه أنك غادرت فعلاً، وهكذا كنت أتطلع إلى رؤيتك.

ربما سمع من أحد الأشخاص، إنه لا يستطيع أن يقرأ الإنجليزية، وقال ابنه:

كنا قلقين، وكنا نريد أن نعرف موعد وصولك، فأخذنا نتصل بجدة هاتفياً كل يوم، إنه يشرفنا أن نستقبل في فندقنا الضيوف اليابانيين.

نطق العبارة الأخيرة بسرور كبير.

تعجبت! كم كوباً من الشاي شربت في ذلك الوقت؟! قدموا لنا الطعام، وكنت ممنوناً جداً لكرمهم، وخدمتهم الطيبة لنا، ورغم ذلك لم أستطع أن ألمس الطعام، فقد كنت مرهقاً للغاية، ولم تكن لدي القدرة حتى على مد يدي لتناول الطعام، والشمس ستشرق حالاً، وكل ما كنت أتمناه الآن هو قسط من النوم يعيد إلي توازني.

كانت غرفتنا في الطابق الأرضي المنخفض من الفندق، كانت أفضل غرفة في الفندق، واسعة جداً نحو ٣٠ تتامي[1] مثل ساحة كبيرة، وكان بها "ناموسيتان" معلقتان فوق فراش شبيه بالفراش الياباني، حتى الوسائد كانت شبيهة بتلك التي نستخدمها في اليابان.

---

(١) مساحة التتامي قديماً تساوي ١٩٠ متراً × ٨٠ متراً والمساحة الحالية للتتامي أقل من ذلك، وتكون المساحة التي يقصدها المؤلف هنا نحو خمسة وأربعين متراً وستة من عشرة من المتر.

رقدنا على الفراش، وغطينا أنفسنا بالأغطية التي حملناها معنا من اليابان، هدوء شديد، وصمت مطبق، لم أكن أسمع في هذا الصمت سوى صرير الجراد أو حترشة بعض الحشرات، وفي حين أنا على هذه الحال غرق السيد/ تشان في النوم، وشعرت بأن الأمن والسلام يحيطان بي من كل جانب، فغرقت بدوري في نوم عميق.

نهار في مكة

استيقظنا بعيد الساعة الرابعة صباحاً، فقد سمعنا صوت الأذان القادم من الحرم، فنهضنا من النوم حتى نتوضأ استعداداً للذهاب إلى الصلاة.

كان علينا أن ننهض بسرعة رغم أننا نمنا منذ لحظات قليلة!! لكن هذه الغفوة جعلتنا نتخلص مما كنا نعاني من إرهاق وتعب.. وعلى ضوء مصباح خافت، وكما سبق وفعلت، تخلصت من الناموس الذي يعترض طريقي... توضأنا، وشعرنا ببرودة تسري في أجسامنا، فقد كان الجو مبكراً جداً.

اتخذنا طريقنا إلى الحرم في حين كانت أيدينا ووجوهنا وأرجلنا لا تزال مبتلة بماء الوضوء، حين وصلنا الحرم، وجدناه يعج بالحجيج، وبصعوبة وجدنا فرجة ضيقة، فجلسنا في انتظار إقامة الصلاة.. كان هناك نحو مئة ألف مسلم يصطفون حول الكعبة في نظام دقيق، يخيم عليهم الصمت الذي يجعل من الجو المحيط بنا هنا، جواً قدسياً، مملوءاً بالرهبة والخشوع، وأجد نفسي هنا عاجزاً عن التعبير عن هذا الشعور القدسي، وما اعتراني من خشوع ورهبة، فالكلمات لا يمكنها - إن وجدت - أن تعبر عما أراه أمامي، وما أشعر به داخل فؤادي.

لقد صلى النبي محمد ﷺ هنا في هذا المكان المقدس، وبعد ألف وثلاثمئة وخمسين سنة، نفعل الشيء نفسه، وفي المكان نفسه، والطريقة نفسها، هذا التفكير يحرك مشاعري ويهز كياني، ويثير أحاسيسي.

كان نور الصباح لا يزال مختبئاً في السماء، لم يظهر بعد، في حين كانت النجوم تبرق، وتلمع، والهواء البارد الذي لف الإحرام، كان يتسلل إلى أجسامنا.. صلينا على سجادة، لم نكن نفكر فيمن حولنا، كنا نركز في الصلاة فقط، فقد كنا نريد أن نخشع لله، وأن تصل صلواتنا ودعواتنا إليه في السماء، إلى الله رب العالمين، ولا يمكنني أن أعبر للقارئ الياباني عن الله، كل ما يمكنني قوله هو أنني أشعر الآن براحة لا يمكن تفسيرها وأنا خاشع في صلاتي.

لم أجرب مثل هذا الشعور في حياتي من قبل، في حين كنت في الحرم أدعو الله، ووسط هذا الجو القدسي الروحاني، كنت أشعر بأن ذراعين كبيرتين تحيطان بي، تعانقاني، تضفيان على كياني شعوراً بالأمان والطمأنينة، فتمكنت من التخلص من كل ما ينتابني من قلق وخوف، وشعرت من أعماق قلبي بالراحة والأمان، وصفا ذهني، وامتلأت عيناي بنور الإيمان.

لقد جربت الصلاة على ظهر السفينة في المحيط الهادي، وجربت الصلاة أحياناً في مساجد بعض جزر المحيط الهادي، وأحياناً على قمم الجبال، ولكني لم أشعر أبداً بمثل ما أشعر به الآن، وما انتابتني مثل هذه المشاعر إلا هنا فقط..

ربما كان للمشقة التي عانيناها حتى وصلنا إلى هنا دخل في هذا، وربما كانت الكعبة المشرفة سبباً في هذا، وربما هذا المكان، الحرم المقدس الذي شهد صلوات المسلمين منذ آلاف السنين! وربما لأننا نصلي ونحن محرمون، ربما ملابس الإحرام تلك التي نلفها حولنا، والتي لبسهاأجدادنا من المسلمين الأوائل منذ ألف وثلاثمئة وخمسين سنة!

لا . . . لا هذا ولا ذاك، ليس ما ذكرت كان سبباً في هذا الشعور الغامض الذي احتواني، أظن أن السبب عند عالم الغيب والشهادة . . فنحن هنا في الأماكن المقدسة، والقوة الإلهية، والقدرة الربانية هي التي جذبتني وخلصتني من العالم المادي إلى العالم الروحاني . .

إنني أتأسف للقارئ لقصوري في التعبير عن هذه الحالة، لا يمكن أن أجد الكلمات المناسبة . . .

أقيمت الصلاة . . صلاة الفجر . . مئة ألف مسلم ينهضون مرة واحدة، حين أعلن المؤذن: " . . . قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة " وبدأ الإمام يكبر وكبرنا من ورائه جميعاً في صوت واحد، تكبيرة رجل واحد، وبدأ الإمام التلاوة بصوت عالٍ وواضح جداً، وانخرط بعض الناس في البكاء، بسبب هذه اللحظات المثيرة، صلينا ركعتي الفجر خلف الإمام، وكانت صفوف المصلين منظمة تماماً من غير منظم، ينظم لهم الصفوف.

بعد الصلاة جلس بعض الناس صامتين يفكرون، في حين فتح بعض الناس المصاحف، وأخذوا يقرؤون القرآن الكريم، لا يمكن لأحد أن يتصور الهدوء على وجوه هؤلاء الناس، والسكينة في قلوبهم، في حين حمل بعضهم ماء زمزم، ومضوا بين الناس، يمسكون بأكواب مطلية بالخزف، يصدرون بها أصواتاً تعلن للعطشان عن وجود ماء زمزم بحوزتهم.

حين رجعنا إلى الفندق، كانت غرفتنا قد أعيد ترتيبها من جديد، وتم تنظيفها، وقدم إلينا صبي في الثانية عشرة من عمره، يحمل إلينا الشاي وحليب الماعز.

يبدو أن صاحب الفندق العجوز ترك العمل، وأسند مهمة الطوافة الآن إلى ولده، استقبلنا العجوز بابتسامة، في حين كنت أنظر إلى الغرفة التي صممت على الطراز العربي.

يتضح من طريقة البناء التأثر بفن العمارة لدى سلاطين الأتراك، وكان هذا الفن المعماري قد انتشر في البلدان الإسلامية، وقد شاهدت هذا الطراز المعماري في مصر أيضاً، بنيت مساطب بارتفاع مقعدة الإنسان، في جوانب الغرفة الأربعة، وصفت عليها وسائد للجلوس (بطول ٥٠سم) ووسائد أخرى للظهر، وكانت مغطاة بقماش جميل، تنوعت ألوانه الفاقعة ما بين الأحمر والأصفر، وكانت أطراف هذه الوسائد مزركشة "بالدانتيل" الملونة، كانت الغرفة مملوءة بالألوان الجميلة، وكانت مفروشة أيضاً بسجادة حمراء، أجلس فوقها الآن مرتدياً ملابس الإحرام، وأشعر كأنني بطل من أبطال حكايات "ألف ليلة وليلة".

يحب أهل آسيا تناول الشاي، وبدون الشاي لا يمكننا أن نقضي يومنا بسهولة، لكن منذ أن غادرنا اليابان، لم أتناول الشاي الياباني اللذيذ، ولو حتى مرة واحدة، في حين أشرب هنا كل يوم الشاي الأحمر، وأهل الشرق الأوسط يشربون هذا الشاي كما نشرب نحن الآسيويين الشاي الأخضر، وقد قال "لورانس" ذات مرة:

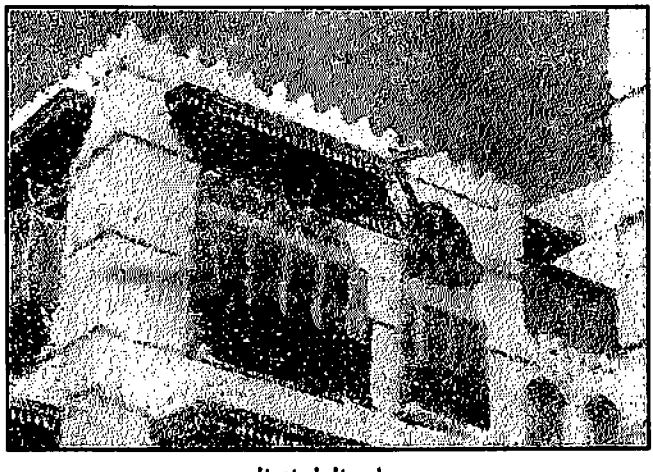

مبنى على الطراز العربي

" لا يمكن أن تستمر المناقشات مع الآسيويين، حتى أثناء الحديث في الأمور السياسية والأمور الخارجية بدون تناول الشاي، وإذا رفضت الشاي الذي يقدمونه لك، فهذا يعني أن المحادثات انتهت، وأنها لم تنجح " .

وهذا القول صحيح، فقد كان "لورانس" يراقب كل شيء بطريقة جيدة وملاحظاته دقيقة .

منذ الصباح يقدمون لنا أكواب الشاي، وتليها أكواب أخرى، ويستمر هذا حتى نرفض، وإذا لم نرفض بصراحة، فسيستمرون في إحضار الشاي لنا، وإذا ما رفضنا بعد ثلاثة أكواب، عبروا بشكل أو بآخر عن عدم سعادتهم .

كان الماء يغلي في هدوء، وبصوت غير مسموع، داخل إناء مخصص لذلك، وفجأة تذكرت حجرة التتامي (الحصير) اليابانية[١] المخصصة لحفلات تناول الشاي[٢] .

---

(١) التتامي نوع من الحصير، يستخدم لفرش الغرف اليابانية التقليدية .

(٢) حفلات الشاي اليابانية لها تقاليدها ومراسمها الخاصة، فالغرفة التي يقام فيها الحفل لها موقع خاص في حديقة معينة، ولها غرفة مجاورة يجلس فيها الضيوف، ثم ينتقلون إلى الغرفة الرئيسة، التي يوجد فيها ركن مقدس مثل القبلة عند المسلمين فيتوجه إليه الشخص أولاً وينحني، ثم يتجه إلى الإناء الذي يغلي فيه الماء وينحني، ثم يتجه إلى مكان الجلوس فيجلس على وسادة خاصة في وضع خاص، ومعه محفظة بها مروحة ورقية مع شوكة صغيرة لتناول الحلوى التي تقدم مع الشاي، مع أوراق بيضاء ومحفظة أخرى من القماش .

بعد دخول الضيوف يسود صمت رهيب، ويغلق باب الغرفة، وتأتي المضيفة بقطع الحلوى فتضعها أمام الضيف الرئيس وتنحني وتخرج، ويقوم الضيف بحمل ما وضعته، ووضعه على يساره، ثم تدخل المضيفة وتنحني، وتحمل إناء الماء وتضعه بجوار الفحم، ثم تخرج وتعود لتحضر أواني الشاي المصنوعة من الخشب، وتعد الشاي الأخضر بطريقة خاصة، ويتم تناول الشاي بطريقة خاصة طبقاً لطقوس معترف بها .

وتتعلم المضيفات طقوس حفلات الشاي من أستاذ أو أستاذة، لأسابيع طويلة تمتد إلى سنوات، تنال بعدها شهادة خاصة بعد دفع الرسوم المقررة، وتوجد في اليابان منذ القديم ثلاث جماعات خاصة بمراسم الشاي، مركزها مدينة كيوتو، كانت في الأصل جماعة واحدة، وحدث هذا الانفصال منذ مئتي عام تقريباً، وانقسمت الجماعات الآن إلى نحو عشرين مجموعة لكل منها طرقها الخاصة وطقوسها المتميزة .

ويمكن الحصول على شهادة الدراسة لمدة سنة بثلاثين ألف (ين) أي نحو ٢٥٠ دولاراً، ولمدة ثلاث سنوات بمئتي ألف (ين) وهكذا تزيد الرسوم مع زيادة عدد سنوات الدراسة .

يبدو أنني افتقدت اليابان كثيراً، حتى إنني بدأت أشعر بالحنين كثيراً إلى البيت الياباني التقليدي، دون سبب يذكر، وخصوصاً رائحة التتامي (الحصير) رغم أنه حتى في اليابان فإن رائحة التتامي الجديد نشمها مرة واحدة في السنة[١] لا أدري لماذا أحسست بهذه الرائحة الآن داخل أنفي؟! وأيضاً منظر ضوء الشمس الخافت القادم من خلال الأبواب اليابانية التقليدية المصنوعة من الورق، بالإضافة إلى الأبخرة المنبعثة من الشاي الأخضر الطازج جداً[٢].

أخذت هذه المناظر، والروائح تتسلل إلى ذهني، وتدور في ذهني الآن مثل المصباح الياباني الدوار بفعل الرياح[٣].

كنت أتوهم! في حين حملت الكوب إلى فمي، لكني أفقت من وهمي فلم أشم رائحة الشاي الياباني الأخضر.. وعدت إلى عالم الواقع من جديد، فشربت الشاي الأحمر الممزوج بالسكر.

مع شروق الشمس أصبحت المدينة كالذهب، اشتدت الحرارة كثيراً، وكانت جميع غرف الفندق مغلقة، حتى لا يدخلها الهواء الساخن، وهذا يجعل الغرف مظلمة إلى حد ما، ومع هذا فالعرق يغطيني من شدة الحرارة، وكلما اشتدت حرارة الجو فقدت المدينة طاقتها.. هذا ما بدا لنا. سمعت نهيق حمار من بعيد، صوته أجش!

---

(١) كان اليابانيون في تلك الفترة يغيرون "التتامي" حصير الغرف مرة كل سنة، فيأتون بحصير جديد في موعد معين، فيكون له رائحة مميزة مع رطوبة الجو، والمؤلف الآن يشم هذه الرائحة التي تجعله يشعر بالحنين إلى موطنه.

(٢) يتم قطف الشاي مرة واحدة في السنة، ويكون ذلك في شهر مايو على التقريب. وللشاي الطازج نكهة طيبة، ويقدم كهدية ثمينة.

(٣) مصباح محمول على عمود بشكل يسمح له بالدوران مع هبوب الرياح الخفيفة، فيكون ذلك سبباً في حدوث أشكال ملونة مختلفة ومتداخلة، تدخل السرور إلى نفوس الناظرين، وتتداخل ألوان المصباح كما تتداخل ألوان "المروحة الورقية" الملونة التي يلعب بها الأطفال في البلاد العربية.

قال عبد الله نجل صاحب الفندق:

لدينا هذا العام أكثر من مئة ألف حاج، هذا ما سمعته.

حين يكون عبد الله برفقة أبيه، لا ينطق بكلمة، ويظل دائماً يسمع، وهذه هي التقاليد العربية، أو ربما هي تعاليم الدين، فالإسلام حدد للإنسان كل شيء في الحياة، وكذلك تفاصيل الحياة اليومية، فإذا كان الوالد العجوز في الغرفة يجب أن يظل الابن صامتاً وهادئاً احتراماً لأبيه، ولا يجب أن يتحدث أمام أبيه إلا إذا طلب منه ذلك، وهذا يعني من وجهة النظر الإسلامية أنهم تعلموا أن يحترم الصغير من هو أكبر منه ويوقره، أما مقاطعة حديث الكبار، فهذا ممنوع تماماً، وهم هنا يحافظون على هذه التقاليد بدقة.

سألته:

عندكم حجاج كثيرون من اليمن هذا العام؟!

لقد تذكرت أن حج العام الماضي شهد محاولة اعتداء على الملك ابن سعود، وكان المجرم من اليمن.

فقال عبد الله:

طبقاً للتعاليم الإسلامية ليس من حقنا أن نمنع أي مسلم من أداء فريضة الحج، حتى الملك ابن سعود ليس له هذا الحق أيضاً؛ لأنه ملتزم تماماً بتطبيق الشريعة الإسلامية.

فقلت:

لكن هذه واقعة خطيرة، ولو حدث - لا قدر الله - ومات ابن سعود، فإن الوضع في جزيرة العرب يصبح على غير ما هو عليه الآن، ولتغير وجه التاريخ في جزيرة العرب.

قال عبد الله :

بعد عودتكم شاع بين الناس أن ما حدث كان بتدبير من الحكومة البريطانية ، وأن الحكومة البريطانية طلبت من الجناة ذلك ، لكن الحكومة السعودية قضت على مثل هذه الشائعات .

قلت له :

هل سمعت ما قاله " فيلبي " . . . ؟ (١)

---

(١) اختلفت الآراء في فيلبي ، وقد التقى به المفكر الإسلامي المودودي ونظراً لأهمية اللقاء نذكر هنا ما جاء في كتاب رحلة إلى أرض القرآن :

" في مأدبة دعانا إليها الأمير عبد الله بن عبد الرحمن ، حضر مستر سينت جون فلبي (الحاج عبد الله فيلبي) وهو مستشرق إنجليزي معروف كان يتقلد وظيفة نائب عام الحاكم في مدينة جهلم بالبنجاب قبل الحرب العالمية الأولى ، ثم ذهب إلى العراق سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م في مهمة حربية ، له اهتمامات بجغرافية الجزيرة العربية ، قدم إلى نجد سنة ١٣٣٨هـ/ ١٩٢٠م واعتنق الإسلام على يد الملك عبد العزيز ، وبدأ يقيم في الرياض بصفة مستقلة ، له كتب كثيرة عن جغرافية الجزيرة العربية . . . "

وجاء في الكتاب ما يأتي :

" كان يجلس معنا بملابسه العربية ، ودار الحديث بالعربية وكان فيلبي يتحدث بلهجة بدوية . . عن كتاب " في أرض مدين " In The Land Of Midian .

وراح الأمير عبد الله يمزح قائلاً : إن فيلبي يحاول أن يثبت صحة ما ورد في التوراة والإنجيل من خلال الآثار ، فهو لا يفهم القرآن ، ولا يفهم الحديث ، ولكنه يدعي أنه يعرف العربية ، ومعرفته للعربية مثل معرفتي بالإنجليزية ، وأعطى الأمير مثالين على خبائة فيلبي : فهو يقول إن إبراهيم كان ملكاً إذ جاء في القرآن الكريم " ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أن آتاه الله الملك . . الآية .

وهذا المعنى موجود في الإنجيل فقد ذكر أنه كان غنياً ثرياً .

والمثال الثاني أن بين بلقيس ملكة سبأ وسليمان آلاف السنوات .

ثم قال الأمير عبد الله للمودودي بعد أن ذهب معظم الناس : إننا نعرف أن إسلام هذا الرجل مجرد إسلام جغرافي ، وأفكاره حتى الآن هي أفكار النصارى ، لكننا لا نرى أنه خائن أو جاسوس للإنجليز .

وأكد المودودي على كلام الأمير عبد الله موضحاً أن إسلام فيلبي كان نتيجة رغبة في دراسة جغرافية الجزيرة ؛ لأنه لا يمكنه أن يتحرك داخل الجزيرة دون أن يكون مسلماً ولهذا أعلن إسلامه .

للمزيد من التفاصيل انظر الجزيرة العربية في أدب الرحلة الأوردي سمير عبد الحميد إبراهيم ، الصفحات المتعلقة ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية .

جون فيلبي البريطاني، الرجل الذي يصاحب الملك دائماً، وهو يخدم المصالح البريطانية، والحقيقة أنه حين كان ابن سعود حاكماً على نجد، وقبل قدومه إلى الحجاز، أرسلت بريطانيا فيلبي ليراقب الملك ابن سعود، فعاش في الرياض، وفي الوقت نفسه أرسلت بريطانيا لورانس إلى الشريف حسين في الحجاز، وسوف أشير إلى هذا بالتفصيل فيما بعد.

فقال عبد الله دون اهتمام:

لم تصدر أي عبارة في الصحف عن فيلبي، فهذه مجرد إشاعة انتشرت بين الناس، وفيلبي لم يكن هنا آنذاك، كان مسافراً، ذهب إلى بريطانيا، وقال: "لو كنت هنا لما حدث ما جرى" ولهذا قال الناس إنه يعرف ماذا كان سيحدث، ولهذا لم يشأ أن يكون موجوداً، ومن ثَمَّ انتشرت هذه الإشاعة.

وفي حين كنت أتحدث مع عبد الله في هذا الموضوع دخل العجوز الغرفة بصحبة عدد كبير من الضيوف، لا أدري كم كان عددهم، فقد استمر ورود الناس علينا منذ الصباح، في حين كنت أود أن أختلي بنفسي، وكنت أرغب في أن أكون وحدي أفكر في أمور عديدة ومختلفة، لكن العجوز صاحب الفندق، لا يدري شيئاً عن مشاعري الداخلية، كان فخوراً بأن يكون لديه ضيوف من اليابان، فأخبر العديد من الناس بهذا الأمر، فجاء كثيرون ليشاهدوا سحنتي، ويلقوا بنظرة على وجه مسلم ياباني، كنت كشيء عجيب بالنسبة إليهم، وانشغلت حقيقة باستقبالهم والترحيب بهم، ولم أتمكن من أن أعمل ما أريد.

قال العجوز للضيوف وهو يقدمني إليهم:

نحن (أي أصحاب الأصول الإندونيسية) ننتمي إلى العرق نفسه، نحن من جنس واحد، أجدادنا وأجداده، ولهذا فنحن من جنس واحد.

أعتقد أنه لم يفكر أبداً في أي أمر غير هذا، ولا يفكر في أننا نساعدهم في إندونيسيا[١] واستمر يقول بأن بلده الأصلي "جاوة" تبعد عن اليابان مسافة مثل المسافة من هنا إلى مصر، يقول هذا بكل فخر، لكني أعتقد بأنه لم يشاهد الخريطة أبداً.

على كل حال أُعجب الضيوف بقصته، وحكاياته المتنوعة، وكانوا يستمعون إليه في صمت، وهذا هو سبب مجيئهم، فقد أرادوا أن يتعرفوا إلى حاج ياباني، وأن يعرفوا كثيراً من المعلومات عن اليابان، ولهذا أمطروني بأسئلتهم المتنوعة دون توقف، وكنت أتعجب! فهم لا يعرفون كثيراً عن اليابان، كل ما يعرفونه هو انتصار اليابان في حربها مع روسيا، هذا ما يعرفونه جيداً فقط.

تناولنا طعام الفطور أو الغداء في الساعة العاشرة، حمله الخادم إلينا في "صينية" كبيرة مدورة، جاءنا الطعام من الأدوار العليا أي من فوق إلى تحت، على عكس ما تعودنا في اليابان[٢].

مطبخ على السطح

طبقاً لتقاليدنا في اليابان فإن المطبخ يجب أن يكون في الطابق الأرضي، لكن الوضع هنا في جزيرة العرب مختلف تماماً، وعلى عكس ما عندنا، فالمطبخ في أعلى مكان في البيت، أي على سطح البيت، وبالطبع سيكون الطبخ والغسيل وما إلى ذلك على السطح.

---

(١) يعتقد المؤلف أن السيطرة على إندونيسيا تهدف إلى مساعدتها!!

(٢) عادة ما يقيم الضيف في الطابق العلوي، ويكون المطبخ في الطابق الأرضي، ولهذا تعجب المؤلف، لأن ما يحدث يختلف تماماً عما تعوده في بلده اليابان.

شاهدت مجرى للماء مصنوعاً من شيء يشبه الأنبوب الخشبي، كنا كلما خرجنا من الفندق، سقط علينا منه رذاذ الماء المتطاير، وذات يوم أخذت أُراقب كيف تنزل هذه المياه، وإلى أين تذهب؟! ولفت نظري هذا الأنبوب الخشبي بعد أن فتحت النافذة، ووجدت شبيهاً له، في جميع البيوت والفنادق المحيطة، فضلاً عن الأنبوب الموجود في مقر إقامتنا، كانت هذه الأنابيب كلها متشابهة، الطول نحو متر، ويتدلى من السطح، نحو متر، ويسقط الماء من أعلى فيتحول في معظمه إلى رذاذ ثم إلى بخار، وكان هذا شيئاً عجيباً وغريباً بالنسبة إلي؛ لأن هذا لا يحدث أبداً في اليابان، ولكني عرفت السبب، وكان أمراً طبيعياً، وهو الحرارة الشديدة المحرقة، والجفاف الشديد جداً، فالماء الذي يسقط من فوق المبنى، ومن ارتفاع شديد، لا يصل أبداً إلى الأرض؛ لأنه يتحول بفعل الحرارة الشديدة، ونتيجة للجفاف الشديد إلى بخار، وهذه المنطقة قلّ أن تتعرض للأمطار، ولهذا يسودها الجفاف، والجو يمتص المياه بسرعة كبيرة.

والسبب الثاني في وجود المطبخ على السطح هو سبب غير مريح قليلاً.

تتمتع المرأة حالياً بنصيب قليل من الحرية في تركيا ومصر وإيران، لكن يجب القول بأن المرأة المسلمة في جزيرة العرب يجب ألا تظهر أمام الآخرين أو تكشف نفسها أمامهم، وهم هنا يحافظون على التقاليد تماماً، ويتمسكون بتعاليم الإسلام، فالمرأة يجب أن تلتزم بالحجاب الكامل، وتغطي جميع جسمها بما في ذلك وجهها، ولا يمكن لغير محارمها أن يشاهدوا وجهها، وعليه فهم يطلقون على غرفة النساء "غرفة الحريم" ومن هنا كان التفكير في مكان المطبخ، حيث تعمل المرأة.

فالنساء حين يطبخن يجب ألا يظهرن على أحد من الرجال، ومن هنا يجب أن

يكون المطبخ في مكان آمن، وهكذا كان اختيار سطح المبنى ليكون أنسب مكان للمطبخ.

والطبخ والغسيل كما هو في اليابان من عمل المرأة، وهكذا فالسطح هو مكان عمل المرأة، وكان هذا هو السبب الغريب في نزول الطعام إلينا من فوق إلى تحت.

والطعام بسيط جداً، فهو على سبيل المثال لحم الضأن، والزبادي والزيتون والخبز الذي يبدو كأن خابزه فشل في تحديد شكله الدائري، وقد تعودت على مثل هذا الطعام البسيط، فمنذ عشر سنوات، وأنا أجوب بلدان المحيط الهادي، كما أنه سبق لي وأن جئت إلى هنا مرتين، لكني كنت قلقاً بالنسبة إلى السيد/ تشان فربما يمثل هذا الطعام مشكلة بالنسبة إليه.

وضعوا على السجادة "مفرشاً" من القماش الرقيق، ثم وضعوا الصينية، والأطباق التي لم تنظف جيداً، ووضعوا الطعام في هذه الأطباق، وتضمن كل نوع بعض الذباب الميت[1]، فكان علينا أن نتخلص من هذا الذباب، وكانت هذه أول مرة بالنسبة إلى السيد/ تشان، تعاطفت كثيراً معه.

بقينا في الحرم من الظهر حتى صلاة العصر، صلينا هناك ثم رجعنا إلى الفندق، في حين كانت الشمس على وشك المغيب، وبعد أن تناولنا الشاي، عدنا إلى الحرم ثانية لنصلي المغرب، وبقينا لصلاة العشاء أيضاً.

أصابنا التعب والإرهاق، فقد انشغلنا من الصباح الباكر حتى الليل.

---

(١) هذا قد يكون موجودًا في ذلك الوقت، أما الآن فهناك رقابة صحية من قبل الجهات المختصة لا يمكن أن تظهر مثل هذه المشاهد (المراجع).

المهرجان الكبير

الوقوف على جبل عرفات

أدينا واجبات كل يوم على أكمل وجه، وكنت فرحاً سعيداً، شاكراً الله الذي أسبغ عليّ رحمته، وحفظ لي صحتي، وقدرني على القيام بالواجبات الصعبة، واجباً تلو آخر، فلم أشكُ، ولم أستسلم للتعب أبداً، وكنت متحفزاً، مشدود الأعصاب، أفكر في يوم الوقوف بعرفة، الذي أسميته يوم "المهرجان الكبير" فبعد يومين اثنين سيكون الوقوف بعرفة، وسكان مكة ثلاثون ألف نسمة تقريباً، لكن سيضاف إليهم الآن مئة وخمسون ألف حاج أو مئة وستون ألف حاج.

انتشر المسلمون المتشوقون للوقوف على جبل عرفات هنا وهناك، وهم في غاية النشوة والسرور، وكانوا جميعاً في ملابس الإحرام البيضاء، يدعون الله ويكبرون ويلبون، واختلطت أصواتهم بأصوات الجمال وقطعان الماعز والغنم، وأبواق السيارات، وزاد من كل هذا منظر الغبار المتصاعد هنا وهناك، وهكذا زادت حرارة مكة المكرمة أكثر فأكثر نتيجة كل هذه العوامل، مع ترقب يوم عرفة، يوم المهرجان الكبير.

كنا في اليوم السابع من شهر ذي الحجة، الموافق للسابع من شهر فبراير الميلادي، وكان بعض الناس يريدون الصعود إلى عرفات على ظهور الجمال[1]، وأقرأ الآن ما سطرته في مذكراتي:

---

(١) كانت تستخدم الجمال في ذلك الوقت بوصفها وسيلة نقل، لكن في الوقت الحاضر استغني عن الجمال بوسائل النقل الحديثة كالسيارات وغيرها، وقد أطال المؤلف في الحديث عن الجمال في الصفحات التالية وهي لا وجود لها حالياً في وسائل النقل (المراجع).

"سيذهب الحجاج اليوم إلى عرفات على ظهور الجمال، لم يتقرر يوم الوقوف بعرفة حتى الآن رغم أننا في الساعة الرابعة بعد الظهر، وهم الآن سيقررون ما إذا كان اليوم هو السادس أو السابع من ذي الحجة، وبعد الساعة الخامسة والنصف تقرر أنه اليوم السابع من ذي الحجة، وصدر إعلان رسمي بذلك".

ربما يظن القارئ الياباني أن هذا الأمر عجيب، لكن التقويم الإسلامي يعتمد على حركة القمر، وخصوصاً أنهم يهتمون بذلك هذه الأيام، ويتم تحري الهلال خصوصاً في بداية شهر رمضان، وهكذا تتحدد بداية الشهر عن طريق بعض الأشخاص، الذين تعينهم الحكومة في أماكن مختلفة، لمشاهدة ظهور هلال الشهر الجديد، أو تلقي شهادات الناس برؤية هلال الشهر الجديد، ولهذا السبب لم يتمكنوا من تحديد وقفة عرفات بسرعة، وأعلنوا ذلك بعد الساعة الخامسة والنصف.

بعد هذا الإعلان دبت الحركة فجأة في المدينة التي كانت قد هدأت إلى حد ما، وبدت مشاعر الإثارة والنشوة والفرح على الوجوه، وانشغل موظفو الفندق تماماً، وظهروا كأنهم يعدون لمعركة حربية، كانوا يجهزون أواني الطبخ والخيام ومعداتها وغير ذلك، وكان عليهم ترتيب كل هذه الأشياء، وتحميلها على الجمال، شاهدت الجمّالين البدو في زيهم الأبيض، يتمنطقون بحزام أحمر ويحملون في أيديهم "الكرابيج" التي تساعدهم على قيادة الجمال، وبدا من شكلهم وتصرفاتهم وحركاتهم أنهم ذاهبون إلى معركة حربية كتلك التي كانت تدور منذ خمسة عشر أو ستة عشر قرناً من الزمان.

كنت أشاهد هذا المنظر مع السيد/ تشان من النافذة في الطابق الثاني، وبعد أن تحركت الجمال التي تحمل الأمتعة، تبعتها جمال، وضعوا على كل منها "شغدفا" حيث يجلس راكبان، واحد في كل ناحية، وقد كان من الصعب ركوب

الجمال، ويمكن القول بأن منظر ركوب الجمل يثير ضحكنا أحياناً، ولكن الناس هنا يأخذون الأمر بجدية تامة.

بداية يضعون على رقبة الجمل شيئاً أشبه بالسلم، يصعد عليه من يريد ركوب الجمل، ويثبُت الجمل للحظات حتى يتمكن فيها الراكب من أن يمتطي ظهره، لكن الجمل يفقد صبره أحياناً فيهز رقبته، فيطير الحاج في الهواء، وإذا نجح أول راكب في الصعود على ظهر الجمل، فعليه أن ينتظر حتى يصعد زميله، وعليه أن يقف محافظاً على توازنه على ظهر الجمل، لا على أحد جانبيه، وهنا تكمن المشكلة، فبعد نجاح الراكب الثاني، ويجب عليهما أن يتحركا معاً بهدوء شديد، وأن يتجه كل واحد منهما إلى أحد الجوانب ليجلس في الشغدف، فإذا لم يحفظا توازنهما جيداً، سقطا على الأرض!

وهكذا يعد ركوب الجمل نوعاً من المخاطرة، ويبدو الناس وهم يركبون الجمل كما لو كانوا في "سيرك" وبالطبع اعتاد أهالي مكة على هذا الأمر، لكن الناس الذين جاؤوا من سوريا، وخصوصاً النساء البدينات، إذا ما حاولن ركوب الجمل، فعليهن بالإضافة إلى ما ذكرت قبلاً المحافظة على خمارهن على وجوههن، وحين شاهدتهن يركبن الجمال شعرت بالأسف، وتعاطفت معهن، لكني في الوقت نفسه لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك، على الطريقة التي كن يركبن بها، فالسلم الصغير بدا وكأنه تمزق تحت ثقل المرأة البدينة الضخمة، وزوجها المسكين أخذ يدفعها من مقعدتها، لكنها أثقل من الأمتعة ذاتها، فيفقد الجمل صوابه، وهم يحاولون دفعها إلى أعلى، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً، ولم ينجحوا؛ مما دفع موظفو الفندق الذي نقيم فيه، وبخاصة الشباب والحمالون، إلى مد يد المساعدة، لإنهاء هذه المهمة الصعبة!! لا أدري لماذا النساء اللواتي جئن من الشام بمثل هذه البدانة؟! لقد شاهدت

أمثلة كثيرة على ذلك الأمر، كما شاهدت أحد الأزواج مع زوجاته الأربع، كن من الحجم الكبير نفسه، بدينات جداً، كان وضعهن على ظهر الجمل بالنسبة إليه من الصعوبة بمكان، وقد تعاطفت معه كثيراً !!

كان الجمل أحياناً يُصاب بنوع من الفزع أو القلق لسبب ما، فيدور ويتحرك كالمجنون، ثم يجري بسرعة هنا وهناك، ضارباً نفسه في أي شيء يعترض طريقه، وإذا ما كان يحمل شغدفاً، تعرض الحجاج للإصابة بالجروح.

والجمّال البدوي يبدو من مظهره الحزم والشدة مع الشجاعة، يحمل عصا من الخيزران، ويقود وحده خمسة عشر جملاً، وما كنت أشاهده اليوم كان يشبه شريطاً مصوراً عن الحرب في العصور القديمة، كانت صفوف الجمال تتحرك دون توقف، وكان الناس يمضون في قطارات متتابعة، يدعون الله ويلبون: "لبيك اللهم لبيك.. لبيك لا شريك لك لبيك "وكانت وجهة الجميع واحدة: ميدان عرفات.

قوافل الجمال متجهة إلى عرفات

وقف العجوز صاحب الفندق يتطلع مثلنا من النافذة، كان يريد أن يشرح لنا أحياناً ما يدور أمامنا، إلا أنني كنت أشعر أنه "يزعجنا ويقلقنا" فكنت أحاول التظاهر بأنني لا أفهم ما يقول، وألتزم الصمت، وحين أصمت لا يهتم العجوز بالأمر، ويبدأ في التدخين، فيأخذ ورقة "بفرة" بيضاء رقيقة، ويضع فيها الدخان من علبة مربعة، ثم يطوي الورقة على الدخان بمهارة وخبرة، ويلصقها بلعابه، ثم يشعلها، ويبدأ في التدخين. . ولحظت أنه إذا رأى أحداً في محنة، لا يسرع إلى مساعدته أو مد يد العون إليه، ويقول لي: "أهم عمل بالنسبة إلي هو رعاية كبار الضيوف". وهذا يعني أننا من كبار الضيوف بالنسبة إليه.

غربت الشمس واختفت ونحن نشاهد هذا المنظر، وانتشر الظلام، في حين بدت السماء صافية، والهواء لا يتحرك كأنه مات، فشعرت ببرودة تسري في جسدي، لقد تبدل الآن الجو الصحراوي الحار، فبدأت جميع المخلوقات تتحرك.

لم يبق في الحرم غير عدد قليل جداً من الناس، بعد أن انتهينا من صلاة العشاء، ذهبت مع السيد/ تشان لنمشي قليلاً في السوق الذي بدا هادئاً جداً، بعد أن ذهب الناس إلى منى وعرفات، كان السوق خالياً تقريباً من الناس، وكأن الحزن قد غطاه !! فقد كانت معظم "المحلات" مغلقة، فبدت منطقة السوق مظلمة، وعند نهاية السوق وقف رجال الشرطة الذين كانوا يطلقون صفاراتهم، كرمز اتصال بينهم، وكان صوت الصفير يقطع خيوط السكون التي خيمت على المنطقة.

يقوم التجار الذين يمارسون التجارة طوال العام بتغيير ملابسهم، وارتداء ملابس الإحرام خلال أيام الحج، ويتوجهون إلى منى وعرفات لأداء شعائر الحج، من ناحية، وممارسة أعمالهم التجارية من ناحية أخرى، كما أن من يعيشون على

الصدقات التي يقتاتون بها طوال العام، يتبعون أيضاً الحجاج في منى وعرفات مشياً على الأقدام.

ولا يزال بعضهم هنا هذه الليلة، وهؤلاء سيتوجهون إلى عرفات بالسيارات، وسكان مكة قليلون جداً حتى لو أضفنا إليهم رجال الشرطة والحرس والجنود.

بالنسبة إلى الفندق الذي نقيم فيه غادرت النساء، وغادر الرجال الذين جاؤوا من (جاوة)، ولم يعد يوجد في هذا الفندق الذي يتكون من خمسة طوابق سوانا والعجوز والخادم الذي يتولى خدمتنا.

كنا نستعد نفسياً للتحرك غداً، ونتهيأ للوقوف على عرفات، فجلسنا في ضوء مصباح خافت، دون أن ننطق بكلمة. . . كان العجوز يضع "طاقية" بيضاء صغيرة على رأسه، لم أشاهد أبداً رأسه بدون غطاء، كان "ينتف" شعر لحيته، في حين الخادم يغفو أمام الإناء الذي كان الماء يغلي فيه بهدوء. . . صمت مطبق، وهدوء تام.

سمعت طنين حشرة صغيرة غير معروفة، شعرت كأننا نعيش في كهف، كانت جماعات الناموس تحيط بنا، لقد ذهب الناس، ولهذا تجمع الناموس من حولنا، فحاولنا أن نتخلص منه باستخدام "الفوطة"، إذ لا يمكننا أن نقتل الناموس هنا، كما لا يمكننا أن نقتل حتى الشيء الصغير الذي يضر بالإنسان، فهنا لا يمكن أن نقتل كل ذي روح؛ لأنه آمن هنا، بأمر إلهي، ونحن أيضاً محرمون، ولهذا بدأنا في نصب "الناموسية" لتحمينا من لدغ الناموس، فمن الصعب أن يجلس الإنسان والحال هكذا خارج الناموسية[1].

(١) لا حرج شرعاً على من كان في الحرم أو كان محرما في قتل البعوض والذباب ونحوه وسائر الحشرات المؤذية. انظر المغني لابن قدامة، جـ٣، ص٣٤٣ طبعة مكتبة الرياض (المراجع).

حين لحظ العجوز أننا على وشك النوم، تركنا وذهب إلى حجرته، وقد سمعت وقع خطواته على السلم، خطوات بطيئة، استمر وقع خطواته يصل إلى مسامعي حتى وصل إلى الطابق العلوي، حيث ينام. . كنت ألف فوطة حول جسمي، ومددت ذراعي ورجلي على فراش يشبه الفراش الياباني، ولكن لا يمكنني أن أنام بنفسي حتى أسمع أنفاس السيد/ تشان المتلاحقة تعلن عن نومه، عندئذ أشعر أن واجبي اليومي نحوه قد انتهى، فأغرق بدوري في نوم عميق.

الحج إلى مكة ليس بالأمر السهل، فمن ليس لديهم خبرة بالحياة في الصحراء لا يمكنهم أن يتخيلوا هذا الأمر، والحجاج المسلمون عليهم القيام بأداء مناسك الحج كل سنة، وحتى تتضح صعوبة هذا الأمر نشير إلى أن عشرين بالمئة من الحجاج يموتون في موسم الحج، ومعظمهم من بلدان جنوبي شرقي آسيا، الذين يأتون للحج[1]، ويتوقعون الموت أثناء أداء مناسك الحج، ونحن أيضاً شعرنا بأنه ربما لا نعود إلى بلدنا مرة ثانية.

حين رقدت على الفراش، وسمعت طنين الحشرات، لم أستطع أن أمنع مشاعر الحنين إلى الوطن، تلك المشاعر التي انتابتني بشدة، والتي افتقدت فيها بلدي، وانتابني شعور آخر، ربما أموت قبل أن أعود إليه، وأذكر أنني تظاهرت أمام والدي، وأمام إخوتي وأصدقائي المقربين، بأنني ذاهب إلى رحلة جماعية، في حين كنت قادماً للحج.

وحين أفكر في الوقوف بعرفات غداً، أشعر بأن العودة إلى اليابان ثانية ستكون معجزة، وأخذت أتذكر أبي وأمي اللذين يتوقعان رؤيتي ثانية بعد سفري خارج

(١) الحج فرض على المسلم مرة واحدة في العمر، وما زاد على ذلك فهو تطوع (المراجع).

اليابان، كنت طوال الوقت، أتخيل والديَّ يُصليانِ من أجل سلامتي أثناء السفر، وقلت لنفسي: "يجب أن أستريح الآن من أجل واجبات الغد".

كانت مكة وهي خالية من الناس تجعلني أشعر بالوحدة، وأشعر بالكآبة في داخلي، وطنين الحشرات لا يزال يلامس مسمعي.

غرفة الحريم

اليوم هو يوم التحرك إلى عرفات، توضأنا لصلاة الفجر، ثم تناولنا طعام الفطور مع العجوز صاحب الفندق، حيث شربت حليب الماعز لا غير، كان البرنامج يقضي بأن نغادر في الساعة الثالثة بعد الظهر، وإلى أن يحين وقت المغادرة، سنقضي الوقت بشكل أو بآخر، نصف يوم تقريباً، جميع المحلات كانت مغلقة، والجو خارج البيت حار جداً، لهذا لا أريد أن أخرج.

والآن جاءتني فكرة، كانت تدور في رأسي منذ وقت طويل جداً، لعلها فكرة جذابة، وهي تتعلق بشيء خاص جداً.

كانت لدي رغبة شديدة لمشاهدة غرفة الحريم، غرفة النساء، التي يحظر على الرجال دخولها، و بدا تحقيق هذه الرغبة أمراً صعباً إن لم يكن مستحيلاً، إلا أنني أشعر بأن الفرصة قد سنحت لتحقيق الرغبة القديمة، وإذا ضيعتها الآن فلن تتوافر لي فيما بعد. . وستظل غرفة الحريم الغامضة كما هي في ذهني غامضة طوال حياتي، يجب أن أقتنص الفرصة بسرعة وإلا فقدتها إلى الأبد.

كنت أخطط لهذا الأمر، وظللت أخطط حتى أقتنص الفرصة الحالية، حاولت في البداية مع العجوز، بالتلميح والإشارة، وسألته:

أيها الزوج الطيب متى بُني هذا البيت؟

كنت أعرف عادة أن العجوز يريد أن يفتخر ببيته، ويرغب في أن يحدثني عنه أحاديث متنوعة ومختلفة، ولم يسبق لنا من قبل أن سألناه عن بيته هذا، ويبدو أنه كان ينتظر هذه الفرصة، فأجاب بسعادة:

نعم مر على بناء هذا البيت ألف سنة، لا أعرف متى بُني بالتحديد، لكنه كان ملكاً لأجيال متعددة من الأشراف.

فقلت له:

أنت إذن رجل محظوظ لأنك تملك هذا البيت التاريخي المشهور، ونحن أيضاً سعداء؛ لأننا نقيم في مثل هذا البيت الأثري، وكان هذا من فضل الله الذي منحنا هذه الفرصة.

والرجل العجوز آسيوي، يريد أن يخفي مشاعر السعادة والسرور، كنوع من الأدب، فقال:

شكراً جزيلاً أنا سعيد إذا كان هذا تفكيركم، وإذا كانت هذه مشاعركم نحونا، كان من الصعوبة بمكان أن أمتلك هذا البيت، في تلك الأيام كانت لدي ثروة كبيرة، لم تكن لدي أي مشكلة مادية كما ذكرت لك، هذا بيت تاريخي مشهور، ولذلك تنافس على امتلاكه كثيرون، ولكن كانت لدي علاقات خاصة مع المسؤولين في الحكومة، وهكذا تمكنت من امتلاك هذا البيت.

أعتقد أنه لا يقصد بالمسؤولين في الحكومة، حكومة ابن سعود، إنه يعني ملك الحجاز السابق الشريف حسين، الذي كان الإنجليز يسيطرون عليه، ويستخدمونه

لتحقيق أغراضهم، كان هذا العجوز ثرياً في تلك الأيام، وكان ابنه عبد الله يعمل موظفاً في وزارة المالية، وهكذا كانت هناك علاقته مع حكومة الشريف حسين، والحكومة الحالية على دراية بهذا الأمر، وهي بلا شك تراقبه، فقد كان معارضاً للحكومة الحالية.

لا يريد العجوز أن يأتي للنقطة التي أريده أن يصل إليها، فسألته ثانية:

يا شيخ يا طيب! هل يمكن أن نرى ساحة الحرم من فوق سطح المبنى؟

فأجاب:

نعم يمكن أن نرى ساحة الحرم من فوق؛ لأن هذا المبنى هو أعلى مبنى هنا، وهو الأقرب إلى الحرم.

فسألته:

هل يمكن أن نصعد إلى السطح؟

فأجاب:

نعم تفضل، تفضل ويمكن أن تشاهد غرفة الحريم أيضاً.

وهكذا صار الأمر أسهل كثيراً مما توقعت.. وصار الحلم حقيقة..

ربما كان يريد أن يطلعنا على هذه الغرف منذ مدة طويلة..

قادنا بسرعة لنرى هذا المبنى المكون من خمسة طوابق، والمبني بالخشب والطين، لا أظن أنه مضى على بنائه ألف عام! هذا كلام يثير العجب، كانت السلالم مغطاة بالأسمنت أو الأحجار، وهي سلالم حلزونية مظلمة ومخيفة،

وصلنا إلى السطح وأخذنا نتصبب عرقاً، في حين جذب العجوز مفتاحاً من بين " ربطة " المفاتيح التي ثبتها في خصره، ووضع المفتاح في فتحة الباب . .

لحظة مثيرة جداً، يمكن أن نرى غرفة الحريم الآن .

ذهبت جميع النسوة إلى عرفات، وهكذا يمكن أن نزور غرفهن بسهولة، ومع أن هذا العجوز صاحب البيت له الحق في أن يشاهد كل مكان في بيته، لكن ليس له الحق في أن يرى غرفة الحريم .

يبدو أنه كان فخوراً بأن جعلنا نشاهد غرفة الحريم هذه، بوصفنا من كبار الضيوف، وهاهي غرفة الحريم أمامنا . .

غرفة جميلة للغاية، جميلة جداً، إذا ما قارناها بغرفتنا، كانت هناك طاولة مصنوعة من نوع خاص من الخشب، وبجوارها مرآة كبيرة، وامتلأت الغرفة بزخارف متعددة الأشكال ومختلفة الأنواع، طغى عليها اللونان : الأحمر والأزرق .

شعرت فجأة أنني دخلت عالماً آخر مختلفاً تماماً، لا يمكن أن أعبر عنه بالكلمات، شاهدت ملابس النساء معلقة في ركن الغرفة، وملابس الشابات الصغيرات التي كانت تشبه الزي الإسباني المزركش، كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها ملابس النساء الملونة المزركشة، منذ أن دخلت جزيرة العرب، فعادة ما تغطي المرأة العربية جسمها من أعلاه إلى أسفله بملابس سوداء، ولا يمكن لأحد أن يرى وجوههن، وحتى بالنسبة إلينا أيضاً لم نر وجوه أحد من النساء على الإطلاق، لهذا لم أكن أتصور أن تحت هذه الملابس السوداء التي يرتدينها مثل هذه الملابس الجميلة الملونة المزركشة .

وأخذت أتخيل شكل المرأة وأنا أشاهد هذه الملابس، لابد أن صاحبة هذا الثوب لها عيون سوداء، ممشوقة القوام، ضامرة الخصر، جميلة، هذا مجرد تخيل

فقط، لكني أشعر أنه لو وقفت في هذه الغرفة، فسوف يلاحقني هذا التخيل، ويتتابع على ذهني دون توقف.

جئت لجزيرة العرب، حيث الأماكن المقدسة، لأداء فريضة الحج، وبالطبع انقطعتُ عن جميع رغباتي، لكن حين دخلت هذه الغرفة السرية، وشاهدت ملابس النساء الملونة، وشعرت برائحة العطور النسائية تزكم أنفي، بدأت أتخيل النساء ببشرتهن القمحية الملساء، فمنذ أن دخلنا جزيرة العرب لم يكن للمرأة وجود في عالم خيالنا. . إنه لأمر محزن، ففي جزيرة العرب لا يوجد وجه لامرأة، توجد الصحراء الحارة الجافة فقط، وفي الصحراء نرى اللون الأصفر فقط، ونادراً ما نشاهد اللون الأخضر، لا أشجار، ولا أزهار، ولا حشائش ولا حتى مجاري ماء أو أنهار، لا وجود لتغريد البلابل أو شقشقة العصافير، والمنظر يوحي بالسكون الرهيب، والصمت المخيف، لكنا الآن نقف في غرفة الحريم الجميلة الرائعة. . شعرت فعلاً أنني أُعامل بوصفي ضيفاً خاصاً جداً.

زاد من شعوري هذا تلك القصة التي حكاها لي العجوز، وهي قصة مسلية ومشوقة:

كنا نستطيع من قبل زخرفة الغرف وتزيينها بالصور والألوان لتصبح جميع الغرف مثل هذه الغرفة التي أمامك، لكن الملك الحالي قال إن هذا ممنوع، ممنوع أن نزخرف جميع الغرف، وسمح لنا بزخرفة غرفة الحريم وتزيينها فقط. . . "[1].

وهو بالطبع يقصد الملك ابن سعود، الذي يحمي الدعوة السلفية في الجزيرة العربية ويُدافع عنها.

---

(١) لم يمنع الملك عبدالعزيز - رحمه الله - الناس من زخرفة المنازل وتلوينها، وإنما الممنوع شرعاً هو تعليق صور ذوات الأرواح، ولعل هذا القائل لايزال في نفسه شيء على الحكومة السعودية كما أشار إلى ذلك المؤلف في صفحة مضت (المراجع).

واستطرد العجوز قائلاً:

بعد أن جاء الملك ابن سعود إلى الحجاز، فإن قادة الدعوة السلفية سيطروا على كل شيء، وطبقوا تعاليم الإسلام بحذافيرها، فلم يكن من الممكن أن نزخرف ونزين جميع الغرف هنا"[1].

فقلت له:

ماذا عن تزيين هذه الغرفة وزخرفتها؟

فقال:

هذه غرفة الحريم، ولا يمكن حتى للملك أن يدخلها، ورغم أن مسؤولي الحكومة لهم سلطة تمكنهم من دخول أي مكان، لكنهم لا يمكن أن يدخلوا هذه الغرفة، فهي غرفة لا يدخلها أي إنسان مهما كانت سلطته، والمرأة مخلوق يحب الزينة والألوان والأشياء الغالية والثمينة، وفي هذه الغرفة يسمح للنساء بعمل ما يردن داخلها، ويسمح لهن بالتزين والتعطر وما إلى ذلك.

وبالطبع باب غرفة الحريم موصد دائماً في وجه الرجال، ما عدا الزوج أو الأخ أو النساء من الضيوف..

قال العجوز:

أنا نفسي أحياناً لا أستطيع أن أدخل هذه الغرفة، وهذا يعني أن في بيتنا ضيفات، وإذا وصلن وأنا في الغرفة، أخرجوني منها، وحتى حين أعود إلى البيت

(١) لا علاقة لتطبيق مبادئ الإسلام وأصوله بتجميل الغرف وتلوينها، ولعل المؤلف فهم نفسية القائل، وشرح ذلك للقارئ فيما بعد (المراجع).

من الخارج، وأشاهد أحذية النساء، فهذا يعني "ممنوع الدخول" ولا يمكن أبداً أن أدخل، وهذه الغرفة بالنسبة إلي تكون مكان راحة أحياناً، وأحياناً لا يمكنني أن أستريح فيها.

وأتذكر الآن قصة سمعتها مرة، ولكني لا أعتقد أنها حدثت فعلاً، فقد ظننت أن مثل هذه الأمور لا يمكن أن تحدث، لكن حين سمعت حديث الرجل العجوز، ساورني الشك، فقد تكون حدثت بالفعل، سمعت أن "الزوج حين رجع إلى بيته من الخارج، وجد حذاء امرأة جميلاً جداً وجديداً، أمام غرفة الحريم، فلم يستطع الدخول إلى الغرفة؛ لأنه أدرك أن داخلها امرأة أجنبية عنه وليست من محارمه، ولهذا انتظر في غرفة أخرى حتى تخرج الضيفة، وخرجت الضيفة، وطأطأت رأسها قليلاً ناحية الغرفة التي كان يجلس فيها الزوج، وبدا أنها في عجلة".

حتى هذه اللحظة لا غرابة في القصة، فهذه قصة عادية، لكن طبقاً لعادات البلاد هنا يجب على المرأة أن تغطي جسمها من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، وهذه هي المشكلة، والرجل الذي قص علي هذه الحكاية كان مغرماً بفن القص، ومغرماً برواية الحكايات، وكان قد ذكر لي تفاصيل دقيقة، ربما كانت في معظمها من نسج خياله، ولكني أذكر خلاصة ما قال أو النتيجة وهي أن الضيف الذي جاء إلى حجرة المرأة كان رجلاً، وهذا يعني أنه توافر للاثنين الأمن، والمخاطرة في الوقت نفسه، فمثل هذه اللقاءات يمكن أن تحدث، وهذا أمر سهل جداً أن يتحول الرجل هنا وهو في ملابس المرأة إلى شكل امرأة؛ لأنه يغطي كل جسده بالملابس، ولا يشاهد من جسمه شيء.

وهناك خصائص معينة تتصف بها غرفة الحريم، فإذا وضع حذاء امرأة في مدخل البيت فلا يمكن أن يدخل الغرفة أحد حتى لو كان الزوج أو والد الزوجة، ولا يشك أحد فيمن بالداخل..

والنتيجة التالية لما حدث قبلاً أنه طبقاً للشريعة الإسلامية ونتيجة لما حدث من خيانة تم إعدام المرأة الخائنة، والرجل الذي تشبه بالنساء ودخل غرفتها.

وهنا يكمن الغموض في غرفة الحريم، وهذا الغموض يجذب أنظار الناس وعقولهم إلى هذه الغرفة، مع أن دخول الغرفة لا يشبع رغبات الناس، وإذا جلست في غرفة الحريم وتخيلت مثل تلك القصة التي ذكرناها، فيمكن أن تفهم أيها القارئ ما معنى غرفة الحريم، وكان من الطبيعي أن يكون لدي حب استطلاع تجاه هذه الغرفة، وهذا أمر طبيعي، فحتى العرب أيضاً عندهم الشعور نفسه الذي انتابني، ولديهم أيضاً حب استطلاع تجاه غرف حريم الآخرين.

الزواج في جزيرة العرب

لا يسمح - عموماً - للفتاة العربية بأن تظهر نفسها أمام الآخرين، حين تبلغ الثامنة من عمرها، ويجب أن تقضي معظم وقتها في غرفة الحريم، فإذا ما خرجت من البيت يجب أن تلتزم بالحجاب، والأسرة المتمسكة تماماً بتعاليم الإسلام، لا تسمح للمرأة بالخروج من البيت[1]، ويقولون إن الفتاة العربية عادة ما تحيض حين تبلغ الحادية عشرة من عمرها، فإذا ما حدث هذا الأمر أمكنها أن تتزوج حتى لو كانت في الحادية عشرة أو في الثانية عشرة.

وليس من السهل أن يحدث هذا الزواج، إذا فكرنا في الأمر ببساطة، فالزواج يحتاج إلى مصروفات كثيرة، تجعله من الصعوبة بمكان في معظم الأوقات، وربما يتم الزواج بسهولة إذا كان الزوجان ينتميان إلى أسرة فقيرة، وهم هنا عادة يفكرون

(١) يجوز للمرأة في الإسلام أن تخرج من منزلها لحاجتها كالتعلم والتعليم والوظيفة وسائر أمورها الأخرى بشرط عدم التبرج أو الاختلاط بالرجال الأجانب. (المراجع).

بصفة خاصة في مستوى العائلة، فيختارون للزواج أسرة من المستوى نفسه أو من مستوى أعلى، وهذا بدوره يزيد من صعوبة الزواج.

ويسيء بعض الناس الفهم، ويظنون أن الزواج العربي هو عملية بيع وشراء، وطبقاً للشريعة الإسلامية ربما تبدو النتيجة النهائية كما يظن هؤلاء، لكن الحقيقة تختلف تماماً عما يظن هؤلاء، فطبقاً للشريعة الإسلامية يجب على الرجل العريس أن يوفر كثيراً من الأموال لفتاته العروس، يطلق عليها "المهر" الذي يتم تحديده طبقا لمستوى عائلة العروس الاجتماعي والاقتصادي، ويمكن أن نطلق نحن على المهر مصطلح "ضمان" وهذه الأموال التي يوفرها العريس، يمكن للعروس أن تعتمد عليها إذا ما مات زوجها، وهذا محدد طبقاً لشريعة الإسلام، ومن المعروف أن كثيراً من المسلمين كانوا يذهبون للجهاد، وخلّف هذا كثير من الأرامل، ولهذا فهذه الأموال ضمان للزوجة في حالة وفاة الزوج، فعند الزواج يدفع الرجل المهر، ويكون هناك مهر مؤجل تحصل عليه المرأة إذا ما انفصلا، ويمكنها عندئذٍ أن تعتمد على هذه الأموال في معيشتها، وهذا يعنى أن ما يدفعه الرجل للمرأة، سواء كان كثيراً أم قليلاً سيصبح من ممتلكات المرأة، وليس من حق أي إنسان غيرها التصرف في هذه الأموال.

وإذا ما وفر الرجل المهر المطلوب، عليه أن يقيم حفلة زواج، طبقاً لمستوى أسرته وأسرتها، وتسبب هذه الأمور لهم قلقاً؛ لأنهم لا يفكرون في الأمر ببساطة، بل تحدث تعقيدات ومشكلات متعددة، والابن الثاني للعجوز صاحب الفندق خطب فتاة وهو في الخامسة والثلاثين ومع ذلك لم يتم الزواج حتى الآن، وقد سمعت أنهم ربما يحتاجون إلى مبالغ أكثر لإقامة حفل الزواج، يحتاجون على الأقل إلى خمسين جنيهاً ذهبياً فقط لإقامة حفل الزواج!!

وبعد الزواج لا يسمح للعروس أن تظهر نفسها أمام الناس لمدة سنة كاملة، لا يمكنها أن تخرج من البيت، وعليها أن تبقى في غرفة الحريم، حتى تتعلم كيف تكون زوجة جيدة، وبعد التدريب لسنة كاملة، يمكنها الخروج من البيت لأول مرة، وعندئذ يمكنها أن تزور بيت والديها، ويمكنها أن تخرج للتسوق، وبالطبع يجب أن تغطي جميع جسمها من رأسها إلى قدميها، فلا يعرفها أحد[1].

في هذه البلاد لا يمكن للرجل أن يرى وجه النساء الأخريات، حتى من الجيران أو أسر الأصدقاء المقربين، وعادة ما يرى الزوج وجه زوجته لأول مرة بعد الزواج، ولهذا سألت العجوز صاحب الفندق:

ألم تر وجه زوجتك قبل الزواج؟

فقال:

لا.. بالطبع لم أر وجهها.

وبدا كما لو كان يعود بذاكرته إلى خمسين سنة مضت، لكن وجهه كان هادئاً وطبيعياً، فسألته ثانية:

ألم تحدث مشكلات بسبب هذا الأمر؟

فقال:

نعم.. تحدث مشكلات، لكن ليست مشكلات كبيرة، لكن الآن الشباب عندنا يسافرون للدراسة خارج البلاد، فيذهبون إلى أوربا وإلى تركيا ومصر، ويعودون بأفكار جديدة، لا يمكن أن نجد لها حلاً من خلال تقاليدنا هنا، وهذا أمر طبيعي، والجزيرة العربية ليست بلداً غير متحضر كما يظن الآخرون في العالم،

(١) هذا القول لا وجود له في الواقع في المجتمع السعودي قديماً أو حديثاً، ولا ندري من أين استقى المؤلف هذه المعلومة (المراجع).

أعرف ليس لدينا شيء خاص، لكن أعتقد أن بعض البلدان تستخدم التقدم العلمي في مجالات مختلفة، ولا يمكن أن نقول إنها بلاد متحضرة، وهذا ما أعتقده، وربما هذا رأي العرب جميعاً، فالحضارة المادية أحياناً تدمر البشرية، ونحن لا نعارض وجود مدنية أو تقدم علمي، لكن ليس إلى الحد الكبير الذي نشاهده في بعض الدول الغربية، وقد ذكرت قبلاً أن أهالي الجزيرة العرب ليسوا همجاً غير متحضرين، وإذا كنا نفتقر إلى التقدم العلمي، فأقول لدينا ثقافة إنسانية خالصة، فبالنسبة إلى الإنسانية، وبالنسبة إلى البشر الثقافة الروحية أهم من أي ثقافة أخرى.

الآن! ولأول مرة! أسمع نظرية هذا الرجل العجوز، وأتعرف إلى أفكاره، ففي كل عام يفد إلى هذه البلاد أكثر من مئة وخمسين ألف حاج، يحمل كل واحد منهم ثقافة بلده إلى داخل الجزيرة العربية، وأهل الجزيرة العربية يحصلون على معلومات متنوعة ومختلفة من الحجاج، وينالون منهم معارفهم ومعلوماتهم، وهكذا تتوافر لديهم معلومات أكثر مما يتوافر لنا.

وافقته على فكرته ونظريته، وأطريت على ما قال، وأثنيت عليه كثيراً، فقال لي:

تعال! تعال إلى هذه الحجرة للحظة، فسأُريك شيئاً طيباً.

تبعته مع السيد/ تشان إلى الغرفة التي قادنا إليها، هذه غرفة جلوسه، لا توجد فيها زخارف أو زينة كما هي الحال في غرفة الحريم، لكنها نظيفة ومرتبة ومنظمة، وفيها قليل من الزينة والزخارف.. على كل حال تختلف قليلاً عن غرفتنا.

والعجوز صغير القد، سخيف أحياناً، له ذقن مدبب، كما أنه كريم وسخي.. ابتسم لنا ابتسامة عريضة فأبان عن ضياع بعض أسنانه من فمه، قال:

هل يمكن أن تشاهد هذه الفتحة في الجدار؟! أليس هذا مدهشاً؟! لماذا لا تنظر من هذه الفتحة، انظر ستدهش كثيراً مما سترى!!

حاولت أن ألقي بنظرة من خلال الفتحة، وكان علي أن أنحني قليلاً، حتى أتمكن من تثبيت عيني على الفتحة، وحين نظرت من هذه الفتحة في الجدار، تمكنت من أن أجد إجابات لجميع الأسئلة التي كانت تموج في ذهني.

إذا أراد الشاب الزواج، وبعد الاتفاق على الفتاة المناسبة تأتي أمه أو أخته الكبرى أو الصغرى بالفتاة إلى غرفة الحريم، وتجلسها مقابل هذه الفتحة، وأثناء الحديث معها يمكن للعريس أن يشاهد وجه عروس المستقبل.

هذه هي الطريقة الوحيدة لترتيب الزواج، وهذه الفتحة السرية لها أهمية كبيرة بالنسبة إلى إتمام الزواج، ويمكن القول بأن هذه الفتحة هي سر الزواج.

تجيز الشريعة الإسلامية للرجل الزواج من أربع نساء، هذا معروف ومشهور، وهي مسألة صعبة ومعقدة، ولهذا أريد أن أناقشها، وهي تحتاج إلى شرح طويل، فالمسألة لها مغزى عميق، لكن يمكن القول ببساطة إنه في زمان الرسول ﷺ، وحين كان ينشر الإسلام بين الناس، ارتبط هذا الأمر كثيراً بظروف تلك الأيام، فالتقاليد في تلك الفترة كانت تسمح للرجل بالتعددية، وكان ذلك في مجتمع العرب في الجاهلية، ثم جاء الإسلام فسمح للرجل بالزواج من أربع فقط.

ذات يوم زارني عالم مسلم لا يبصر، وعرفني به العجوز قائلاً بأنه شيخ من علماء مكة المشهورين، وجاء حين سمع عن وجود حجاج يابانيين، كان يريد أن يلتقي بنا.

رحب به العجوز كثيراً، ورحب به كل من في الفندق، وشعروا بأن زيارته لهم تزيدهم شرفاً وفخراً، وعبر العجوز عن سعادته الغامرة، وكان فخوراً جداً باستقبال

الشيخ العالم، أما الشيخ فكان خطيباً مفوهاً، وخمنت بأنه عالم جليل ذكي، على قدر كبير من المعرفة، وأدركت أن لديه قدراً كبيراً من المعلومات عن المواقف الدولية، والوضع الدولي، فتعجبت كثيراً!!

كان موضوع الحديث عن الشريعة الإسلامية، فبدأنا نتحدث عن أمر الزواج، ففي ديننا الإسلامي يسمح للرجل بالزواج من أربع نساء، فهل يمكن أن نقول بأن الإسلام دين غير حضاري؟! هكذا سألته لأن أتباع الديانات الأخرى يركزون على هذا الموضوع، ويعدونه منافياً للحضارة والمدنية.

فأجاب:

كانت الحياة الزوجية في جزيرة العرب ـ حين كان النبي ـ ﷺ ـ يبلغ الإسلام ـ سيئة للغاية، كانت أسوأ كثيراً في الجاهلية، ولهذا حين جاء الإسلام أدرك الناس فضله، وكان الناس يظنون أن من المستحيل تحويل المجتمع الجاهلي إلى مجتمع متحضر، ولا أريد أن أطيل وأقول دون تردد رداً على السؤال القائل: هل هدف النبي ﷺ هو أن يكون للرجل أربع زوجات؟ أقول: لا لم يقصد النبي هذا على الإطلاق.

إنه يسمح بأن يكون لكل رجل أربع نساء، لكنه وضع قاعدة تجيز هذا الأمر، وهي قاعدة لا تسمح من ناحية أخرى للرجل بأن يكون له أربع نساء:

أولاً: لا بد أن يعاملهن كلهن بالتساوي أي يعدل تماماً.

ثانياً: أن يحبهن جميعاً ولا يفرق بينهن[1].

(١) يشترط في إباحة التعدد القدرة على أعباء الزوجية والعدل في المعاملة، أما العدل في المحبة فلا يملكه أحد ولذلك فلا يشترط (المراجع).

والقاعدة الأولى سهلة التطبيق، ولكن القاعدة الثانية مستحيلة التطبيق بالنسبة إلينا بوصفنا بشراً، فأربع نساء لكل منهن شخصية مختلفة عن الأخرى، وصفات مختلفة، وملامح مختلفة، ومسألة الحب هذه يستحيل فيها العدل بسبب الحالة النفسية للإنسان، والإنسان من داخله لا يمكن أن يخدع نفسه، ومن ثَمَّ لا يمكنه أن يخدع الله. . والنتيجة هي أن الرسول ﷺ أراد أن يقول إن لكل رجل امرأة واحدة.

فسألته:

لماذا يفخر المسلمون بالزواج من أربع نساء، يبدو أنهم لم يفهموا أوامر الدين جيداً، ولم يفهموا ما أمر به الرسول ﷺ.

أجاب الشيخ العالم الفقيه:

إذا أردت أن أجيب باختصار فإن هذا ملائم لطبيعية الرجل، ومن المعروف أن الإسلام يجيز الزواج بأربع، لكن الناس لا يريدون أن يفهموا روح النص، فلا يوجد قانون إسلامي يأمر بالزواج من أربع زوجات، لا يوجد أمر بهذا[1]، ومن وجهة نظر الأخلاق الإسلامية سيفكرون بأنه ليس غير ملائم أومناسب، وأن هذا من التقاليد والعادات التي جرت هنا في جزيرة العرب، كما أن الزوجة هنا في جزيرة العرب لا تعد هذا أمراً شاذاً أو غير ملائم أو غير مناسب، وفي بعض المناطق يقول الشاب الذي سافر إلى أوربا ورجع بأن زوجة واحدة أطيب وأفضل، وقبل هذا كانت هناك زوجة تشكو من أن زوجها لا يريد أن يتزوج عليها، وهي تطلب منه

(١) يقول الله تعالى ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء: ٣] (المراجع).

ذلك، وهكذا تزوج زوجها بثلاث نساء أخريات، وحين سألوها عن السبب قالت بأن زوجها لديه ثروة ضخمة تمكنه من الإنفاق على أربع زوجات، كما أن له مقدرة على ذلك، فلماذا يحتفظ بزوجة واحدة ؟! هذا ليس بالأمر الطيب!!

والحقيقة هي أن المرأة تريد أن تظهر للآخرين بأن زوجها غني وثري، ويمكنه الزواج بأربع!!

وهذا هو السبب في أن معظم الأثرياء متزوجون بأربع زوجات، وزواج الرجل بأربع يعني أنه يحتل مكانة عالية في المجتمع، لكن العرب بدؤوا هذه الأيام بالابتعاد عن هذه التقاليد والعادات ويريدون أن يطبقوا روح القاعدة التي أوجدها الرسول ﷺ، وفي المستقبل القريب سيكون لكل رجل زوجة واحدة.

فسألته ثانية:

في أيام الرسول ﷺ كان هناك جهاد في سبيل نشر الإسلام، وكان الرجال يستشهدون، وتترمل النساء، وسمعت أن السماح بأربع زوجات يعني إنقاذ الأرامل، سمعت هذا..

فقال الشيخ:

يقول بعض الناس هنا مثلما تقول، لكن لا يمكن أن أقول بأن هذا صحيح، فكر في مشكلة السكان، وفي الواقع، المسلمون المجاهدون الذي ذهبوا للجهاد كانوا يفكرون جميعاً في أسرهم وفي زوجاتهم، فإذا كانت القاعدة من أجل إنقاذ الأرامل، وإذا تزوجت كل أرملة مات زوجها، وصارت هذه قاعدة، فالرجل الذاهب للقتال سيشعر بالأسى الشديد وهو يحمل في ذهنه فكرة زواج امرأته من بعده، ومن ثَمَّ يفقد روح القتال، وهذا عار وأمر مخجل.

أنا لا أظن أن القاعدة وضعت لهذا السبب، فالرسول ﷺ كان قائداً عسكرياً، بالإضافة إلى كونه رجلاً سياسياً، لهذا لا أقول بصحة هذا الاعتقاد، هذا لا يمكن، لا يمكن..

تمكنت من أن أستفيد كثيراً من الشيخ العالم، وحصلت على معلومات كثيرة ومفيدة من هذا الرجل الذي خرج من غرفتنا يقوده شاب صغير، ورافقناه، إلى أن ودعناه خارج المبنى، وبقينا نلاحقه بأبصارنا حتى اختفى تماماً عن الأنظار.

كان الجو هادئاً جميلاً، وكان الليل يخيم على الكون، في حين السماء كانت تبرق وتلمع كأن النجوم تتساقط من حولنا.

نخلة بعشرة آلاف جنيه ذهبي

كنت أتذكر قصة الشيخ العالم فاقد البصر وأنا أجلس في الغرفة المجاورة لغرفة الحريم، أخذت أتصبب عرقاً، أدركت أنه لا يمكن أن أسكن في الطابق العلوي في بيت عربي، فقد كنت أظن حتى هذه اللحظة أن من الممكن أن أشعر بالهواء البارد في الطوابق العليا، لكني شعرت الآن بأن هذا مستحيل، وبأن هذا غير معقول في جزيرة العرب.

ذهبنا خلف العجوز إلى سطح المبنى، كنت على وشك أن أفقد وعيي من شدة الحرارة، استطعت أن أرى غرفة الحريم، لكني لم أتمكن من مشاهدة الكعبة؛ لأن هناك شجرة نخيل ضخمة كانت تخفي وراءها منظر الكعبة..

هذا النوع من البيوت التي بنيت على الطراز العربي تتكون من خمسة أو ستة طوابق، وبدون طلاء من الخارج، تعطيني إحساساً غامضاً، والسبب الرئيس لهذا

الإحساس الغامض هو وجود هذا البيت في وسط المدينة، من ناحية، كما أنه يمكننا أن نشاهد من فوقه الحرم.

نحن في بلد صحراوي حار، كل شيء فيه يبدو أصفر، وعلى البعد من مدينة جدة نحو خمسين ميلاً، لا توجد تلك الأشياء التي يريدها الإنسان، والمنطقة تختلف في مواصفاتها عن مواصفات الجنة، فالجو المحيط جاف، ومع هذا يقول المسلمون بأن الجنة هنا فقط، وأن هذه المنطقة هي جنة العالم، وهكذا يفد كل عام مئة وخمسون ألف حاج أو أكثر إلى هذه المنطقة، يصارعون الموت، ويموت منهم عشرون بالمئة كل سنة، ويدفنون في الصحراء، لكن المسلمين يرون في هذا شرفاً وفخراً، ويؤمنون بأن من يموت أثناء أدائه لشعائر الحج هو أسعد إنسان.

من فوق السطح كنت أشاهد مكة المكرمة، وأتفحص جوانبها، وأدقق في معالمها، وأخذت أفكر في الجزيرة العربية، وفي قوة الإسلام، وقوة العقيدة، وقوة الإيمان، ويمكنني القول بأن هذا هو السر الكامن هنا، وهو الغموض الذي لا يمكن لغير المسلم أن يدركه، ولا يمكن لغير المسلم أن يفهم هذه المنطقة.

كانت هناك شجرة نخيل ضخمة تقف وسط الصحراء الصفراء، لقد ولدت في اليابان، وعشت طوال حياتي وسط الخضرة، ولهذا جعلتني هذه الشجرة الوحيدة أشعر بالحنين إلى منبتي، إلى مسقط رأسي، إلى موطني، ذكرتني ببلدي، وكنت مثل جائع وجد الطعام، ومن خلال خضرة هذه الشجرة أخذت أرى بعين خيالي جبال اليابان الخضراء، وسهولها الخضراء، ومروجها الخضراء، ولي الحق في أن أثني على جمال اليابان، فنحن محظوظون بما وهبه الله إيانا من خضرة تغطي جميع البلاد.

قال الرجل العجوز :

لا يمكن أن نرى بيت الله!! لقد طلبنا من أصحاب البيت المجاور أن يقطعوا بعض جريد هذه النخلة فطلبوا مني دفع عشرة آلاف جنيه ذهبي .

شجرة واحدة بمبلغ عشرة آلاف جنيه ذهبي، ربما أرادوا أن يقولوا له لا يمكننا أن نقطع هذه النخلة، فأنا على يقين بأن الخضرة لها قيمة غالية عند أهل الصحراء .

ولهذا جعلوا علمهم هنا بلون أخضر حتى يقولوا بأن الخضرة تعبر عن الإسلام، وهذا يدل على مدى حبهم للخضرة، لقد عشقوا الخضرة منذ زمن بعيد .

لا يمكن أن أبقى هنا لفترة أطول، كان السيد/ تشان يريد أن يهرب من هنا .

وأخيرا اقترب وقت الرحيل إلى عرفات . . .

الباب الرابع

الوقوف على عرفات/ العيد الكبير

مئتا ألف حاج

إلى جبل عرفات

قررنا أن نغادر المكان في الساعة الثالثة بعد الظهر، لكن الساعة الآن تجاوزت الخامسة، والليل على وشك أن يخيم علينا، في حين السيارة لم تأت بعد، بدأت أناقش العجوز في هذا الأمر، وأتعارك معه.

وكان عبد الله المسؤول عن التعاقد مع السيارات قد ذهب، لهذا لم يكن أمامنا من مفر سوى الاعتماد على هذا العجوز، لكن يظهر أنه لا يمكن أن نثق به، بدأت أشعر بالضيق والضجر تدريجياً، وكنت كلما سألته غاضباً عن السيارة أجاب: الله يعلم كل شيء.

أعتقد أنه لم يعد هناك في مكة سوانا، وإذا أردنا أن نستأجر جملاً، فلن نجد، وحتى لو وجدنا، فلا يمكن أن نصل في الوقت المحدد.

جلسنا ثلاثتنا بملابس الإحرام في الغرفة المظلمة دون أن ننطق بكلمة، ربما انتابنا شعور باليأس والإحباط.

وفي نحو الساعة الثانية عشرة من منتصف الليل، الساعة الخامسة بالتوقيت العربي، سمعنا صوت رجل يهرول، ويقول:

السيارة وصلت.. السيارة وصلت!

وفجأة دبت فينا الحركة، وشعرنا بنشاط مفاجئ، فقذفنا بأنفسنا داخل السيارة، وبدأنا الاتجاه إلى عرفات.

هذا هو اليوم الثامن من شهر ذي الحجة، علينا أن نسير عبر الطريق المظلم بسرعة كبيرة، توقفت السيارة أمام قصر الملك ابن سعود، للرد على بعض الأسئلة عند نقطة تفتيش، ثم تحركت ثانية، وأمكنني أن أرى من الناحية الشمالية " جبل حراء "[١] تنعكس صورته في ضوء القمر، والمسلمون جميعاً يتذكرون علاقة النبي ﷺ بغار حراء في هذا الجبل.

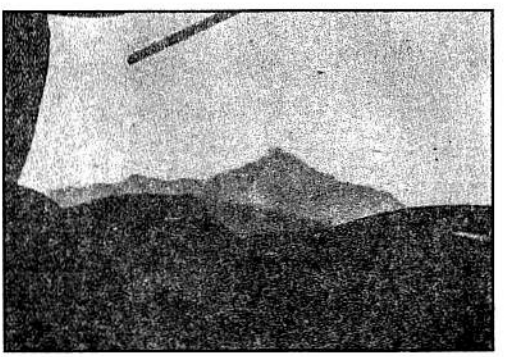

من السيارة لجبل حراء (جبل النور)

لقد واجه النبي محمد ﷺ مصاعب جمة منذ مولده، فقد ولد يتيماً، إذ مات أبوه عبد الله قبل مولده، وماتت أمه حين كان في السادسة من عمره، فكفله عمه أبو طالب، بعد وفاة جده عبد المطلب، وهكذا لم يتعرض لليتم فقط، بل تعرض للفقر أيضاً.

وكان منذ حداثته يشك في عبادة الأصنام، وغيرها من العبادات التي انتشرت في مكة آنذاك، وبعد فترة عمل بالتجارة لدى السيدة خديجة، وكانت أرملة جميلة طيبة، وكان محمد رجلاً أميناً مخلصاً، فازدهرت تجارتها التي كان يقوم بها بين مكة

(١) جبل حراء: جبل صخري كثير الشعاب صعب المرتقى، يقع في الشمال الشرقي لمكة المكرمة، واشتهر هذا الجبل بوجود غار الذي يُعرف باسمه، كما يطلق عليه " جبل النور " ؛ لأنه مهبط الوحي الأول على رسول ﷺ.

والشام، وجعلته أسفاره يفكر أكثر وأكثر في حال البشر، بعد أن شاهد أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والصابئة وغيرهم[١]، وظل الشك يراوده في كل لحظة تجاه عبدة الأوثان وغيرهم من أصحاب الديانات الأخرى، ولم يصل إلى قرار يتعلق بالدين الصحيح، ولم يصل إلى الحقيقة التي يقتنع بها عقله، ويطمئن إليها فؤاده.

كان مجتهداً، وكانت له مواهب تجارية، وكان أميناً، فاعتمدت عليه السيدة خديجة، ووثقت به، وفي النهاية تزوجته، وبزواجه منها تمكن الرسول ﷺ من الحياة في جو عائلي دافئ، وفي الوقت نفسه صار ينتسب إلى أسرة من أغنى الأسر في مكة المكرمة، فتخلص من الحياة الصعبة، من جهة، وتحققت له السعادة العائلية من جهة أخرى، وتحقق له بذلك الاطمئنان والرضا، لكنه ظل في الوقت نفسه يفكر ويفكر، محاولاً الوصول إلى إجابة عن التساؤل الذي يقلقه فيما يتعلق بالدين، وكانت الأفكار قد بدأت تلح عليه أكثر فأكثر، وفي النهاية قرر الذهاب إلى غار حراء للتهجد هناك، فلعله يجد إجابة شافية عن التساؤلات التي تقلقه، وظل يتهجد هناك لمدة شهر، وذات يوم جاءه ملك وأقرأه القرآن، عندئذٍ امتلأ فؤاده بنور الإسلام، ولهذا فغار حراء يعد بمنزلة المكان الذي ولد فيه نور الإسلام[٢] ومن هنا كانت له مكانة في نفوس المسلمين.

أمكننا أن نرى وادي منى على الجانب الأيسر؛ وذلك بعد خمس عشرة دقيقة، واستمرت السيارة تمضي بنا، وشاهدنا مجاري مياه في الوادي، ولا تزال هناك ينابيع تضح الماء.

---

(١) تذكر كتب السير أن الرسول ﷺ شاهد في رحلته الأولى إلى الشام مع عمه أبي طالب الراهب (بحيرا) وفي رحلته الثانية شاهد الراهب (نسطورا)، ولذلك فقول المؤلف أن الرسول ﷺ شاهد أهل الديانات الأخرى من اليهود والنصارى والصابئة وغيرهم فيه مبالغة (المترجم).

(٢) استخدم المؤلف التعبير "أم الإسلام".

بعد وفاة النبي ﷺ بمئتي عام تقريباً أمرت زبيدة زوج[١] هارون الرشيد بشق نهر يمتد نحو خمسة آلاف متر إلى منى، ويقال إنه في مؤتمر مكة الذي عقد في ١٢٩٨هـ/ ٢٢ ديسمبر ١٨٨٠م وافقت الحكومة على فكرة نوري باشا، ومدوا نهر زبيدة حتى تصل مياهه إلى مكة، ونجحوا في ذلك فوصلت المياه من منى إلى مكة المكرمة، وهي مياه لا يمكن لأهل مكة أن ينسوا فائدتها بالنسبة إليهم[٢].

سوف نصل بعد ذلك إلى المزدلفة، بدأ الطريق يهبط بنا أكثر فأكثر، وبدت الرمال من تحتنا أكثر عمقاً؛ مما زاد من صعوبة قيادة السيارة، التي أخذت عجلاتها تغرز في الرمال، وغاصت العجلات أكثر من مرة، ولم نستطع التحرك إلى الأمام أو إلى الخلف.

قطعنا المسافة من المزدلفة إلى عرفات، نحو خمسة عشر كيلاً، وبعد هذه الأوقات العصيبة تمكنا من مشاهدة أضواء كثيرة تراءت لنا من بعيد على جبل عرفات، كان قد مضى على مغادرتنا مكة ما يقرب من ثلاث ساعات، حين تمكنا من الوصول إلى مدينة الخيام، لكننا لم نجد خيمتنا.

على مساحة عدة كيلومترات تمكنوا من "بناء" مدينة خيام في ظرف ليلة واحدة، ولهذا لا توجد علامات إرشادية.

---

(١) ذكر المؤلف "أم هارون الرشيد" والصحيح ما أثبتناه، أي زوجة هارون الرشيد، وأم الأمين، وكان الخليفة المنصور العباسي يناديها بزبيدة، واسمها الأصلي أمة العزيز، تزوجت هارون الرشيد سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م، وتوفيت سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م في حين توفي والدها جعفر سنة ١٨٢هـ/ ٧٩٧م.

(٢) نهر زبيدة، ويطلق عليه أيضاً عين زبيدة، وقد ذكر المؤرخون أن السيدة زبيدة أنفقت على عمل عين حنين وعين وادي نعمان نحو ألف وسبعمئة مثقال من الذهب وهو ما يعادل مليون وسبعمئة ألف دينار ذهبي، ويقال إن الإمام مالك أشار عليها بإجراء هذا النهر، من عين حنين ثم جرت إصلاحات كثيرة في هذه العيون في سنين مختلفة من قبل العباسيين وبعض أمراء المسلمين، وقد ذكرها مؤرخو مكة.

وقد اعتنى الملك عبد العزيز رحمه الله بهذه العيون، ورعى اللجنة المكلفة بذلك.

انظر أخبار مكة الجزء الثاني ص٣٢٧، ٣٢٨ وانظر أخبار لجنة عين زبيدة في صحيفة أم القرى أعداد متفرقة طوال السنوات المعنية هنا.

المؤلف أمام الخيمة المقامة في عرفات

تحركنا بالسيارة من خيمة إلى أخرى، كنا أحياناً نخبط جملاً، وأحياناً نغرز في الرمال، وأحياناً نحطم بعض أجزاء خيمة، وكان يحدث نزاع وتعارك أحياناً، حتى وصلنا إلى خيمتنا، استغرق منا ذلك ساعة، وكانت الشمس على وشك أن تشرق.

لم يسمحوا أبداً ببناء بيت في عرفات، ولماذا يبنون بيوتاً لتستخدم ليوم واحد في السنة فقط؟! لهذا تقام خيام صحراوية خاصة بذلك، وتضم مدينة الخيام هذه مئة وخمسين ألف حاج، وتحيطها المرتفعات، وهي مدينة ضخمة جداً.

وهنا أيضاً يمكن أن نرى التجار الذين يمارسون نشاطهم مع الحجاج طوال الليل.

في مكة كانوا يعاملوننا بوصفنا ضيوفاً كباراً، لكن في عرفات غير مسموح لنا بأن نكون كذلك، في مثل هذه الخيمة الجميلة الواسعة عدد كبير من الناس، من مختلف الأجناس، يقيمون معاً، وبمجرد وصولنا إلى الخيمة، توضأنا وشاركنا من وصلوا قبلنا في تلاوة القرآن الكريم، وخلال هذا الوقت أشرقت الشمس على جبل عرفات.

خطبة عرفات

شروق الشمس الجميل يعني بالضرورة بداية مشقة النهار، لكن جمال الشروق هذا أفضل بكثير من غروب الشمس.

غابت النجوم واحدة تلو الأخرى، ويمكن أن نشاهد لون السماء يتغير، ويتحول إلى زرقة قاتمة، ثم إلى لون الحليب، ثم يتحول في النهاية إلى لون وردي يميل إلى الحمرة، وسوف يظل لون سماء جزيرة العرب يتغير، بعد أن ذهب جو الليل تماماً.

كان جبل عرفات يعج بالحجيج..

حين بدأ الرسول ﷺ بنشر الإسلام الدين العظيم، أراد في الوقت نفسه أن يقضي على عبادة الأصنام، أو الشرك بالله، ويقضي على تعدد الآلهة، واضطر إلى الهجرة إلى يثرب أي المدينة المنورة، وهناك التف حوله أناس كثيرون، آمنوا برسالته، وبعد فترة عاد إلى مكة منتصراً، فحطم الأصنام، وأزال من الكعبة ما يقرب من ثلاثمئة وستين صنماً، وحوّل الكعبة إلى حرم آمن للمسلمين.

بعد أن طهر الكعبة من الأوثان، وجعل الحرم آمناً للمسلمين، علّمهم شعائر الحج والوقوف بعرفة.

وفي عرفات ألقى خطبة في المسلمين، خطبة توضح أنه كان داعية من الطراز الأول وكان في الوقت نفسه سياسياً عظيماً، كانت الجزيرة العربية في ذلك الوقت مملوءة بالصراعات القبلية، فكان القتال بين القبائل لا يفتأ ينشب في كل حين، وكانت عمليات السلب والإغارة مستمرة، ناهيك عن الأخذ بالثأر، وظهر النبي محمد ﷺ بالدين الجديد الذي بعثه به الله للناس كافة، فنجح في أن يحكم هذه البلاد، فقد كان سياسياً عظيماً، وكان مرسلاً من عند الله، وأنا أؤمن تماماً بذلك.

ولما كان محمد ﷺ رسولاً ونبياً، جاء بالدين الحق، ولماَّ كان سياسياً عظيماً، تمكن من توحيد القبائل العربية تحت قوة الإيمان، وحين اجتمعت هذه القبائل في موسم الحج في عرفات، خطب فيهم النبي خطبته الشهيرة في حجة الوداع، وتمكن بدون أسلحة ومعدات، وبدون عساكر وقوات، من توحيد جزيرة العرب، حيث أصبح الإسلام ديناً عظيماً، انتشر في ربوع الجزيرة العربية، وشكل أمة مؤمنة.

والحج من فرائض الإسلام، ورد ذكره في القرآن، ولا يزال هذا الفرض قائماً، يتوق إلى أدائه خمسمئة مليون مسلم، ينتشرون حول العالم، يؤمنون بأن الحج أسعد فريضة، وأشرف فريضة يمكن أن يسعى المسلم إلى أدائها، وهكذا كان لجبل عرفات أهميته في قلوب المسلمين، ومن هنا ظهرت بعض الأقاويل ترى بأنه أصل البشرية، فقد التقى فيه آدم وحواء، ويطلق على "ايفا" في العربية حواء.

ويعتقد بعضهم أنها كانت تعيش في مكة، في حين كان آدم يعيش في جدة، ثم التقيا على جبل عرفات، وأكلا من الشجرة المحرمة، وبعدها رجعا إلى مكة، وهناك عاشا حياتهما[1].

ولهذا فإن عرفات يعني أصل المخلوقات، ولا شك أنه مكان مهم جداً في الإسلام لا أحد ينكر ذلك.

بعد أن ارتقت الشمس في السماء، اشتدت حرارتها أكثر فأكثر، وظهر الناس الذين صعدوا قمم المرتفعات على جبل عرفات كالنمل الأبيض، وكنا نحن أيضاً ضمن هذا النمل، حاولنا أن نصعد جبل الرحمة وسط هذا الزحام الشديد.. ففي

(١) هذه أقاويل لا تستند إلى دليل، والأكل من الشجرة المحرمة كان في الجنة قبل أن يهبط آدم وحواء عليهما السلام إلى الأرض (المترجم).

أعلى قمة جبل الرحمة يوجد المكان الذي وقف فيه محمد ﷺ ليلقي خطبة حجة الوداع[١]، وهم يقولون أيضاً - والله أعلم - إن آدم وحواء التقيا عند هذا المكان.

شعرت بعمق التاريخ، وعشت في جو مملوء بعبق التاريخ.

ومن أعلى جبل الرحمة كنت أشاهد جميع الخيام المترامية أمامي، منظر غير معقول، لا يمكن أن تصدقه عيناي، ماذا أقول، وكيف أصف ما أرى، أختصر الحديث:

"أزهار بيضاء في حقل واسع.."

على قمة جبل الرحمة آلاف الحجاج، وعند أقدام الجبل تراصت الخيام، وامتدت عبر الوادي.. كانت الخيام مختلفة الأحجام، ما بين كبيرة وصغيرة، وأشكالها متنوعة، وفي أعلى كل خيمة راية، علامة لكل جماعة من الحجيج.

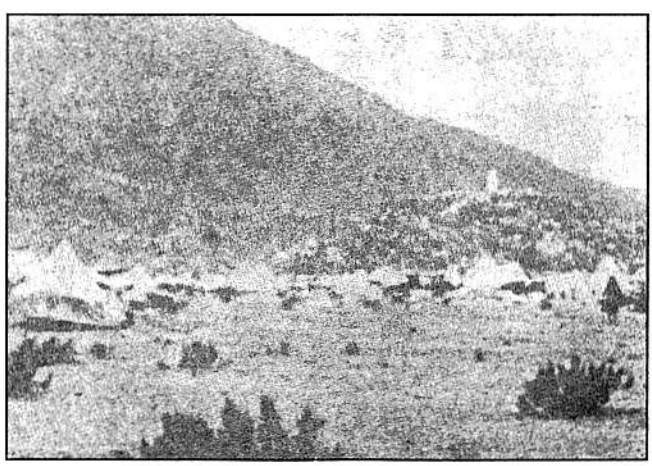

منظر في عرفات

(١) الذي ورد في الحديث أن الرسول ﷺ خطب يوم عرفة في بطن الوادي ثم وقف عند الصخرات وجعل حَبْلَ المشاة بين يديه واستقبل القبلة. ولم يرد أن الرسول ﷺ صعد جبل عرفات، وليس لهذا الجبل ميزة تخصه عن سائر مواقع عرفات فلا يشرع صعوده، وإن كان الحجاج يتزاحمون عليه، لكن هذا كله بدون دليل (المترجم).

خيام في خيام على مرمى البصر، ما يقرب من خمسين ألف خيمة، هذا المنظر لا يمكن أن تعبر عنه الكلمات، ولا يمكنني أن أشاهد مثل هذا المنظر في أي مكان، من العالم وفي أي وقت ،إلا في هذا المكان، وفي هذا الوقت.

اليوم هو أشد الأيام حرارة، لم أشهد مثل هذه الحرارة الشديدة منذ أن وصلت إلى المملكة العربية السعودية، وأنقل هنا جملة من كتاب الأستاذ تناكا حين قدم للحج في سنة ١٣ تايشو[١] وهو مسلم ياباني كتب عن يوم عرفة:

"الخيام الصغيرة تجنبنا ضوء الشمس المباشر فقط، لكنها لا تمنع عنا الحرارة المحرقة، مات واحد من جماعتنا في منى، وهنا مات اثنان أيضاً، ومات اليوم في أماكن متفرقة نحو ألف حاج، ويمكن أن أشاهد جثث الموتى ملقاة هنا وهناك[٢]، أما حجاج الصين وهم ثمانية وتسعون حاجاً فقد مات منهم تسعة وعشرون، وبقي معي في الخيمة، من جماعتنا ثلاثة من سبعة".

كان الأستاذ تناكا قد جاء للحج ووقف في عرفات في شهر يوليو، أشد شهور السنة حرارة، وأنا أيضاً أعاني من الشيء نفسه، فالجو صار أكثر حرارة، ورغم هذا فالحجاج الذين يبلغ عددهم ما يقرب من مئة وخمسين ألفاً متحمسون إلى درجة كبيرة، حتى إن بعضهم فقد وعيه بسبب الحرارة، وصار بعضهم كالمجاذيب أو من فقد عقله، وقد شاهدت بالفعل بعض هؤلاء الناس.

ورغم حرارة الجو الشديد، فإن المسلمين الحجاج هنا على درجة كبيرة من

---

(١) سنة ١٣ تايشو يقابلها ١٣٥٦ هـ/ ١٩٣٨م.

(٢) هذا إن كان قد وقع في ذلك الوقت فنتيجة لتزاحم الحجاج وقلة الإمكانات ونقص الخدمات نتيجة حداثة الدولة، لكن الذي ينبغي أن يذكر أن الأمر قد تغير كثيراً عما عايشه ورآه المؤلف في وقته بعد الخدمات والرعاية الكبيرة التي تقدم للحجاج (المترجم).

الإيمان بالله والثقة بالله، ولهذا فلا يمكن أن ينهزموا أو يتقهقروا عن أداء هذه الفريضة، رغم حرارة الجو المحرقة.

وجدت في خيمتنا رجلاً جن جنونه، توقف بؤبؤ عينيه عن الحركة، وظل يصيح ويهتف دون توقف: الله.. الله.. الله.. الله... وفجأة تفجرت الدموع من عينيه، فأخذ يجري ويدور داخل الخيمة، كان يقرأ القرآن الكريم منذ ليلة أمس، ولم ينم لحظة واحدة، وفي العاشرة صباحاً جاءته هذه الحالة الهستيرية، واضطرب رفاقه كثيراً، لا يدرون ماذا يفعلون، حاولوا أن يمسكوا به، فألقوا عليه بطانية، وغطوه، وحاولوا أن يمنعوه من الحركة، وبالتدريج هدأ الرجل، ثم جلس متربعاً مغطى بالبطانية، وهو يردد: الله.. الله.. الله.. الله..

كما رأيت رجلاً عجوزاً يجلس فوق صخرة على ركبتيه، في مواجهة أشعة الشمس في انتظار أن يموت على هذا الوضع، وهذه رغبته فهو يريد أن يلقى وجه ربه في عرفات، فهذا موت مشرف[١].

اقتربت الساعة من الثالثة، ووصلت الإثارة لدى الناس إلى ذروتها، ووصل الحماس إلى مداه.

شاهدت حرس الملك ابن سعود في زي الإحرام، فوق جمال بيض، تجمعوا في الجانب الشرقي من عرفات، كان شعر رؤوسهم الطويل يتحرك في الهواء بفعل حركتهم فوق الجمال، وكان الملك ابن سعود في مقدمتهم متوجها إلى المسجد للصلاة، حيث سيلقي الإمام خطبة عرفات، تمكنت من مشاهدة العلم السعودي بلونه الأخضر، وقد رسم عليه بخيوط منسوجة سيفين[٢].

---

(١) لا يجوز في الإسلام أن يعرّض المسلم نفسه للموت (المترجم).

(٢) العلم السعودي أخضر ومكتوب في وسطه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وتحته سيف.

حرس الملك ابن سعود

بدأت الخطبة واستمرت لفترة طويلة أحسبها ثلاث ساعات ونصف، ومن وقت العصر إلى المغرب يجب أن يخرج الحجاج جميعا من خيامهم للدعاء.

لم نتمكن من سماع الخطبة جيدا من خيمتنا، ومن لم يتمكن من الوقوف بعرفة اليوم فلا حج له، وعلى المسلم أن يحج مرة في حياته، واليوم هو يوم عرفة، والحج عرفة..

كان جميع من بعرفات، كبيرهم وصغيرهم، العجوز والشاب، الرجال والنساء، في غاية التأثر، الذي يصل إلى حد البكاء..

وخلال فترة الثلاث ساعات ونصف الساعة غمّ على كثير من الناس، وفقد كثير من الناس وعيهم، ومات آخرون، من ذا الذي يصدق مثل هذا المنظر في عالمنا الذي تسوده الحضارة المادية، هذا هو العالم الروحاني الذي لا يفهمه هؤلاء أصحاب الحضارة المادية، هذا هو عالم الإيمان العميق الراسخ القوي.

قبل غروب الشمس بالضبط بدأت جماعة من الجنود السعوديين التحرك، الآن انتهينا من الوقوف بعرفة[١]، كنت أخاف الموت، كان الخوف يملأ قلبي فعلاً، فكم من الناس ماتوا بجواري خلال ثلاث ساعات ونصف، كنت أسمع صوت ارتطام أجسامهم بالأرض، كلما كنت أسمع هذا الصوت المكتوم داخل الرمال، كان جسمي يقشعر، وكنت أشعر بالأذى، وكأن شخصاً وخزني بإبرة في قلبي.

حتى حين كنت أقف أتوجه بالدعاء إلى الله، كانت روحي تصارع الموت، فكنت أحدث نفسي:

أليس لديك قوة إيمانية كافية؟ أليس لديك إيمان قوي؟

لم أتمكن من تجنب الشعور بالخوف من الموت، والواقع أنني شاهدت كثيراً من الناس يموتون أمامي، إنه قدرهم ونصيبهم!!

لقد عشت سنوات عديدة في غابات بلدان جنوبي شرقي آسيا، تعرضت حياتي خلالها لمخاطر كثيرة ومصاعب لا تطاق، لكني لم أشعر أبداً بالخوف الذي ينتابني الآن.

انتهت أصعب المراحل..

وبعدها علينا أن نتحرك إلى مزدلفة، وفي نصف ساعة سيتم رفع كل هذه الخيام ونبدأ التحرك..

مزدلفة

من السهل على العربي الذي اعتاد حياة الصحراء أن ينصب الخيمة، ويدق أوتادها ويربط أطنابها بسرعة كبيرة، ثم يقلعها ويحملها ثانية، ويمضي بالسرعة

(١) لا يجوز الانصراف من عرفه قبل غروب الشمس (المترجم).

نفسها، كان الأمر بالنسبة إليهم سهلاً جداً على ما أعتقد، ففي فترة قصيرة ينصبون الخيام، وفي فترة قصيرة يقلعونها، والآن انتهوا من مهمة قلع الخيام كلها في عرفات، ولا أشاهد أمامي غير الصحراء تترامى أمام عيني.

بدأ مئة وخمسون ألف حاج تقريباً التحرك إلى مزدلفة، المكان التالي لعرفات، وشكّل هؤلاء صفاً طويلاً، يتكون ممن يمشون على الأقدام، وممن يركبون السيارات، ومن قوافل الجمال وغيرها، ويمضي "هذا الطابور" في الصحراء المظلمة، التي تمزق ظلامها أضواء بعض المصابيح، وكشافات السيارات، منظر غير عادي، كأنه عرض من العروض غير المألوفة المتسمة بالأبهة والفخامة.

كلما ذهبت من عرفة إلى مزدلفة، تعرضت لمشكلة تتعلق بوسيلة الركوب، في أول مرة جئت للحج، شاركت الحجاج السوريين إحدى السيارات، كانت مثل "اللوري" الذي جهزوه بأرائك خشبية، فجلسنا عليها، وفي الطريق تعطل محرك السيارة فجأة، فتوقفنا في الصحراء مدة ساعتين، وفي النهاية انتقلنا إلى سيارة أخرى، كان يرافقني آنذاك السيد/ ياماموتو والسيد/ كؤوري والسيد/ هوسوكاوا[1].

إلى أن جاءت السيارة البديلة تعرضنا لحالة نفسية سيئة، وغلبت علينا مشاعر الحزن، فالتحرك إلى مزدلفة يتطلب عادة الإسراع، لكننا لم نتمكن من الوصول بسرعة بسبب العطل الذي أصاب محرك السيارة، فرقدنا فوق الرمال، وأخذنا نشاهد النجوم تتلألأ من فوقنا، لا يمكن أن أنسى جمال تلك النجوم في ذلك الوقت

(١) لم نتمكن من الحصول على معلومات عن الثلاثة ياماموتو، وهوسوكاوا وكؤوري، ولعلهم من العاملين جميعاً في المكتب العسكري الياباني ومن المتخصصين في اللغات والترجمة، وكانوا في الغالب يقضون معظم حياتهم في مهمات خارج اليابان.

من تلك الليلة، ورغم أننا كنا في مشكلة، إلا أننا سمعنا السيد كؤوري يدندن بأبيات من قصائد الشيجين Shigin القديمة[١] فكان صوته وهو يدندن بتلك الأشعار يبعث على الراحة والهدوء.

وفي المرة الثانية، أي في السنة الماضية، حدثت لي مشكلة أيضاً في هذه المرحلة، فلم تأت السيارة التي ستنقلنا من عرفة إلى مزدلفة، كانت جميع الخيام قد اختفت تماماً من وادي عرفة، ذهب الجميع ولم يبقَ غيرنا وسط الصحراء الفسيحة، عندها اضطررنا إلى ركوب الشغدف.

طلبنا تعويضاً عما حدث من الوكالة التي اتفقنا معها على السيارة، ولا بد أن أشير هنا إلى أنني كنت أتوقع ما حدث، لأن أكثر من مئة وخمسين ألف حاج يتحركون في وقت واحد، وفي اتجاه واحد، إلى مكان واحد، وما هو متوافر من سيارات يصل عدده إلى ألف سيارة فقط، فتوقع حدوث خطأ ما محتمل بنسبة كبيرة، وأعرف أنني لا يمكن أن أفعل شيئاً بنفسي في مثل هذه الظروف، لكننا دفعنا مبلغاً كبيراً في التعاقد مع السيارة، ففكرت أن أطلب تعويضاً عما حدث، ولكنا اضطررنا في النهاية إلى ركوب الشغدف، وبدأنا التحرك ونحن في غاية الغضب، ولكن بعد أن تحرك بنا الجمل، ونظراً للتعب الشديد في الليلة السابقة نمت نوماً عميقاً على ظهر الجمل، وفجأة شعرت بأنني أسقط على الأرض من فوق الجمل، فقد انحل حبل الشغدف.. وأصبت في رأسي، وتورّم رأسي، لكن ماذا عساي أن أقول للجمل!! عندنا مثل يقول: المصائب تجرهن المصائب[٢].

---

(١) قصائد الشيجين بحيم قاهرية Shigin نمط من القصائد الصينية تعتمد أشعارها على جرس موسيقي هادئ حزين، ونغمات طويلة.

(٢) في الأصل: النحلة تلدغ من يبكي.

وهذه المرة كنت قلقاً ومتخوفاً من تكرار ما حدث لي في المرتين السابقتين، لكن السيارة جاءت في الموعد هذه المرة، ومضينا بسهولة شديدة حتى هذه اللحظة، ولكن كان هناك منخفض رملي عميق بين عرفة ومزدلفة، فغاصت فيه عجلات السيارة أكثر من مرة وكان علينا سحبها، ووصلنا مزدلفة بعد ساعة ونصف.

لا يسمح بالبناء أو حتى نصب الخيام في مزدلفة، فرشنا "بطانية" على الرمال وتمددنا فوقها.

تختلف مدة البقاء في مزدلفة نظراً لاختلاف آراء الفقهاء المسلمين، وقد سمعت من رجل عجوز أن المذهب المالكي يقول بالبقاء نصف ساعة، في حين الشافعي يكتفي بالمرور فقط، ويرى أصحاب المذهب الحنفي البقاء حتى الفجر، أما الحنبلي فهو مثل المالكي نصف ساعة[1] وفصل الشيخ العجوز الحديث عن هذا الأمر.

لكني أعتقد أن الحج موجود قبل ظهور هذه المذاهب، وأعتقد أنه لا يوجد اختلاف فيما يتعلق بأوقات البقاء في مزدلفة، وربما أوجد الفقهاء والعلماء المسلمون هذا الأمر، بالنسبة إلي ليست هذه طريقة صحيحة، على كل حال يجب أن نصلي الفجر ثم نرحل، يجب أن نبقى هنا جزءاً من الليل، وسوف نستريح في هذه الفترة، وهذا يكفي لنتخلص من تعب اليوم وسط هذا الجو البارد، حين كنت أنظر إلى السماء، وأنا أرقد على ظهري فوق الرمال، كنت أشعر بأن قلبي يتطهر.

أخذت أتعجب لأن العرب لديهم معلومات صحيحة ومؤكدة عن النجوم وعلم الفلك، وعموماً لا يهتم الناس بالنجوم وعلم الفلك؛ لأن هذا لا يؤثر مباشرة في حياتهم اليومية، لكن بالنسبة إلى من يعيش في الصحراء، فإن أهمية معرفة

---

(١) انظر كتاب الحج للدكتور صالح الفوزان ص٣٠ ط جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وقد ذكر ابن قدامة في المغني المجلد الخامس أن الشافعي قال يمكن الدفع بعد منتصف الليل ومالك قال: إن مر بها ولم ينزل فعليه دم فإن نزل فلا دم عليه متى ما شاء دفع.
للمزيد من التفصيل انظر المصدر المذكور المجلد الخامس ص٢٨٢ - ٢٨٤ ط٢ دار هجر القاهرة ١٤١٢هـ.

النجوم وعلم الفلك ضرورة قصوى، فهم حين يسافرون وسط الصحراء، كأنهم يسافرون في خضم بحر واسع، وعندئذ لا يمكنهم الاعتماد إلا على النجوم فقط تهديهم إلى حيث يذهبون، كما أن النجوم تجعل المسافر في الصحراء يشعر بالراحة والاسترخاء، وهكذا لا يمكن لأهل الصحراء أن يهملوا النجوم ومواقع النجوم، فهي دائماً راسخة في أذهانهم، كما أن من يسافرون ضمن القوافل التي تمضي عادة في الصحراء، يتوارثون معرفة النجوم وحكاياتها وأساطيرها أباً عن جد، فيتعلمون تحديد الاتجاهات عن طريق مواقع النجوم في السماء، وبالنسبة إليهم يتساوى علم الفلك ومعرفة النجوم مع تعلم القرآن الكريم وحفظه[1].

أجمع الآن في كنف الليل الجمرات السبع لرمي إبليس (جمرة العقبة) في منى، وجميع الحجاج يفعلون الشيء نفسه.

وادي منى

بالأمس بدأنا التحرك من عرفات بعد غروب الشمس، ولكن التحرك من مزدلفة يبدأ بعد الفجر، انتهينا من نصف واجباتنا تقريباً، وانتهت نصف متاعبنا، وانتهت أصعب مرحلة.

حتى الأمس كان معظم الحجاج مصابين بالتعب والإرهاق، وكانت أعصابهم مشدودة، لكن يبدو أن النشاط عاد إليهم اليوم، وبدا على وجوههم نوع من الراحة والسكينة، والشكر والامتنان، نتيجة إحساسهم بأنهم أدوا مهمة عظيمة، فمعظم الناس قضوا جل حياتهم يفكرون في هذه اللحظات، كانوا يعملون بجد، ويوفرون النقود من أجل هذا اليوم، والآن حققوا رغبتهم التي ظلت تراودهم طيلة السنين

(١) لعل في هذا مبالغة. وإلا فلا شيء يعدل تعلم القرآن وحفظه (المترجم).

الماضية، ويمكنني أن أتخيل ما هم فيه الآن من سعادة غامرة، وما في قلوبهم من سرور وغبطة، فمنذ أيام قلائل كانوا يبكون؛ لأنهم وصلوا إلى الأماكن المقدسة، وانتقلوا بين هذه الأماكن، وهم الآن يبكون فرحاً؛ لأنهم أتموا تقريباً مناسك الحج، وقد سيطرت عليهم مشاعر السعادة الغامرة، وربما يفكرون الآن في آبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم وزوجاتهم وأولادهم وأقاربهم وأصدقائهم، وبالطبع لا يريدون أن يصابوا بمكروه هنا أو أن يلقوا حتفهم.

وبالطبع إذا ماتوا أثناء أداء مناسك الحج، فهذا شرف وعزة، ولكن بالنسبة إليهم أيضاً فعودتهم إلى بلادهم تعني السعادة لهم ولذويهم أيضاً، وهذا ما يقوله المثل الياباني الذي يعني "ذهب فاجتهد فعاد بعد أن حقق النصر الكبير"[١] سوف يرحب الناس بالعائد من الحج، بكونه مسلماً جليلاً، وتعجبت هل توجد هناك سعادة أكثر من تلك التي تتحقق لهؤلاء الحجاج بعد عودتهم؟!

منظر وادي منى

(١) في الأصل ذكر المؤلف المثل الياباني الذي يعني أن الشخص عاد إلى موطنه في ملابس قشيبة، أي أنه ذهب واجتهد ونجح فعاد إنساناً آخر مختلفاً عما كان.

في جو من المشاعر الطيبة، والسعادة استمر تدفق جموع الحجاج إلى منى، زحام شديد جداً، وصلنا إلى مكان الإقامة في منى، من المستحيل بالطبع أن يتوافر لجميع الحجاج في وقت واحد مبان يقيمون فيها داخل منى، فمن غير الممكن أن تستوعب المباني القليلة هنا مئة ألف في وقت واحد، ولهذا تقام الخيام بين تلال منى وبين هضابها، ومنى منطقة ضيقة، ويحاول كل شخص أن ينصب خيمته، ولهذا كان الزحام على أشده، ولم تكن صفوف الحجيج تتحرك بسهولة.

تقع منطقة منى بين جبلين بارتفاع نحو مئة متر تقريباً وعرضها خمسمئة متر، ويوجد طريق واحد في واد بين الجبلين، وعلى الطريق بنيت بعض البيوت، التي لا يقيم فيها الناس عادةً، وقد سُمح لنا بالإقامة في إحداها لمدة ثلاثة أيام بعد وقفة عرفات.

كانت جدران البيت من الطين، وأرضيته أيضاً كانت من الطين المدعم بأعمدة خشبية غير سميكة، والبيت يبدو متهالكاً جداً، إذا تحرك فيه الناس في الطابق الثاني أو الثالث حركة عنيفة، انهار وسقط على من فيه، وفكرت في أن هذا البيت مناسب جداً لإعادة الفتاة اليابانية المسترجلة إلى طبيعتها الأنثوية الهادئة!! هذه الفكرة وردت إلى ذهني، وظلت تراودني لفترة[1]..

كانت حجرتنا تطل على الشارع من الطابق الثاني، وكان صاحب البيت فخوراً بهذه الحجرة، ومع ذلك فقد قال لنا محذراً:

انتبهوا هذا البيت أخطر قليلاً من بيوت مكة.

---

(١) يقصد بذلك أن الفتاة المسترجلة ستجبر على أن تمشي بهدوء ورقة، فتتأصل فيها هذه العادة رغماً عنها؛ لأنها لو تحركت بقوة فسيسقط البيت عليهم.

وحذرنا بشدة ولهذا يجب أن نتصرف ونتحرك داخل البيت مثل فتاة رقيقة هادئة، يجب أن ننتبه إلى حركاتنا، لتكون هادئة، ولكن في تلك الليلة وفي حين كنا نغط في النوم، وبالضبط في منتصف الليل، استيقظت على صوت غريب تحت البطانية التي فرشتها على أرضية الغرفة. .

كنت لا أزال أشعر بالنعاس، لم أدرك جيداً كنه هذا الصوت، وفجأة قفزت من مكاني، فقد اكتشفت فجوة تحت البطانية، ومن هذه الفجوة كانت الرمال تتساقط بسرعة، والسقف يكاد ينهار من تحتي، وكنت على وشك السقوط من الطابق الثاني، وكان فضلاً من الله أن استيقضت قبل وقوع المأساة بلحظات. . . ربما لا يصدق أحد ما حدث، لكنها الحقيقة. .

استيقظ الناس من حولنا، وأخذوا يتصايحون ويصرخون. .

جمرة العقبة

يوجد عمود يطلق عليه جمرة العقبة، ويوجد العمود في ثلاثة مواضع تبعد عن بعضها بمقدار مئة متر تقريباً، وهذا العمود يواجه الطريق الذي يمر بوسط منى، ويسمى عمود الشيطان، بعد أن وصلنا إلى منى في اليوم الأول، رمينا الجمرات السبع التي أخذناها من مزدلفة عند هذا الشيطان (جمرة العقبة) وهو الأقرب من ناحية مكة، ويسمى هذا "رجم إبليس" وهو رمز للتخلص من الشيطان.

ترجع حكاية جمرة العقبة إلى سيدنا إبراهيم ففي الثامن من شهر ذي الحجة في سنة من السنوات، رأى في منامه رؤيا، يأمره فيها الله بأن يذبح ولده إسماعيل، فتردد في تنفيذ هذا الأمر، لكنه رأى الرؤيا نفسها في الليلة التالية، وعندئذ قرر أن

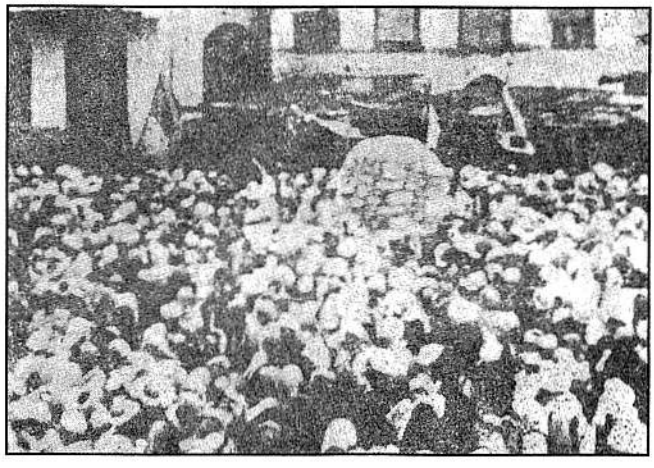

رمي الجمرات في منى

يطيع أمر الله، وكان على وشك أن يذبح ابنه، لكن إبليس ظهر له في هيئة رجل عجوز حكيم، أخذ ينصحه ويقنعه بأن يعصي أمر الله، عندئذ جاءه جبريل بكبش، وطلب منه أن يذبحه بدلاً من إسماعيل، وهكذا ذبح إبراهيم عليه السلام الكبش، وأنقذ حياة ابنه إسماعيل.

وصار رمي إبليس بالجمرات، طبقاً لهذه القصة[١]، عملاً يرمز إلى رمي الشيطان، وصار هذا من شعائر الحج، التي يجب أن يؤديها حجاج بيت الله.

---

(١) خلط المؤلف هنا بين قصتين وقعتا لإبراهيم عليه السلام قصة ذبح ابنه اسماعيل عليه السلام، وقصة رمي الجمرات، وتتلخص قصة رمي الجمرات كالآتي [عن ابن عباس رضي الله عنهما قال جاء جبريل عليه السلام إلى إبراهيم عليه السلام ليريه المناسك قال: فلما ذهب به انفرج بثير (جبل) فدخله فأتى عرفات فقال له أعرفت؟ قال نعم. قال ثم أتى جمعًا فجمع به بين الصلاتين قال فمن هناك سميت جمعًا. ثم أتى به منى فعرض له الشيطان عند الجمرة الأولى فقال له جبريل ـ عليه الصلاة والسلام ـ خذ سبع حصيات فارمه به وكبر مع كل حصاة ففعل ذلك، فساخ الشيطان، ثم عرض له عند الجمرة الثانية فقال له خذ سبع حصيات فارمه وكبر مع كل حصاة ففعل، فساخ الشيطان، فعرض له عند جمرة العقبة فأمره بمثل ذلك ففعل فساخ الشيطان، ثم لم يزل يعرض له] انظر أخبار مكة للفاكهي ٤/ ٢٨٤ رقم ٢٦٣١ وقال المحقق [اسناده حسن بالمتابعة ورواه أحمد ١/ ٣٠٦ـ٣٠٧ باسناد صحيح إلى ابن عباس مرفوعاً] (المترجم).

يسمى اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية، ويسمى اليوم التاسع من ذي الحجة بيوم عرفات، ويسمى اليوم العاشر يوم النحر.

وقد ذكر أحد الباحثين المسلمين أن مكان إبليس هذا صنم حقيقي، وأريد أن أشرح هذا الأمر بوصفي أحد الحجاج فعمود الشيطان هذا عبارة عن قوالب حجرية مرصوصة بعضها فوق بعض، وهي مطلية بلون أبيض، ونحن بوصفنا مسلمين أو مؤمنين بالله الواحد لا نصدق بأن هذا صنم حقيقي، ولا نلقي بالجمرات على هذا الصنم، بل نفعل الشيء نفسه الذي فعله إبراهيم عليه السلام، حين كان يرجم الشيطان، وهذا رمز، ورمز مهم بالنسبة إلينا، ولا يفكر المسلم أبداً بأن هذا العمود هو صنم لإبليس.

طواف الإفاضة

بعد رمي جمرة العقبة، وجب علينا أن نحلق، وهناك اختلافات بسيطة بين الفقهاء، لكنها لم تعد كبيرة هذه الأيام.

كان طريق منى مزدحماً للغاية، توقفت سيارتنا أكثر من مرة، نظراً لشدة الزحام، لا يمكننا أن نتحرك إلى الأمام، واجهنا مشكلة، فجاء إلينا أحد رجال الشرطة السعوديين، وأفسح الطريق من أمامنا، تعجبت لماذا يساعدنا نحن بالذات، ونحن فقط؟!

تمكنا من المضي بسهولة؛ لأن رجال الشرطة أفسحوا لنا الطريق، و كان أحدهم قد جاء لمصافحتنا قائلاً:

نحن نتولى حراستك بأوامر من معالي وزير المالية الشيخ عبدالله بن سليمان.

عندئذٍ زال عني العجب، ووجدت إجابة عن تساؤلي السابق.

ساعدنا الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية، حين جئنا للحج في المرتين السابقتين، وقد عاملونا بطريقة طيبة للغاية، انطلقت سيارتنا إلى مكة، كان السيد/ تشان يتمتع بصحة طيبة، كنت قلقاً عليه، وكان معنا العجوز صاحب الفندق في ذلك اليوم الذي وصلنا فيه إلى الحرم المكي.

علينا أن نطوف حول الكعبة ونسعى، وهذا الطواف يجب أن يقوم به الحجاج اليوم، ولكن بعض الناس يمكنهم القيام به عند مغادرتهم مكة، لكن المسلم المتمسك بأداء الفرائض جيداً، يجب أن يقوم به الآن.

حين كنت أقوم بهذا الطواف في حجي الأول عام ١٣٥٤هـ/ ١٩٣٥م حدثت واقعة تاريخية هنا، وهي أخطر واقعة في الجزيرة العربية، هكذا قالت الصحف، شاهدت الملك ابن سعود وهو يتعرض للاغتيال، لا يمكن أن أنسى هذا أبداً، ولحسن الحظ، وبفضل من الله، فشلت محاولة الاغتيال، لكن هذا الحدث أوضح للناس أن هناك من يتأبط شراً، ويتربص الدوائر بأمن جزيرة العرب واستقرار الوضع فيها، كما أوضح للناس أن هناك من لديه نوايا مغرضة تجاه الجزيرة العربية.

شاهدت الملك الشجاع ابن سعود، ويمكن أن نستشف تاريخ حياته من خلال ملامحه ومظهره، بما في ذلك سلوكه غير العادي، وثباته، ودرايته، وطريقة تصرفه في مثل هذا الموقف الحرج، لا أحد ينكر - بعد مشاهدة هذا الحدث - أنه بطل الجزيرة العربية، شاهدت بأم رأسي، ورأيت بكل وضوح كيف تصرف في ذلك الوقت، وشاهدت كل ما حدث من البداية حتى النهاية.. إنني أبجله كثيراً، وأكنّ له كل الاحترام، من أعماق قلبي.

فشل محاولة اغتيال الملك ابن سعود

كان ذلك في الخامس عشر من مارس من السنة العاشرة شوا[١] المكان الحرم المكي الشريف، كان الملك ابن سعود يطوف حول الكعبة المشرفة، جئت للحج أول مرة، وفي مثل هذا اليوم انتهينا من رجم إبليس، وجئت هنا لطواف الإفاضة.

في ذلك اليوم وفي الساعة العاشرة صباحاً جئنا للطواف بمكة المكرمة، وفي ذلك الوقت جاء الملك ابن سعود مع خمسين من حرسه الخاص، ليطوف حول الكعبة، وكان الملك وحرسه في ملابس الإحرام أيضاً، وكان عدد قليل من الحرس يمسكون ببنادقهم، وفي حين كان الملك ابن سعود يطوف، طُلب من بقية الحجاج أن يفسحوا الطريق للملك حتى ينتهي من الطواف.

كان الملك يقرأ القرآن الكريم ويتوجه بالدعاء إلى الله، وكذلك كان الحرس المرافق له، وانتهى الملك من الشوط الرابع في الطواف، وفي وسط الشوط الخامس، وفجأة اندفع خمسة رجال، خرجوا من بين الناس، وكان بيد كل واحد منهم خنجر، فهجموا على الملك..

ظننت أنه قتل، لكن الشجاعة تحمي الإنسان دائماً[٢]..

كان مشهداً من مسرحية، استغرق لحظات..

أطلقوا النار على ثلاثة من المهاجمين، وقبضوا على واحد منهم، حدث كل هذا بسرعة عجيبة، عند سماع صوت أعيرة الرصاص تنطلق من البنادق قال الملك:

---

(١) يقصد ١٥ مارس من السنة العاشرة شوا، أي عام ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٥م.

(٢) لو قال حفظ الله سبحانه وتعالى ثم الشجاعة (المترجم).

لا تقتل . . لا تقتل . . اقبض عليه .

لا أزال أتذكر صوت الملك وهو يردد : لا تقتل . . لا تقتل اقبض عليه

بعد الانتهاء من تلك المشكلة ، ساد الهدوء الحرم مرة أخرى ، كما لو لم يكن قد حدث أي شيء من قبل ، وتابع الملك ابن سعود طوافه حتى النهاية !

آه ! هذا الجسم القوي الفارع ، الذي يزيد طوله عن مئة وثمانين سنتيمتراً ، وذلك التصرف في مثل تلك الظروف ، ثم تصرف الملك بعد انتهاء الحادثة ، والهدوء العجيب الذي غطى قسمات وجهه ، والسماحة التي كانت تشع من عينيه . . . كل هذا جعلني أتعجب كثيراً ، وجعلني أبجله كثيراً ، وأحترمه كثيراً ، شعرت بأنه فعلاً هو الرجل الذي قهر أشد الصعاب ، فوحد هذه البلاد الصحراوية الصعبة ، أشعر الآن ، وسيلازمني هذا الشعور في كل مكان ، بعظمة هذا الملك ابن سعود .

ورغم أن تلك الحادثة انتهت بالفشل السريع ، إلا أن هذه الحادثة لها خلفية تاريخية مهمة ومعقدة ، ويجب أن نفكر أن ما حدث كان شهادة على لؤم الحكومة البريطانية وخبثها ، وإثباتاً لمحاولتها التدخل في شؤون جزيرة العرب .

تعاملت صحف مكة مع هذا الحدث بحذر شديد ، كأنهم يتعاملون مع قضية حساسة للغاية ، وإذا ما فكرنا من منظور العلاقات الدولية في تلك الأيام فإن هذه الحادثة أمر حساس للغاية .

كان المجرم اليمني الذي تم القبض عليه يدير مخبزاً في جدة ، كان المجرمون قد هاجروا من اليمن ، وينتمي ثلاثة منهم إلى قبيلته ، فإذا فكرنا بطريقة سطحية ، اعتقدنا أن ما حدث إنما كان بسبب مشاعر عدائية يمنية تجاه الملك ابن سعود ، وهذا التفسير شيء طبيعي بالنسبة إلى من يعرف التاريخ العربي بشكل جيد ، وخصوصاً

أنه في سنة ١٣٤٩هـ/ ١٩٣٠م حدث نزاع بين المملكة العربية السعودية واليمن بالقرب من منطقة عسير، واشتبك الجنود السعوديون مع الجنود اليمنيين، ودخلوا ميناء الحديدة، وحدثت اضطرابات في صنعاء العاصمة اليمنية، مما حدا بالإمام يحيى إلى طلب عقد محادثات مع الملك ابن سعود، فعقدت محادثات في سنة ١٣٥٠هـ/ ١٩٣١م، تم فيها توقيع اتفاقية بين المملكة العربية السعودية واليمن.

ويبدو أن الصراع التقليدي بين البلدين قد انتهى تماماً، وأن العلاقات بينهم الآن هي علاقات ود وسلام، هذا ما يبدو على السطح، ولكن لا يزال هناك نوع من الشعور العدائي كامن في القاع، ومن هنا ظن معظم الناس أن واقعة الاعتداء على الملك ابن سعود حدثت بسبب ما شرحته قبلاً، لكن هذه الحادثة ليست بالحادثة البسيطة، تحدث هكذا لمجرد شعور عدائي قديم. وقد حذرت صحف مكة: صحيفة أم القرى، وصحيفة صوت الحجاز أيضاً، من أن هناك أيدي خفية وراء محاولة الاعتداء على الملك، وذكرت الصحف أن بلداً ما وراء هذه المحاولة، وهنا يجب أن نفكر في هذا (البلد الـ ما) الذي لديه اهتمامات بهذه المنطقة.

في المؤتمر الديني الذي تحضره وفود العالم الإسلامي، ويعقد في مكة المكرمة بمناسبة موسم الحج، كان الموضوع الرئيس الذي يطغى على كل موضوع هو " بريطانيا " تحاول اغتيال الملك ابن سعود، أعلنت الوفود المجتمعة ذلك بكل وضوح، والمسلمون عادة لديهم شعور عدائي ضد بريطانيا، وكانت هذه الحادثة، كمن سكب الزيت على النار، فزاد العداء لبريطانيا أكثر فأكثر، وازدادت مشاعر الكراهية الشديدة تجاهها، قال بعض المسلمين: إن تاريخ دول الشرق الأوسط كتب بمداد السيطرة البريطانية والاستعمار البريطاني، وبالطبع لا يمكن القول بصحة كل ما قيل، لكن هناك شيء صحيح فيما قيل.

أكتب الآن هذه المذكرات عن الحج، وقد رسمت للقارئ صورة واضحة لما رأيته أيام الحج، وكتبت كل شيء بدقة وأمانة، ولا أجد ضرورة هنا للكتابة عن تاريخ بريطانيا الاستعماري ضد المسلمين، ولا ما حدث من محاولة للاعتداء على الملك ابن سعود، رغم أن ما حدث للملك ابن سعود ليس شيئاً عادياً لبلدان الشرق الأوسط، ولكني أريد أن أذكر الخلاصة:

لماذا نلقي بمسؤولية محاولة قتل الملك ابن سعود على بريطانيا؟[١]

الإجابة سهلة وهي أن قوة الملك ابن سعود تزداد وتزداد ـ ومكانته في العالم تتأكد يوماً بعد يوم، وهذا يمنع بريطانيا من إحكام سيطرتها على بلدان الشرق الأوسط، والملك ابن سعود الآن لديه قوة أكبر وأعظم، ولديه عقيدة، ولديه إيمان عظيم، بالإضافة إلى روحه القوية؛ مما يعطي القوة لشعوب آسيا، كما أنه يرفض أن يخضع لأحد مهما كان غير الله، ويرفض أن يكون عبداً لأحد غير الله، ولا يريد أن يكون مثل قطعة "شطرنج" على صفحة التاريخ، وهذا يعنى أنه يخيب آمال بريطانيا الرامية إلى السيطرة والاستعمار.

فكان ما حدث هو آخر حل يمكن لبريطانيا أن تتوصل إليه..!

ولم يكن أمام بريطانيا غير هذا..!

---

(١) من الملاحظ أن كراهية المؤلف لبريطانيا جعلته يصدر حكماً في قضية الهجوم على الملك عبدالعزيز، وتفسيره هذا نابع من إحساسه الداخلي ومن مشاعر العداء تجاه بريطانيا في ذلك الوقت نتيجة للظروف الدولية، والمؤلف لم يخف كراهيته لبريطانيا التي كانت تساعد الصين في حربها مع اليابان، وقد صرح بذلك حين كتب (ص٧٥ الباب الأولَ من هذا الكتاب)... فبريطانيا تساعد الصين، شعرت بعداء أشد تجاه بريطانيا أكثر من عدائي للصين؛ لأن البريطانيون يتحكمون في الصين، ويحاولون الاستفادة من صغائر الأمور...) وتتضح حالته النفسية أكثر حين يكتب (ص٧٥ الفقرة الثانية) شاركني السيد تشان هذه المشاعر أيضاً، فقد واجهنا فيما بعد بعض المشكلات لسبب ما قام به هذا البريطاني.

والسؤال الثاني : لماذا استخدمت بريطانيا اليمنيين؟

وبريطانيا في العادة مغتالة خبيثة، انتهزت بريطانيا فرصة تأزم العلاقات بين ابن سعود واليمن لتضمن نجاح عملية الاغتيال، عن طريق استخدام اليمنيين الذين يحملون عقلية عدائية، فهذه أفضل وسيلة!! وعندئذٍ تكون النتيجة تعليق التهمة في رقبة اليمن لا بريطانيا نفسها، وهذا أمر طبيعي في السياسة البريطانية.

لقد خُطط لما حدث بطريقة مدروسة، ومحكمة، ومتقنة، لكن مثل هذه الخطة الخبيثة التي أُحكمت، تفشل أحياناً، وتسقط كما تتساقط المياه من بين أصابع اليد، فحرس الملك ابن سعود أمسكوا بأحد الجناة، واعترف الرجل بكل شيء.

ولا يمكن أن أكتب بوضوح عن خطة بريطانيا إذا ما نجح الاغتيال، لماذا؟

هناك شك في أن بريطانيا لديها أتباع من بعض أقارب الملك ابن سعود، وبريطانيا تريدهم أن يتولوا الحكم، وبريطانيا تعرف هذا، لا أريد أن أقول إن هناك أناساً من أسرة ابن سعود يعارضونه؛ لأنني أكنُّ للملك احتراماً كبيراً، وأبجله، ولا أتخيل أن يوجد من بين أسرته من يعارضه.

وهذه الخطة التي دبرتها بريطانيا تعني التخلص من الملك الذي لا يحقق أطماع بريطانيا، ولا يكون مفيداً لها، ثم وضع شخص يمكن لبريطانيا أن تتحكم فيّه، وبريطانيا لا تتورع عن ارتكاب أي مسلك، ولو كان مشينا في سبيل تحقيق أطماعها، والنتيجة أو المحصلة النهائية التي لا يمكن أن أمنع نفسي من التصريح بها، نتيجة سعيدة وهي :

١ - فشل محاولة الاغتيال.

٢ - ضعف نفوذ بريطانيا.

ليس هذا فقط، بل إن جميع الحجاج، الرجال والنساء، الشيوخ والشباب، عرفوا الحقيقة، فزاد شعورهم العدائي تجاه بريطانيا كثيراً، وقرروا أن يحاربوا بريطانيا بكل ما لديهم.

وسوف يخبر الحجاج الذين قدموا من جميع أنحاء العالم، بعد عودتهم، الناس في بلادهم، بما فعلته بريطانيا، ولم يعد الأمر بالبساطة التي ظنها بعضهم، بل صار مسألة كبرى.

٣ - زادت شهرة الملك ابن سعود كثيراً وعلا صيته، وهذه حقيقة واقعة، فقد أبرز شجاعة فائقة، شهد بها جميع الحجاج في ذلك الوقت، وأعجب شعب المملكة العربية السعودية بما أبداه ملكهم من شجاعة منقطعة النظير، وتدفقوا إليه يهنئونه بنجاته من هذا العدوان الغادر، وزاد شعورهم العدائي تجاه بريطانيا، وفي الوقت نفسه زاد ولاؤهم للملك أكثر فأكثر.

هجوم الناموس

أريد أن أضيف شيئاً آخر عن مشاعري في الطواف، وأسترجع هنا ما حدث حين جئت للحج في المرة الثانية، فبعد أن وصلنا من منى إلى مكة، كان علينا أن نتوضأ قبل الطواف، فذهبنا إلى الفندق، لكن العجوز صاحب الفندق فقد المفتاح الرئيس، فلم نستطع الدخول، وفي الوقت نفسه كانت السيارة التي أقلتنا من منى إلى باب الفندق قد عادت إلى منى، ولهذا لم يكن أمامنا من وسيلة سوى الانتظار خارج فندق الرجل العجوز ليلة كاملة.

أخذنا نلوم العجوز بسبب إهماله، لكن قلقه على المفتاح كان أكثر من قلقه علينا، مما زاد من غضبنا، ولكن "ما باليد حيلة" فبعد أن أصابنا اليأس قررنا أن نبقى في حديقة، إذ كنا نحتاج إلى الوضوء قبل الذهاب للطواف.

سيصل المفتاح في الصباح، ثم نكمل طوافنا، ونرجع ثانية إلى منى.

في تلك الليلة تعرضنا لهجوم جماعات من الناموس، لم أتعرض من قبل لمثل هذا الهجوم الشديد.

كان معظم أهل مكة خارج المدينة مع الحجاج في منى، ولهذا فربما جاء إلينا جميع ناموس مكة ليهاجمنا، وكنت أحاول صد هذا الهجوم الشرس، فأغطي جسمي من رأسي إلى قدمي، لكن الحرارة الشديدة، كانت تضطرني إلى التململ أحياناً، فإذا انكشف موضع صغير من جسمي، اتجه إليه الناموس، فكنا نصيح ونصرخ في الناموس حتى يبتعد!!

ولما فشلنا في كل حيلة، وأدركنا أنه لا يوجد لدينا وسيلة، قررنا الانسحاب من المنطقة، وأن نتمشى هنا وهناك، بدلاً من الجلوس أو الرقود، لكن الناموس تبعنا، فهرولنا، فطار من خلفنا، فجرينا، فأسرع الناموس يلاحقنا، واستمر هذا الصراع حتى شروق الشمس..

كنا نتصبب عرقاً، لم نتمكن من النوم طوال الليل، كما لم نتمكن من قتل ناموسة واحدة، فهذا غير مسموح[1]، كنا في خوف شديد من الناموس، ولهذا كنا ننسحب من أمامه.. هذا ما حدث في السنة الماضية.

واليوم يجب أن أُذكر العجوز حتى لا ينسى المفتاح...

---

(١) ظاهرة كثرة الناموس في مكة غير موجودة حالياً، أما حكم قتل الناموس في مكة وعلى المحرم فقد أشرنا من قبل أنه لا حرج في ذلك شرعًا (المترجم).

إلى منى من جديد

تمكنا من الوضوء في الفندق، ثم قمنا بالطواف، والسعي، وبعدها شعرنا بالإرهاق الشديد: نفسياً وجسدياً، وبدا السيد/ تشان متعباً جداً، وخلدنا للنوم مثل الموتى.

في صباح اليوم التالي تحللنا من الإحرام، وغيرنا ملابسنا، وارتدينا زياً نجدياً، وأخذت أنظر إلى المرآة، وأتفحص هيئتي، يبدو أنني مثل أهل نجد، بعد أن لبست هذا الزي، وبعد أن قضيت هنا شهراً، ظهر شعر شاربي وظهرت لحيتي، وأصبح رأسي الحليق نحاسي اللون، بدا شكلي مثل بدو أهل نجد تماماً.

الزحام في منى ١

بعد أن شربنا حليب الماعز في الفطور، رجعنا إلى منى بالسيارة، كان من الصعب أن نشاهد هناك حاجاً بملابس الإحرام، فقد تحلل الحجاج من إحرامهم، ولبس كل منهم ملابسه الوطنية، فاختلف منظر منى اليوم عما كان عليه بالأمس،

كما لو كانت الأزهار البيضاء قد تفتحت مرة واحدة، فحتى يوم أمس كان اللون الأبيض يغطي المكان كله، ولم يكن هناك سوى اللون الأسود لبعض النساء النجديات مع لون الصحراء الأصفر، لم أشاهد أي لون آخر حتى الأمس، والآن أشعر بأهمية الألوان بالنسبة إلى حياة الإنسان اليومية.

لم يكن من المسموح أن نرى وجه المرأة، شعرت بأننا في المقابر بعيداً عن الحياة الطبيعية، وربما هناك خطأ ما أو نقص ما، ثم الآن أشعر بأهمية الألوان، إذا لم توجد الألوان في حياة الإنسان، تصبح الحياة خالية من السرور. . لقد قضيت هنا شهراً في عالم بلا ألوان، وكلما توافر لدي الوقت للتفكير، كنت أحاول أن أتخيل مناظر الطبيعة في اليابان، وكنت أتمتع بهذا الخيال، فهذا هو الشيء الوحيد المسموح لي أن أتخيله، وأشعر بالراحة نتيجة هذا الخيال. .

هونج كونج كانت جميلة، وسنغافورة كانت ملونة، وكذلك جزر إندونيسيا، أفكر في تلك الأماكن الآن، كانت عالماً جميلاً جداً، ورغم هذا فالأمر بالنسبة إلي مختلف، فلا يوجد مكان آوي إليه، وأشعر بجماله غير اليابان، وإنما أسترجع جمال منطقة جنوبي شرقي آسيا، وجمال البلدان الأجنبية الأخرى، وأشعر بهذا الجمال؛ لأنني هنا بعيد عن الخضرة، ونحن أحياناً نفكر في الجمال الجغرافي، ونفكر في جمال المناظر، لكن هذا لا قيمة له إذا ما قارناه بجمال الألوان، ونحن الآن نشعر بالجوع، وبالظمأ للألوان [1].

(١) تحتل الألوان في حياة اليابانيين مكانة عظيمة، ومن هنا برعوا في فن تنسيق الزهور، واختيار الألوان للملابس، ووضع المزيد من أنواع الأطعمة مختلفة الألوان على المائدة، بالإضافة إلى الطبيعة وما فيها من ألوان مختلفة، وكان طبيعياً أن يفتقد المؤلف هذا الشيء وسط الصحراء.

لماذا أنا مغرم بالمناظر الطبيعية اليابانية، وجو اليابان الفاتن؟! لماذا أفتقد اليابان؟ ولماذا أشعر دائماً بالحنين إليها، شعور كان يحز قلبي في كل حين؟ وفي الوقت نفسه أفكر فِي جمال المرأة اليابانية، والكيمونو الياباني الجميل[١] هل هذا الشعور ناتج من شعور آخر وهو أنني مُبعد تماماً عن الألوان؛ مما زاد من تفكيري في هذه الأمور.

إن جمال الكيمونو الياباني الرائع، الممزوج بجمال الطبيعة اليابانية، يجعلني أشعر بالغربة الشديدة، وأحن كثيراً إلى موطني، والآن وفي حين أكتب هذه السطور أشعر بالأسى والحزن؛ لأن أزياء المرأة اليابانية أصبحت شبيهة بالأزياء الغربية هذه الأيام!!

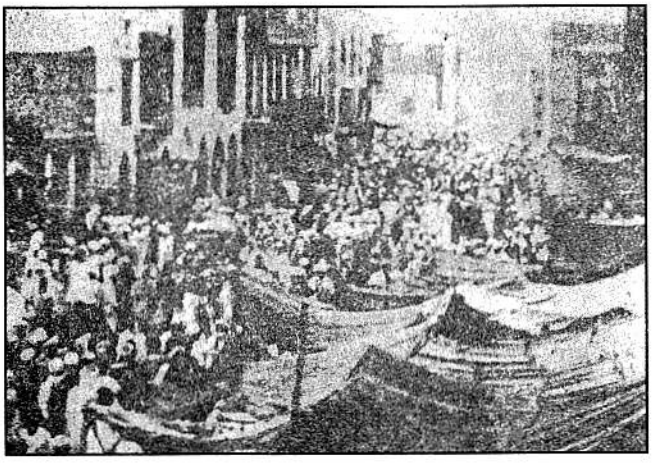

الزحام في منى ٢

في حين كنا في مكة، ولنصف يوم فقط، صارت منى مكاناً مختلفاً عما كانت عليه من قبل، انتشرت محلات صغيرة على جانبي الطريق، وانشغل الناس بالبيع

(١) الكيمونو هو الزي التقليدي للمرأة اليابانية، ويكلف كثيراً من الأموال، وله ألوان خاصة جذابة، ولم تعد المرأة اليابانية تهتم بارتداء الكيمونو هذه الأيام، وقد تأسف المؤلف أيضاً؛ لأنه في زمانه شعر بأن المرأة اليابانية بدأت تهمل هذا الزي الياباني التقليدي وتقلد المرأة الغربية.

والشراء، بدا الهدوء واضحاً على جميع الوجوه، فقد أدى الحجاج واجبهم العظيم، الشيء الوحيد الذي لم يتغير هنا هو حرارة الشمس المحرقة . . والغبار الشديد نتيجة زحام الناس على الطريق .

ذبح الهدي

كتبت قبلاً عن قصة الهدي . . يقع المكان الذي يتم فيه ذبح الهدي في نهاية منى، بالقرب من مكان الجمرات، نصبوا خيمة، وبداخلها "مسطبة عالية" مثل خشبة المسرح، أقاموها من الأحجار الجبلية، وفوقها يقومون بذبح الهدي .

حين انتهينا من الطواف، وعدنا إلى منى، كان التاريخ الهجري هو العاشر من ذي الحجة وهو يوم النحر ، أخذ الناس يأتون إلينا يقولون : يا حاج يا حاج، فكل من أدى شعائر الحج ينال هذا اللقب العظيم، الذي يذكر قبل اسمه، وارتسمت السعادة على وجوه الجميع ؛ لأنهم كانوا يحلمون بالحصول على مثل هذا اللقب، ويعني لقب "حاج" أن صاحبه أدى مناسك الحج، فإذا قلنا لشخص الحاج فلان، فهذا يعنى أنه أدى فريضة الحج، وهذا اللقب له مكانته بين المسلمين، وهو لقب رفيع، يزيد صاحبه شرفاً وعزة، واحتراماً بين إخوانه من المسلمين الذين يبجلون كل من أدى فريضة الحج الصعبة، وهذا أمر طبيعي . .

حين دخلنا الغرفة ونزعنا "المشلح" وجففنا عرقنا المتصبب، أرانا عبدالله وجهه بعد غياب طويل، أسرع إلينا، وصافحنا، وهنأنا بإتمام شعائر الحج .

نظرت إلى عبد الله، يبدو أنه فقد كثيراً من وزنه خلال الأيام الثلاثة الماضية، وبدا نحيفاً جداً، ومتعباً ومرهقاً للغاية .

يتولى والده أمرنا، ولهذا لا يجب على عبد الله أن يضيع وقته معنا، فقد كان عليه أن يتولى رعاية عدد كبير من الحجاج الآخرين، وكان مشغولاً بهم على الدوام، وإذا اقتصر عمله على الاهتمام بالحجاج الرسميين الذين قدموا برعاية الحكومة السعودية، فإنه لن يتعب كثيراً، لكن كسب معيشة حياة سنة كاملة يعتمد على جهده وسعيه في هذه الأيام القليلة، وإذا اشتكى أي حاج، فهذا يعنى انخفاض مكاسبه في العام التالي!!

إن أسلوب تعامله وطريقته مع الحجاج تؤثر سلباً أو إيجاباً على مكاسبه المادية لأن الفندق (أي البيت المخصص لسكن الحجاج) لا يحدد التكاليف اليومية، لكن يعتمد على ما يدفعه الحجاج من تلقاء أنفسهم، قال عبد الله:

اليوم يوم النحر، يوم الهدي، بماذا ستضحون؟.. خروف أم بقرة أم جمل..؟

فأجبته:

على رسلك، لكن يجب ألا تشعر بالحرج، واختر ما يليق بنا كحجاج يابانيين.

صارت هذه الجملة الأخيرة لازمة في كلامي، لا بد أن أرددها دائماً إذا ما طلب مني شيئاً.

فأجاب:

الخروف مناسب، عليك أن تدفع جنيهاً ذهبياً للفرد.

فأعطيته جنيهين ذهبيين، فقال عبد الله:

سوف أتولى الذبح نيابة عنكما .

خرج عبد الله ، وحين اختفى عن الأنظار ، قدم أحد الحجاج من جزر إندونيسيا ، يقيم بجوارنا وخاطبني قائلاً :

دفعتم جنيهاً ذهبياً لكل فرد ، لكن ثمن الخروف أقل من نصف جنيه ، لقد دفعت جنيهاً للفرد ، هذا كثير جداً!

بدا الرجل كما لو كان متعاطفاً معنا ؛ لأننا من وجهة نظره خدعنا ، فقلت له :

" القربان " يعني أنني أقدم هذا الشيء من كل قلبي ، لا أفكر في ثمن الخروف ، ولم أفكر أبداً بهذه الطريقة .

لكن الرجل قاطعني قائلاً :

أنا أعرف الحقيقة ، فقد ذهبت لأعرف الثمن وعدت من فوري .

فقلت له :

من أين عدت؟

فقال :

ذهبت إلى مكان النحر ، واشترى رفاقي الخراف من الراعي مباشرة ، وذهبنا إلى مكان النحر ، وطلبنا تقديم " القربان " كلف ذلك أقل بكثير مما دفعتم . .

قال ذلك بفخر شديد ، فالحجاج الأندونيسيون يعانون كثيراً ، ويقاسون أكثر منا ، ورغم محدودية دخلهم ، إلا أنهم كانوا يحصلون على معونات من الحكومة الهولندية ، ولكن المسلمين منهم عليهم أن يوفروا من قوتهم وكسبهم ، ما

يمكّنهم من المجيء للحج، وقد يستغرق ذلك عشرين أو ثلاثين سنة، ولهذا فإذا فكرت فيما ينفقه هؤلاء في موسم الحج، فهو يعني بالنسبة إليهم قطرات من الدماء التي تجري في عروقهم، ولهذا يجب أن يفكروا جيداً حتى فيما يتعلق بثمن الخروف، ولا يمكن أن نلومهم أبداً، وهذا أمر طبيعي، كما أن لديهم أيضاً معلومات أكثر عن الأضحية والقربان.

ويصل ثمن الخروف الواحد إلى نحو أربعين ريالاً، وسعر الجملة لدى الراعي خمسة وثلاثون ريالاً، أما فرو الخروف بعد ذبحه وسلخه فيقدم إلى الجزار، الذي يأخذه بدلاً عن عمله[1]، وإذا تم الاتفاق مباشرة مع الرعاة فيمكن الحصول على الخروف بثمن أقل مما ذكرنا.

لم تكن هذه أول مرة أضحي فيها، ولهذا فأنا أعرف ما قاله الرجل، وقد دفعت عمداً جنيهاً للفرد، وكنت أود أن أستمع إلى نصيحة جاري الإندونيسي فقط، لقد سافرت إلى بلاد متعددة، في فترات متعددة، وحين أفكر في البلاد التي زرتها أشعر أن جزيرة العرب هي أكثر البلاد معاناة من الناحية الاقتصادية، نظراً لافتقارها إلى مصادر الثروة الطبيعية، ومن هنا فمن واجب الناس الذين يعيشون في بلدان تكثر فيها الثروات الطبيعية أن يشعروا بالامتنان لله، وأن يشكروا الله الذي منحهم هذه الثروة الطبيعية. . وأنا الآن في هذه الصحراء الجرداء، ولهذا أشعر بخلل في توزيع الثروة في الكرة الأرضية، لكن لا يمكن أن أشكو هذا الأمر لله خالق الكون، فبعض الناس الذين يفتقدون الثروة الطبيعية في الوقت نفسه يمتلكون سعادة روحانية، من

(١) لا يجوز اعطاء الجزار شيئاً من الهدي على أنه أجرة له، لحديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «أمرني رسول الله ﷺ أن أقوم على بُدْنه، وأن أقسم جلودها وجلالها وألا أعطي الجازر منها شيئاً وقال: «نحن نعطيه من عندنا» الكافي لابن قدامه، جـ١، ص٤٧٤ (المترجم).

خلال الدين الذي وهبهم إياه الله، ومن قدموا هنا ممن يمتلكون الثروة الطبيعية سعياً إلى الحصول على السعادة الروحانية، عليهم إذا ما نالوا هذه السعادة، وقبل أن يغادروا هذه البلاد، أن يعترفوا بالجميل لأهل البلاد، بتقديم بعض النقود والهبات، وإذا لم نفعل ذلك نكون مثل قطاع الطرق[1] فإذا ما تبادلنا مشاعر السعادة الروحانية، ومصادر الثروة الطبيعية ومصادر الدخل، فهذا يعني توازن المصالح والمساواة.

وعلى الحجاج واجب إنقاذ أهل الجزيرة العربية من معاناتهم نظراً لنقص مصادر الثروة الطبيعية؛ وذلك عن طريق تقديم بعض ما يملكون من مصادر طبيعية وقدرات متنوعة، وهذا معناه الاعتراف بالجميل وتقديم الشكر، ومن يريد الحصول على بعض المنافع من الحج فقط، لا معنى لحجه ولا معنى لقدومه هنا.

ذهبت إلى مكان تقديم القرابين مع الرجل العجوز صاحب الفندق، وحين وصلت إلى هناك لم أتمكن من مشاهدة الذبح، ولم أتمكن من البقاء هناك، وهربت على الفور، ورغم أنني كنت وسط جمهور الناس الكبير لكن عيني لم تكن ترى سوى منظر الذبح والسلخ، والجمل، والبقرة، وأحياناً الماعز، ومنظر المذبح وهو مكتظ عن آخره بالحيوانات المذبوحة والملقاة بعضها فوق بعض. . لأن مئة وخمسين ألف حاج يريدون جميعاً أن يقدموا قرابينهم، ولهذا يجب ذبح الهدي[2].

وبالطبع يأتي بعض هذا اللحم إلينا، نتناوله في طعامنا، ويأخذ الفقراء نصيبهم منه أيضاً، ولكنهم لا يمكن أن يتعاملوا في وقت واحد مع هدي مئة وخمسين ألف

---

(١) استخدم الكاتب عبارة "لصوص الجبال".

(٢) لقد تغير الأمر عما يذكره المؤلف فأصبح للمملكة العربية السعودية مشروع الإفادة من لحوم الهدي التي تذبح في منى، ثم ترسل عن طريق البنك الإسلامي للتنمية إلى المسلمين المحتاجين في شتى أنحاء العالم، ولقد طُبق هذا المشروع منذ سنوات طويلة ولاقى نجاحًا كبيرًا (المترجم).

حاج، ولهذا فالطيور الجارحة ستأتي لتأخذ نصيبها أيضاً، فإذا رفعت نظري إلى السماء شاهدت كثيراً من الغربان تحوم وتحوم. . لا أدري من أين جاءت كل هذه الغربان؟!

انتهى هذا الحدث بتقديم الهدي. .

الباب الخامس

حماس شعوب أمة الإسلام

(اجتماع الأسود والأبيض والأصفر والأحمر)

مقابلة الملك ابن سعود

بعد الانتهاء من الطواف، والذهاب ثانية إلى منى، والانتهاء من تقديم القربان، وبعد ظهر ذلك اليوم، وصلتني دعوة من الملك ابن سعود، في اليوم الحادي عشر من ذي الحجة، كانت الشمس كالعادة ترسل أشعتها الحارقة، وكان الهواء قد هرب تماماً من المنطقة، وحتى حجرتنا كانت من الداخل كالمحرقة، فشعرت برأسي تكاد تلتهب من شدة الحرارة المحيطة بنا.

كان الوقت ظهراً، غيرنا ملابسنا، وارتدينا الزي النجدي، وانطلقنا بقيادة عبدالله ابن صاحب الفندق، إلى قصر الملك ابن سعود، ارتدى السيد/ تشان أيضاً الزي النجدي مع المشلح، وكان السيد/ تشان طويل القامة، ولهذا ناسبه الزي النجدي تماماً، نظرت إلى عبد الله فوجدته أكثر نحافة، وأكثر تعباً، شعرت بتعاطف شديد نحوه، لكن العجوز الذي لصق بنا طوال أيام الحج، "فكّ" عنا اليوم، ولم يرافقنا للحفل الذي يقيمه الملك عادة كل عام لاستقبال وفود الحجاج من مختلف بلاد العالم، وطلب من ولده أن يرافقنا، ليس هذه المرة فقط، لكنه فعل معي ذلك حين جئت للحج في المرة الأولى، وفي المرة الثانية أيضاً. . وليس يوم لقاء الملك فقط، ولكن كلما كنا نلتقي بأحد المسؤولين الكبار في الحكومة لقاء رسمياً كان العجوز يترك عبد الله يرافقنا. . !!

لم يكن باستطاعتي الهروب من التفكير في مثل هذه الأمور الصغيرة خلال سفري، يجب أن تكون لدي مشاعر حساسة تجاه أي أمر حتى ولو كان صغيراً،

وخصوصاً أثناء الحج، فحينما أواجه أي مسألة صغيرة، يتحرك إحساسي بطريقة أو بأخرى، فربما نتجت من المسألة الصغيرة مسألة أكبر، فكنت مثل الغزال الذي يجري في الوادي، فهو دائماً يأخذ حذره، وهو يمضي هنا وهناك، وكنت دائماً أخاطب نفسي: ربما أنا خائف من شيء ما، وليس هذا فقط، بل لأن السفر إلى هذه المنطقة لا يتيسر لأي إنسان بسهولة، بل لأنني أيضاً أتحمل مسؤولية أخرى تجاه السيد/ تشان، كما أن هناك عيوناً خفية لبريطانيا تتابع أدائي لشعائر الحج. . لا يمكن أن أتجاهل أي مسألة حتى ولو كانت صغيرة.

وبالنسبة إلى موقف العجوز كنت أفكر في تلك العلاقة التي ربطت بينه وبين الشريف حسين الذي حكم الحجاز قبلاً، وذات يوم فهمت من خلال حديثه ما يأتي:

حين دخل ابن سعود مكة، هرب هذا العجوز إلى جدة، وبقي مع الشريف حسين، وبعدها لم يستطع الشريف حسين البقاء في جدة، وهرب وسافر بحراً، عندئذٍ اضطر العجوز إلى العودة إلى مكة، واضطر إلى البقاء في مكة في ظل حكومة ابن سعود، وهو رجل من النوع الذي يوحي لك حديثه بأنه لا يمكن أن ينسى حكم الشريف حسين للحجاز، كما أنه التقى أيضاً بلورانس، ويمكن أن أخمن بأنه كان ثرياً جداً في تلك الأيام.

سألته ذات يوم عن لورانس، وطبقاً لقصته عن لورانس، فإن ما ذكره العجوز لي يختلف تماماً عما جاء في كتاب لورانس، فإذا كانت لديه معلومات مفصلة عن لورانس، عرفها من خلال الاتصال المباشر، فهذا يعني أنه كان على علاقة حميمة بلورانس، وأنهما كانا يرتبطان معاً بعلاقات خاصة، أما العلاقة بين العجوز والشريف حسين فلا تزال آثارها باقية حتى الآن، ولهذا فهو يرسل ابنه عبد الله معنا

كلما ذهبنا للقاء أحد المسؤولين في الحكومة، هذا ما أعتقده، لكني لا أدري حقيقة الأمر والله أعلم.

وإذا ما فكرت بطريقة أخرى قلت: إن هذا العجوز بلغ أرذل العمر، فإذا ما استخدم ابنه الآن في مثل هذه اللقاءات مع المسؤولين في الحكومة السعودية، فسوف يحقق ذلك فائدة في المستقبل، وقد لاحظت أنه كلما توافرت لديه فرصة للاتصال بالمسؤولين في الحكومة، استخدم على الفور ابنه من خلال وجودنا، وإذا ما تخيلت أكثر وأكثر قلت: ربما يكون هذا العجوز مأموراً من قبل الحكومة الهولندية بمراقبتنا دائماً، فيرافقنا إذا لم يكن هناك أمر مهم، وإذا كان لدينا لقاء مهم بالمسؤولين الحكوميين، طلب من عبد الله أن يرافقنا؛ لأن عبد الله يتكلم اللغات الأجنبية.

لكن هذه الخيالات التي كانت تراودني غير مقبولة بالطبع!!

على كل حال.. غادرنا الفندق برفقة عبد الله..

كانت المدينة تعج بالناس، وكان الغبار يتصاعد من رمال الطريق تحت أقدام الناس، كما لو كان يمنعنا من تنفس الهواء.. ومن خلال الزحام الشديد، وصلنا بالقرب من المبنى الرسمي للشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية، ومن هذه النقطة تستمر المباني الحكومية، والجو هنا مختلف عن الجو داخل المدينة، وإذا ما مشينا تجاه الناحية الجنوبية، أمكننا مشاهدة قصر يتكون من طابقين مطلي باللون الأبيض، كان قصراً فخماً ضخماً، لا يمكننا أن نتخيل وجوده، إذا ما تذكرنا شكل البيوت في مكة، لم يكن القصر محاطاً بسور من الحجارة أو غير ذلك، فبدا بالنسبة إلي قصراً غير حصين.

جاء الناس للقاء الملك ابن سعود والسلام عليه، كانوا جميعاً في ملابس جميلة، وهم يمثلون مختلف بلاد العالم، كانت ملابسهم وأزياؤهم المختلفة الأشكال والألوان عجيبة جداً بالنسبة إلينا، لكن يبدو أنها غالية جداً، وتنوعت هذه الأزياء: الأزياء الإفريقية، والأزياء الهندية، والأزياء الإندونيسية، والأزياء الأفغانية وغيرها أكثر من أربعة وعشرين وفداً يمثلون أكثر من أربع وعشرين دولة!!

يقف هؤلاء الآن في أزيائهم القومية كما لو كنا في معرض للقوميات، ومعرض للأزياء أيضاً، ويمكنني أن أشاهد في اجتماع اليوم ممثلي كل عرق لا ممثلي كل بلد، ويمكن أن أرى بشرات أناس متعددة الألوان، كلما تطلعت هنا أو هناك.

حين وصلنا إلى القصر كان ممثلو وفود الدول قد سبقونا، حيث وجدنا عدداً كبيراً من الناس في المدخل الأمامي للقصر، قادني أحد الحراس إلى غرفة الانتظار، في الجانب المقابل للمدخل، وتعجبت، فقد وجدت في داخل الغرفة خيمة كبيرة، خيمة رائعة!! كان فيها نحو مئة مقعد، لا يمكن أن أتصور جمال السجادة الحمراء المفروشة على الرمال داخل هذه الخيمة، كان لون السجادة يتماشى تماماً ويتناسب مع قماش الخيمة الأخضر من فوقنا.

كان أكثر من نصف المقاعد قد شغلت، جلس عليها الضيوف في انتظار دورهم للسلام على الملك ابن سعود، بعد مدة جاء أحد الجنود يرتدي ملابس نجدية تقليدية، ويضع سيفاً طويلاً في وسطه، وخنجراً على صدره، فقدم لنا عصير الليمون، وبعدها قدم أحد الحراس في ملابس نجدية عسكرية تقليدية، وقد وضع فوق هذه الملابس معطفاً طويلاً أخضر اللون، وعلى كتفه علامات نسجت بخيوط مذهبة، فقادنا للسلام على الملك.

تطلع إلينا الناس الذين كانوا ينتظرون، فقد فكروا أن مقابلة الملك ستتم بترتيب الوصول إلى هذا المكان، لكنهم هنا عاملونا دائماً معاملة خاصة؛ لأننا لم نضطر إلى الانتظار، فنلنا شرف لقاء الملك بسرعة.

كانت مساحة الغرفة التي يقابل فيها الملك الضيوف نحو مئة "تتامي"[1] ولها مدخلان: مدخل على اليمين، وآخر على اليسار، ومن يدخل من جهة اليمين يشاهد من فوره الملك الذي يقف أمام هذا المدخل، وعندها يصافح الملك ثم يخرج من الباب الموجود جهة اليسار.

أمام المدخل وضعت أحذية الناس الذين قدموا للسلام على الملك، كما هي الحال في اليابان، يجب أن تُخلع هنا الأحذية قبل الدخول إلى الغرفة.

ويجب أن أذكر هنا أن الغرفة التي يقابل فيها الملك الضيوف، تخلو تماماً من الصور والزخارف، فالسلفيون لا يحبون الزخارف والصور، ولا يميلون إلى التبذير والترف، ولهذا لم يكن من المناسب زخرفة الغرفة هنا.

بالنسبة إلي.. هذه هي المرة الثالثة التي أقابل فيها الملك ابن سعود..

صافحني الملك وصافح السيد/ تشان، وشد على أيدينا لفترة..

الملك العظيم الذي أنجبته جزيرة العرب.. الآن يمكن أن أشعر بحرارة يد هذا الإنسان العظيم..

حين صافحته انهمرت الدموع من عيني، غلبت مشاعري علي، لم أتمالك نفسي، لم أستطع أن أدقق في وجه الملك، فقد غطت الدموع وجهي بما في ذلك عيني..

---

(١) مئة تتامي أي ما يساوي نحو ١٥٢ متراً مربعاً.

أمسك الملك يدي لفترة . .

كل ما أحسست به في أعماقي، ومن داخل قلبي هو عينا الملك، ودموعي، ومصافحته لي . .

لحظات شكلت خليطاً من المشاعر التي لا يمكن أن أصفها، ويمكن للآسيويين فهمها فقط، لحظات مملوءة بالانفعالات المتداخلة . .

سحب الملك يده بهدوء، وأمر الحارس الذي يقف بجواره بأن يبتعد قليلاً، وأوقفنا بجواره على يساره، ومن هذا المكان، وعلى هذا الوضع كنا نشاهد الضيوف الذين قدموا للسلام على الملك . .

كان هذا ترحيباً لم نتوقعه، وشرفاً لم نفكر في الحصول عليه، وهدية لم نكن نحلم بها على الإطلاق.

بعد نصف ساعة صحبنا وزير المالية الشيخ عبدالله بن سليمان إلى خارج الغرفة، وفي ذلك اليوم، وفي ذلك المكان أمكنني أن أقابل الأمير فيصل الابن الثاني للملك، وأيضاً ياسين وزير الخارجية[1].

وأذكر هنا أن الحارس الذي كان يقف في غرفة الاستقبال ، كان يرتدي زياً نجدياً عسكرياً تقليدياً، لم أرَ أي جندي يرتدي زياً شبيهاً بالزي البريطاني، الذي يرتديه الجنود الذين يحرسون المدينة.

---

(١) ذكر المؤلف أن ياسين هو وزير الخارجية، وكان يوسف ياسين يعمل مستشاراً سياسياً للملك، وقد التقى به الوفد الياباني الذي زار الرياض عام ١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م انظر الرحلة اليابانية لإيجيرو ناكانو ترجمة سارة تاكاهاشي صفحة ٨٥ من إصدارات دارة الملك عبد العزيز - الرياض ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م .

لا يمكن أن أحكم على شخصية الملك من خلال مسألة الزي هذه، فهذا خروج عن الأدب واللباقة، لكن الحقيقة أن الملك يعد من يكره الزي العربي، إنما يحتقر الروح العربية، بالطبع كان الملك يرتدي زياً عربياً، ويضع على رأسه مشلحاً من نوع خاص.

ويمكنني أن أتذكر الآن، وسأظل أتذكر على الدوام في كل وقت وفي كل مكان هذا الشعور المثير الذي شملني حين قابلت الملك، فلا أزال أشعر حتى الآن بيده تصافحني.

حين جئت للحج في المرة الأولى التقيت أيضاً بالملك، كان ذلك في اليوم التالي لمحاولة الاعتداء عليه في الحرم المكي، لكن الملك ابن سعود كان آنذاك كما هو اليوم، وكأن شيئاً لم يكن، حين رأيت هذا شعرت من أعماق قلبي بالاحترام الشديد لابن سعود، ويمكن أن أقول بكل ثقة: إن هذا الإنسان بطل منذ أن كان صغيراً، عاش حياة كلها كفاح مستمر، ونضال لم يتوقف، حتى وأنا أكتب هذه الجملة، أريد أن أتطلع إلى يدي اليمنى التي لمست يده وصافحته، لا يمكن أن أتمالك نفسي عن التفكير في تلك اللحظات، كانت يده قدر يدي مرتين، كانت آثار الكفاح والنضال وعلاماتهما، لا تزال واضحة للعيان على أصابع كفيه، وأتخيل أيضاً قامته الفارهة، أكثر من مئة وثمانين سنتيمتراً، كان عليّ أن أرفع رأسي، وأشد قامتي إلى أعلى حتى أشاهد وجهه، الذي اتسم بالهدوء والحنان. . لا أزال أتذكر جيداً ملامح وجه الملك، فبعد أن قابلته نسيت كل شيء من حولي، وامتلأ قلبي بشعور السعادة الغامرة.

الملك ابن سعود

يبلغ الملك ابن سعود من العمر ستين عاماً[1] ويمكن أن نقول: إنه الرجل الذي

(١) ولد الملك عبد العزيز في شهر ذي الحجة ١٢٩٧هـ (١٨٨٠م)

وحد الجزيرة العربية في ظل حكومة مركزية، وأسس المملكة العربية السعودية، وهو يلقى احتراماً وتبجيلاً من جميع العرب الذين يضعون ثقتهم فيه.

يقولون: إن الملك ابن سعود له شخصية تتمتع بمبادئ سامية، وتحمل بداخلها عوامل الانتصار على الأعداء، ويسميه الناس "ملك المملكة العربية السعودية" ويطلقون عليه أيضاً "البطل الذي لا يقهر" وهو ليس بطلاً عسكرياً عظيماً فقط، لكنه أيضاً سياسي بارع، أكسبته مصاعب الصحراء حنكة، وشكلت شخصيته القديرة؛ مما مكنه من توحيد مناطق صحراوية شاسعة، كان من الصعب توحيدها.

أكمل تشكيل حركة الإخوان من رجال البدو، وأسس حكماً ثابتاً راسخاً، ونجح في بناء أمة آمنة في جزيرة العرب، وهو أمر لم يتحقق منذ عصر النبي ﷺ وخلفائه الراشدين.

ولد الملك ابن سعود في عام١٢٩٧هـ في شهر نوفمبر من عام ١٨٨٠م في نجد، ووالده هو عبد الرحمن، وأمه سارة تنتمي إلى أسرة مشهورة، سموه عبدالعزيز، وأطلقوا عليه اسم "ابن سعود" نظراً لأجداده الذين أسسوا الدولة السعودية الأولى، وهكذا فاسمه الحقيقي هو عبد العزيز بن سعود.

ويد الملك عبد العزيز الضخمة التي صافحتها، تحكي عن خبرته القديمة، والصعوبات التي واجهته، وصراعه مع الموت أكثر من مرة، ونجاحه في تحقيق النصر على الأعداء، هذه اليد توضح ذلك.

تعلم الملك ابن سعود في كنف والده، الذي كان مسلماً متمسكاً بأصول العقيدة الصحيحة، وكان والده إماماً وقائداً من قادة الدعوة السلفية، التي أُطلق

على أصحابها اسم "الوهابيين" ويدعو هؤلاء إلى التمسك الشديد بأصول الإسلام أكثر من أي جماعة أخرى[١].

نشأ الملك ابن سعود في هذا الجو الديني، فتعلم أن يكون مخلصاً لله وحده، لا يشرك في عبادته أحداً، وتعلم ألا يقرب ما يغضب الله، وابتعد عن حياة الدعة والترف ولبس الحرير، وما شابه ذلك؛ لأن هذه من الأمور التي لا يقبلها أهل السلف.

وضع والده نصب عينيه هدفاً كبيراً، سعى إلى تحقيقه، ورأى أنه إن لم يستطع، فابنه عبد العزيز قادر على ذلك، وكان هذا الهدف هو توحيد أجزاء الجزيرة العربية، وبناء الدولة السعودية من جديد، وحث الناس على اتباع الدعوة السلفية.

وقال له أبوه وهو صغير: "واجبك أن تحقق هذا الهدف".

وكان على الابن أن يتوقع مواجهة مصاعب الحياة، لتحقيق الهدف الذي يصبو إليه أبوه، فتعلم من أبيه كيف يستخدم السيف، والبندقية، وتعلم من أبيه أيضاً كيف يمتطي صهوة الجواد البري دون سرج أو لجام.

كان تعليم والده له تعليماً صارماً وجاداً، ولتحقيق هذا الهدف، عاش ابن سعود حياة شاقة ومنظمة، كما تربى تربية دينية صحيحة، واتبع في حياته نظاماً شاقاً، ومن المعروف أنه إذا حدث قتال أو نشبت حرب في جزيرة العرب، كان هؤلاء يعانون من نقص الماء والطعام، ولهذا كان عليه أن يتدرب على العيش على أقل القليل من الطعام، وعلى الحياة أطول مدة دون ماء، وأن يُقلّ من نومه بقدر الإمكان.

---

(١) انظر لبحوث المؤتمر العلمي الذي عقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية عن دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله ونشأتها وآثارها والشبهات التي أثيرت حولها مع الجواب عنها.

وطبقاً للمثل الياباني: تشم رائحة الزهرة قبل أن تنبت الشجرة[١] نشأ ابن سعود قوياً صحيح الجسم معافىً، كله طاقة وحيوية؛ مما دل على النجاح الذي ينتظره في المستقبل، وشعر الناس بأن هناك مستقبلاً باهراً ينتظر ابن سعود.

حين كان في العاشرة من عمره، تبع أباه وقاتلوا محمد بن رشيد، ثم اتجهوا إلى قبيلة العجمان في منطقة الحسا، ولكنهم لم يتمكنوا من البقاء في تلك المنطقة، نظراً للقلاقل التي سادت المنطقة.

ومن هذه النقطة بدأ ابن سعود يعيش حياة غير مستقرة لعدة سنوات، فوصل مع أبيه إلى الربع الخالي، وعاشوا مع قبيلة بني مرة، وكانت هذه القبيلة من القبائل التي تعيش حياة صحراوية قاسية تماماً، فكان أفرادها يعيشون حياة شبيهة بحياة الوحوش البرية.

وهكذا اكتسب الملك ابن سعود كيف يتحمل قسوة الحياة؛ مما أفاده كثيراً فيما بعد، وحين كان يعيش مع والده في حضن هذه القبيلة، تعلم كيف يقتفي أثر الإنسان والحيوان في الصحراء، وتعلم كيف يتعامل مع الجمال أثناء الرحلات الطويلة جداً عبر الصحراء، وتعلم كيف يعالج جراح المصابين، وتعلم كيف يعيش على حفنة من التمر لأيام طوال.

وهكذا صارت لديه ثقة بنفسه خلال فترة بسيطة، ثم انتقل مع أبيه إلى الكويت، وهناك استقبل أمه التي كانت قد ذهبت إلى البحرين، فعاشوا معاً حياة هادئة آمنة في بيت صغير يتكون من ثلاث غرف، وحين بلغ عبد العزيز الخامسة

---

(١) مثل ياباني شبيه بالمثل العربي القائل "الديك الفصيح في البيضة يصيح".

عشرة من عمره، تزوج بابنة إحدى القبائل، بمساعدة أحد التجار، وخلال حياته في الكويت كان ابن سعود يشتاق إلى العودة إلى قلب الجزيرة العربية.

ولا بد أن أكرر هنا ما ذكرته قبلاً، فقد كان التعليم الجاد، والتدريب الصعب، والتجارب التي خاضها هنا وهناك، والخبرة التي اكتسبها، كانت كل هذه الأمور مجتمعة هي التي شكلت شخصية الملك عبد العزيز بن سعود، الذي نراه الآن، وجعلت منه قائد أمة، وموحد بلد كبير كالمملكة العربية السعودية، ومثل هذا الرجل لا بد أن يكون في الوقت نفسه سياسياً عظيماً، فقد أفادته الخبرة السياسية التي اكتسبها في صغره، عندما وحد البلاد، وأسس المملكة العربية السعودية، فقد طور ابن سعود قدراته التي اكتسبها في الصغر.

وقد استفاد الملك ابن سعود من بقائه في الكويت بقرب الشيخ مبارك، الذي كان عالماً خبيراً، نال ثقة الناس، وكان يحب ابن سعود كثيرا، ويحرص دائماً على أن يضع ابن سعود بجواره، حين كان يدير بعض الشؤون السياسية، أو يلتقي بأناس مهمين، أو يحضر مؤتمراً ما، فقد كان حريصاً على ابن سعود في مثل هذه الأمور، وعلى أن يستفيد من خبرته السياسية، وخصوصاً أنه كان على دراية بما تخطط له الدول الأجنبية للسيطرة على جزيرة العرب، واستغلالها لصالحها.

وهكذا اكتسب ابن سعود القوة العسكرية من أبيه، واكتسب الحنكة السياسية، وبدأ يكرس حياته لتحقيق هدف أبيه وحلمه[1].

---

(١) الملك عبدالعزيز ـ رحمه الله ـ امتلك دهاءً سياسياً فطرياً صقلته التجارب المتعددة، ولم تكن الفترة التي قضاها في الكويت كافية لاستفادته منها، وإنما تميز ـ رحمه الله ـ بشخصية قوية ومبادىء عظيمة ولم يعتمد إلا على الله عز وجل، وما تحقق على يد الملك عبدالعزيز ـ طيب الله ثراه ـ كان بعد توفيق الله تعالى نتيجة لجهوده وحنكته وسياسته العظيمة.

مكث في الكويت ست سنوات، استفاد في أثنائها من تجارب الشيخ مبارك، وحين بلغ العشرين من عمره، خطط ليستعيد الحكم من آل رشيد، ويؤسس الدولة السعودية (الحديثة) وكان هجوم ابن رشيد على الكويت، وانتصاره في المعارك، حافزاً له للإسراع بتنفيذ خطته، فقرر البدء في التنفيذ، وصار قراره هذا يلتهب مثل النار، فقد كان يريد وقف انتصارات ابن رشيد، وكان عليه أن يختار: النصر أو الموت.

وبدأ يعد العدة لذلك...

كان ابن سعود آنذاك فقيراً جداً، لم يكن معه مال للجنود، أو عتاد للحرب، لكن الفقر لا يمكن أن يقف حاجزاً دون تنفيذ قراره، فقد كان قراره صلباً كالصخر، وحاول الشيخ مبارك أن يثنيه عن هذا العمل، رغم معرفته بعزم ابن سعود وقوته، ولهذا أقلع عن محاولته.

وتحرك ابن سعود ليحقق هدفه، مخلفاً وراءه زوجه وأولاده..

انطلقت قافلته، وواجهته مصاعب كثيرة، ولكن ابن سعود لديه من الخبرات الكثيرة والتجارب الصعبة ما يمكنه من مواجهة أصعب المواقف، فقد تعلم من والده، وتدرب لدى قبيلة بني مرة، وهكذا عبر الصعاب..

انطلق ابن سعود في الصحراء مع ستين مقاتلاً، يرافقه أخوه محمد وابن جلوي...

أنفق ما معه من أموال، لكن الرجال أبوا أن يتركوه، وقرروا أن يمضوا معه حتى النهاية...

وكان ابن سعود يُظهر نفسه للبدو ليلاً ويختفي نهاراً، والهزيمة هنا في الصحراء تعني أن يصبح الجميع أعداءً له؛ لأنهم يعدون المهزوم جبانًا، وهكذا استمر ابن

سعود يُخفي نفسه في الصحراء لخمسين يوماً، فأشاع الناس أن ابن سعود ضل طريقه في الصحراء بعد أن تخلى عنه رفاقه، وقالوا أيضاً إن ابن سعود مات . . . لم يكن هناك من يعرف الحقيقة.

وفجأة حدث شيء مهم جداً في الصحراء، حدث فجأة دون مقدمات أو إرهاصات، من كان يتوقع مثل هذا الحدث؟!

هاجم ابن سعود الرياض برفقة ستين رجلاً، ودخلها منتصراً.

وشاع خبر انتصاره عبر الصحراء، وانتشرت حكاية شجاعته وذكائه في الأرجاء، لقد حقق الانتصار العظيم، بهذا العدد القليل.

وتمثل هذه اللحظة مولد المملكة العربية السعودية الحالية، وتوحيد أجزاء الجزيرة العربية، وكان هذا هو النصر الذي جعل ابن سعود ملكاً عظيماً، كما نراه اليوم.

ثم هاجم ابن سعود ابن الرشيد، وتخلص من الشريف حسين في مكة، وفي النهاية نجح في توحيد جميع أجزاء البلاد في ظل راية الإسلام[١].

ولكن كان عليه أن يفكر أيضاً فيما تتعرض له الجزيرة العربية، فبريطانيا تريد أن تبسط سيطرتها على جزيرة العرب، ولورانس يحاول أن يقوم بدور في ذلك، ولهذا فقد توجد بينه وبين بريطانيا بعض المشكلات، فيما يتعلق بالشؤون الخارجية، ولهذا يجب عليه أن يتدبر الأمر[٢].

---

(١) انظر أبحاث المؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبد العزيز الذي عقدته جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض في الفترة من ١٩ إلى ٢٣ ربيع الأول عام ١٤٠٦ هـ الموافق ١-٥ ديسمبر ١٩٨٥م، وقد أصدرت الجامعة البحوث في ثلاثة مجلدات.

(٢) انظر مقال بعنوان حدود شبه الجزيرة العربية Frontieres d'Arabie بقلم ستيفان براسيموس Stephane Yerasimos في مجلة مستقبل العالم الإسلامي السنة الأولى العدد ٢ ربيع سنة ١٩٩١م صفحة ٢٠٩ إلى صفحة ٢٧٤ مع تعقيب على الدراسة بقلم وحيد كوثراني صفحة ٢٧٦ وما بعدها.

لو لم يظهر ابن سعود، إلى عالم الوجود، لما تحققت وحدة الجزيرة العربية حتى اليوم. . . لا أزال أتذكر ابن سعود، بجسمه القوي، وقامته الفارعة، والتعبير الحار الذي يملأ قسمات وجهه، ولا أزال أتذكر سنوات حياته التي تشبه المصباح الياباني الملون الذي يدور مع هبوب الرياح، فيكشف عن العديد من الألوان والأشكال.

أحداث النصف الأول من حياته تدور أمامي الآن كما يدور هذا المصباح. . إنه الملك ابن سعود العظيم المهيب.

والمملكة العربية السعودية بلد مهم جداً لجميع البلدان الإسلامية جغرافياً ودينياً، ويحتل الملك ابن سعود مكانة طيبة في قلوب أربعمئة مليون مسلم.

لا يمكن أن أنسى ما حييت أسعد اللحظات التي شاهدت فيها الملك ابن سعود، فهو يمثل عظمة التاريخ.

المؤتمر الديني[1]

أعتقد أن أهم حدث خلال الحج هو المؤتمر الديني الذي تعقده وفود الحجاج من جميع أنحاء العالم، والحج في حد ذاته هو أكبر مؤتمر ديني في العالم، والمسلمون جميعاً لا يزالون يتبعون ما أمرهم به رسول الله ﷺ، حين اجتمع بهم في الحج، وهم يعدون أن هذا المؤتمر الديني يدخل ضمن الحج، أو أنه من أهداف الحج، في حين يرى بعضهم أنه ـ أي المؤتمر ـ الديني ليس خالصاً لوجه الله، والهدف منه ليس هدفاً دينياً خالصاً، وهو غير مقبول لدى المسلمين السلفيين.

---

(١) لا يعني المؤلف هنا انعقاد مؤتمر ديني بالمعنى الشائع هذه الأيام، بل يشير إلى الاجتماعات التي كانت تضم المسلمين تلبية للدعوات التي كانت توجه إليهم من قبل ممثلي وفود الحج، بالإضافة إلى تجمع بعض المسلمين حول العلماء الذين كانوا يقومون بالوعظ والإرشاد.

وقد يظن بعضهم أن هذا المؤتمر يعقده الحجاج الذين أُثيرت مشاعرهم خلال فترة قصيرة، ففكروا في ضرورة عمل شيء ما، وعلى الرغم من اختلاف الآراء، فإن عقد مثل هذا المؤتمر الديني هو اتباع لسنة محمد ﷺ، وتأسياً بما قام به حين أدى شعائر الحج[١].

من يقول إنه لا يوجد هدف سياسي حين أمر الرسول ﷺ قبائل العرب بالذهاب للحج؟!

بالطبع يأتي الإيمان في المقام الأول، وقد اهتم الرسول ﷺ بأن يوحد بين القبائل، وأن يزيل الخلافات، ويقضي على الصراعات القائمة بينها، هذا ما أعتقده.

إن خطبة النبي ﷺ في عرفات[٢] قضت على الصراعات القبلية بين العرب، وحاولت أن توحدهم لتجعل منهم أمة واحدة يظللها الإسلام، ولهذا فمن الطبيعي أن تلتهب المشاعر الدينية للحجاج في مثل هذا الوقت، وفي مثل هذا المكان، فهم يريدون أن يعلنوا أن الحج تعبير عن وحدة المسلمين جميعاً، على اختلاف أجناسهم وأعراقهم.

---

(١) الرسول ﷺ حينما حج لم يعقد مؤتمراً دينيًا، وإنما اكتفى بخطبة عرفات وخطبة منى، ومن ثَمَّ فلا يدخل المؤتمر الديني ضمن الحج كما ذكر المؤلف قبل سطور (المراجع).

(٢) يشير المؤلف إلى حجة الوداع، كما يشير إلى خطبة النبي ﷺ يوم حجة الوداع التي جاء فيها:

"إن دماءكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ألا فلا ترجعوا بعدي ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض . . . "

انظر البخاري ٢/ ١٩١ عن أبي بكرة باب حجة الوداع، وصحيح مسلم باب حجة النبي ﷺ، وانظر ما ورد في كتب السيرة، وأيضاً البحث القيم للعلامة القاضي محمد سليمان المنصور بوري في كتابه: رحمة للعالمين سيرة النبي الأمي ص٢١٥ وما بعدها ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم طبع ونشر دار السلام بالرياض الطبعة الأولى.

ولم يكن هدف النبي ﷺ نشر الدين الصحيح في جزيرة العرب فقط، بل كان هدفه أيضاً بناء السلام، وتحقيق الأمن بين قبائل العرب، وهذا المؤتمر الديني، مؤتمر الحج، يمكن أن نعده وسيلة عظيمة، لبناء السلام العالمي بين الشعوب المختلفة والعرقيات المتباينة.

ولا يمكننا الآن تجاهل هذا المؤتمر الديني؛ لأن شعوب العالم أجمع تراقبنا وتشاهدنا، وقد بدأ الناس - وخصوصاً في البلدان الأوربية التي تولي العالم الإسلامي اهتماماً كبيراً -يفكرون في أهمية هذا المؤتمر، وخصوصاً مراحل انعقاده، وما يدور فيه من حوار، وما تعرض فيه من أفكار، فالمؤتمر يعد حدثاً فريداً، ومُهماً؛ لأنه يمثل أهل الإسلام في مختلف بقاع العالم، ولهذا تراقب الدول باهتمام شديد هذا المؤتمر، وما يدور فيه من موضوعات تفهم من الهتافات الآتية:

استيقظوا أيها المسلمون!

إلى متى يعاني المسلمون القهر والظلم!

ريطانيا هي سبب معاناتنا، وسبب أوضاعنا السيئة، يجب أن نناضل ضد بريطانيا!

نعم.. نعم يجب أن نقاتل بريطانيا، إنها تسلب وتنهب خيراتنا، ومن أجل هذا يجب أن يتحد أربعمئة مليون مسلم!

ونظرا لأننا ندين بدين واحد، صار تفكيرنا واحدا، وصارت مشاعرنا واحدة، وصرنا نردد مع الجميع هذه الهتافات.

جانب من المؤتمر الديني يضم في معظمه حجاجًا إندونيسيين

كان الحجاج يهتفون، وكانوا يعلنون عن مواقفهم وآرائهم، لكنى أرى أن هذا النوع من الهتافات لا معنى له[1]، ولا أثر له على بلادهم الأصلية التي ينتمون إليها، وحتى في بلادهم الأصلية، لا يمكنهم أن يطلقوا مثل هذه الهتافات، وهذا في رأيي أمر غير منطقي على الإطلاق، ولكنهم في أثناء تواجدهم بالأماكن المقدسة، يشعرون بالحرية، ويتشجعون، فهم في بيت الله.

بعد أن رجعنا من القصر الملكي، وفي الطريق تلقينا دعوات كثيرة لحضور المؤتمر الديني، أو الاجتماع الديني، وصلتنا دعوات من المسلمين الإندونيسيين، ومن المسلمين الهنود، ومن المسلمين المصريين، وغيرهم.

وعادة ما يعقد المؤتمر الديني أو الاجتماع الديني داخل أحد الأبنية نهارا، أما في الليل فيعقد في العراء.. يقف المتحدث على صخرة، ويلقي خطبة عظيمة، يلتف

(١) لقد أصاب المؤلف في هذا القول فالهتافات في الحج لا معنى لها ولم تكن معروفة في حجة نبينا محمد ﷺ ولا من حج من بعده من الخلفاء الراشدين ومن تبعهم (المراجع).

المسلمون من حوله في دوائر تصل إلى نحو عشرين دائرة، يثير فيهم الخطيب الحماس الشديد، فتلتهب مشاعرهم..

كنت أشاهد ضوء القمر في السماء، كاد أن يكون بدرا، يعكس صورة الجبال في وادي منى، وكنت أراقب جموع المتحمسين وهم يستمعون إلى الخطبة، في حين كانت هتافاتهم تصم أذني... سيطرت علي مشاعر الحزن، لا أدري سببا لذلك، وهي مشاعر حزن تتباين تماماً مع ما كان عليه الناس، من إثارة وحماس، فلم أستطع أن أظل واقفا بينهم في هذا المكان، فابتعدت عن هذا الحشد، ومشيت وحدي، لم أدر كم من الوقت مضى علي، وأنا على هذا الحال؟! لكني وجدت نفسي على قمة جبل، أرى منه منطقة منى كلها..

حين وصلت إلى قمة الجبل، أدركت أين أنا، فأفقت..

أنا بلا شك محظوظ، لأني أنتمي إلى بلد عظيم كاليابان، ولا يعوزني شيء، ولا أشعر بالقلق، على عكس هؤلاء الناس، الذين يعيشون حياة البؤس والإفلاس، فهتافاتهم تعبر عن مدي بؤسهم في الحياة، ويأسهم من مستقبل بلادهم.

مثل هذا المؤتمر يمكن أن يستمر مئات السنين، لكن ما فائدة هذه الاعترافات الصريحة بالبؤس؟ وما فائدة الهتافات العالية؟

حين أفكر في هذا الأمر يصيبني الحزن والأسى..

كان القمر - الذي كاد أن يكون بدرا - يتوسط السماء تماماً، وكان ضوء القمر يكشف بوضوح عن وادي منى وجموع الناس المتجمهرين، كما لو كان هذا الضوء يكشف عن عالم البؤس والشقاء، وهو عالم يختلف تماماً عن ذلك العالم الذي أعيش فيه، ولكني رغم هذا أتعاطف معهم، فوضعهم بلا شك خطير..

وينازعني في داخلي شعوران :

شعور غير ذاتي أو موضوعي أي لا غرض فيه.

وشعور ذاتي أو غير موضوعي أي شخصي.

وظلا يتصارعان معاً إلى الآن، فأنا أتعجب: هل من حقي توجيه النقد إلى هذا العالم الإسلامي؟! وأنا أعده عالماً مختلفاً عن عالمي، وجماهير الحجاج البائسين هؤلاء هم من جنسي الآسيوي نفسه، وأتعجب: هل يمكن أن أترك هؤلاء البائسين؟ وإذا كنا نحن في اليابان سعداء، فلماذا هربت لا أريد أن أسمع اعترافاتهم بالبؤس والشقاء؟! هل هذه طريقة صحيحة؟! وهل هذا هو السلوك الياباني النبيل؟![1]

هل نخوض تجربة البؤس نفسها التي يعيشها الآسيويون؟ لنحاول مساعدتهم للخروج من هذا البؤس! هذا واجب على كل ياباني؛ فالآسيويون هذه الأيام يتقلبون على جمرات نيران البؤس، ويتململون، ويصرخون، وهم كالبركان على وشك الانفجار.

آه! صُدمت.. أُصبت بخيبة أمل.. يجب أن أفعل شيئاً، لا يوجد هنا ياباني غيري، ضربت الأحجار بقدمي، وكأنني أفسح الطريق لنفسي، ورجعت إلى الحشود البائسة، وإلى الهاتفين التعساء، كانت أصواتهم في أذني كصوت الرعد القادم من بعيد..

الاتجاهات الإسلامية في المؤتمر الديني

تمكنت من حضور المؤتمر الديني ثلاث مرات بما في ذلك حضوري هذا العام، وأود الآن الكتابة عن عدة نقاط تتناول هذه المؤتمرات، في سنة ١٩٣٥م أي السنة

(١) انظر ما جاء عن أخلاق الفارس في كتاب البوشيدو Bushido للدكتور إنازو نيتوبه Inazo Nitobe عضو المجمع العلمي الإمبراطوري في اليابان وأحد أستاذة الجامعة الإمبراطورية في طوكيو، وقد صدر الكتاب عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م.

العاشرة من شوا، وهي سنة١٣٥٣هـ، وقعت حادثة الاعتداء على الملك ابن سعود[1] وهتف المسلمون جميعاً ضد بريطانيا، وحدثت اضطرابات وفوضى

---

(١) أوردت جريدة أم القرى خبر فشل محاولة الاعتداء على الملك عبدالعزيز، فجاء في افتتاحيتها بتاريخ ١٧ ذي الحجة ١٣٥٢هـ/ ٢٢ مارس ١٩٣٥م:

« وأرادوا به كيداً، فجعلناهم الخاسرين».

الحمد لله ناصر حزبه ومؤيد عبده، مهلك الظالمين بحكمته وعدله، لقد شاء الله وهو الحكم العدل أن يخذل أعداءه. . لقد علم العالم أجمع ما كان من أمر حادثة يوم عيد النحر، حادثة يوم العيد الأكبر، حادثة يوم عيد الأضحى في بيت الله، وقت عبادة الله، على مرأى ومسمع من حجاج بيت الله. . .

ولقد أصدر جلالة الملك المعظم أوامره الشديدة بعدم الإتيان بأية حركة عدائية، وإننا نأسف حد الأسف لوقوع هذا الحادث الذي لا يعلم إلا الله عاقبة أمره، ولا نريد أن نقول شيئاً في أمور التحقيق غير ما ذكره البلاغ الرسمي، ويكفينا من الفرح والسرور نجاة إمام المسلمين، وزعيم العرب وقلب الجزيرة العربية».

انظر البلاغ رقم ٢٤ عن الحادث في ١٠ ذي الحجة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م وبيان رقم ٢٥ الذي ذكر أسماء الجناة:

١ - النقيب علي بن علي حزام الحاضري

٢ - صالح بن علي الحاضري شقيق الأول

٣ - مسعد بن علي سعد

وقد اعترف علي بن مبخوت الفران أنه اجتمع بأخيه بجدة وبات أخوه عنده ثم حضر إلى مكة. . . وتأخر الثلاثة في مكة ولم يحجوا، ولم يجتمع بهم إلا في يوم الطواف.

ولم يعثر إلى الآن على مسعد العسكري ولا يعرف سبب تركه جوازه مع المجرمين

(أم القرى ٤١ من ذي الحجة).

وقد تلقى الملك عبد العزيز برقيات تهنئة بنجاته من ملوك إنجلترا والعراق ورئيس جمهورية فرنسا وملك اليمن وملك إيطاليا وأمير شرق الأردن وشاه إيران وملك الأفغان وإمبراطور الحبشة وأمير الكويت وغيرهم.

وكما ذكر المؤلف عالجت الصحف الأمر بحكمة شديدة فقد صدر بلاغ رسمي برقم ٢٧ في ٢٤ من ذي الحجة / ٢٩ مارس يكذب ما نشرته جريدة البلاغ في عددها الصادر في ١٤ ذي الحجة ١٣٥٣هـ/ ١٩ مارس ١١٣٥م يفيد " بأن حكومة جلالة الملك أرسلت إلى الحكومة اليمانية مذكرة عن علاقات المعتدين على جلالة الملك ببعض موظفي الحكومة اليمنية. . . "

وعم الفرح الأرجاء بنجاة الملك عبد العزيز، ونظم الشعراء قصائد رائعة، ومما جاء في مطلع قصيدة الشاعر خير الدين الزركلي قوله:

ضل الجناة سبيل النيل من ملك ... لولاه ما صين بيت الله والحرم

عبدالعزيز الإمام الحق تكلأه ... عين من الله لا جند ولا حشم

عش للعروبة والإسلام معتصما ... فإنما بك بعد الله نعتصم

وارتجل الشيخ محمد الغنيمي التنتزاني قصيدة بالقصر الملكي جاء فيها:

يا طائفا بحمى البيت العتيق لقد ... وقاك ربك سوء القصد والياس

لا يُسلم الله من يمتد إليك يدا ... بسوء قصد أنت الشامخ الراسي

عارمة، وصراخ و هتافات عالية، فعدد المسلمين الخاضعين للسيطرة البريطانية يصل إلى مئة مليون مسلم، يتضاعف إذا أضفنا إليهم المسلمين الذين تربطهم ببريطانيا علاقات خاصة، وفي المؤتمر الديني زاد عدد المسلمين المعارضين للاحتلال البريطاني أكثر فأكثر.

وفي سنة ١٩٣٧م أي السنة الثانية عشرة من شوا، وهي سنة ١٣٥٥هـ حضرت المؤتمر للمرة الثانية، وفي تلك الأثناء بدأ الصراع الفلسطيني - الإسرائيلي، وعجزت بريطانيا عن إيجاد حل لهذه القضية؛ مما أثار العداء لبريطانيا داخل المؤتمر، الذي حضره المفتي أمين الحسيني، الذي كان يقود المعارضة ضد بريطانيا، وقد احتلت هذه القضية موضع الصدارة في المؤتمر، فقد أراد الجميع التعبير عن مشاعر التضامن مع الفلسطينيين، والتنديد بالاعتداءات الإسرائيلية.

أريد أن أكتب عن مشكلة فلسطين فيما بعد، أو كلما وجدت فرصة سانحة لذلك، ولهذا سأترك الحديث عنها الآن.

كما حدثت في السنة نفسها مشكلة في إحدى المقاطعات الإسلامية في الصين، وكان أهلها يريدون الحصول على الاستقلال عن الدولة، إلا أن قضية فلسطين هذه المرة كانت أهم من تلك القضية، ومن هنا لم تظهر مشكلة الصين على السطح، وحذفت من جدول أعمال المؤتمر الديني.

وأجد نفسي هنا أتذكر الجنرال الصيني "ما رن" الذي قابلته آنذاك، ونحن ننتمي إلى جنس آسيوي واحد، ولهذا صرنا أصدقاء، وكنت ألتقي به أثناء إقامتي في مكة كل يوم تقريبا، وخصوصاً أنني قررت الذهاب إلى الصين لزيارته، بعد عودتي إلى اليابان، ولكن لسوء الحظ حين رجعت إلى اليابان، بدأت الحرب بين

اليابان والصين[١] ولهذا لم أتمكن من زيارته، وأشعر بالأسف والحزن حين أتذكر هذا الأمر.

وأتعجب الآن كيف يفكر الجنرال "مارن" عن هذه الحرب، فقد كان رجلاً يظن أن من الممكن أن تتعاون اليابان والصين معاً من أجل تطوير بلديهما، لكنه الآن لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

جاء الجنرال إلى الحج على رأس وفد يضم أربعين حاجاً[٢] من بينهم الطباخ

---

(١) بدأت الحرب بين اليابان والصين حين مات صون زون شان عام ١٩٢٥ وقام جنرال عسكري شاب يدعى جيانك كاي شيك Jiang Kai Shek (وينطق باللغة الصينية جيي - أنك - كيه - شيك Jee:Ang Ky:shek) بالسيطرة على الحزب الوطني، فقامت الدول الغربية بدعمه؛ لأنه وعد بالحفاظ على مصالحها في الصين، وقد تلقى جيانك كاي شيك دعم الإقطاعيين الأثرياء في الصين، وتمكن من تنظيم الجيش ضد اليابانيين الذين بدؤوا غزو الصين للمرة الثانية سنة ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م، وهو الغزو الذي أدى إلى قيام الحرب العالمية الثانية في آسيا، وقد واجه شيك منذ ١٣٤٤هـ/ ١٩٢٥م حتى سنوات ما بعد الحرب العالمية الثانية جماعة من الصينيين أطلقت على نفسها اسم "الشيوعيين" وبعد قتال استمر عشرين سنة كسب الشيوعيون المعركة.

وفيما يتعلق بوضع المسلمين فقد حدث صدام بين المسلمين وحكام المقاطعات المختلفة في الصين، أما إبان الغزو الياباني فقد أنشئت جمعيات إسلامية أدبية وجمعية اتحاد عموم الصين، ونالت تأييد الحكومة، وكان من زعماء المسلمين الحاج هلال الدين تشينج الذي تلقى تعليمه بالأزهر وزار إستانبول والهند وكان يجيد اللغتين العربية والأردية.

انظر بدر الدين حي الصيني مصدر سابق.

وقد ألف المسلمون إبان غزو اليابان للصين عام ١٣٥٦هـ/ ١٩٣٧م في جنوب غرب الصين فصائل جهاد إسلامية ضد اليابانيين بقيادة ماينى كشاي أطلق عليها (الفرقة الإسلامية التي لا تقهر).

للمزيد من المعلومات انظر: Yand-I-Fan ; Islam in China Hong Kong 1958

كما أن السلطات في الهند بحثت في أمر (أم القرى ٢٧ جمادى الآخرة / ٣ سبتمبر) إرسال جنود من الهند إلى شنغهاي، في وقت رأت فيه اليابان أن تسوية النزاع مع الصين لا يكون إلا بقوة السلاح، ورفضت أي وساطة وخصوصاً وساطة بريطانيا، في حين أعلنت الصين أنه لم يبق أمامها غير الحرب إلى آخر رمق لوقف المطامع اليابانية.

وقد نشرت صحيفة أم القرى خبراً من شنغهاي مفاده: أن الإجراءات التي اتخذتها اليابان فاتحة وقوع النزاع بصفة عامة في الصين بين اليابانيين والصينيين.

(صحيفة أم القرى ١٣ أغسطس ١٩٣٧ السادس من جمادى الآخرة ١٣٥٦هـ).

وغطت صحيفة أم القرى في جميع أعدادها على مدار الأشهر التالية أخبار الحرب بين الصين واليابان التي كانت ترد من مصادر داخل الصين أو اليابان أو حتى من مصادر أوربية.

(٢) ذكرت صحيفة أم القرى أن عدد الحجاج الصينيين كان ٦٤ حاجاً قدموا عن طريق البحر (١٧ ذي الحجة ١٣٥٥هـ) وكان قد وصل إلى مكة "حضرة الأمير الجليل السلطان عبد الجليل مانغ من أمراء الصين، وهو سلطان ولاية شنجي (١٦ مدينة سكانها ٢ مليوناً نسمة) وقد حضر معه نجله وحاشيته المؤلفة من ١٢ شخصا (صحيفة أم القرى ٢٥ شوال ١٣٥٥هـ).

والمترجم، وأهداني الجنرال زجاجة صغيرة من عطر المسك، وهي هدية تذكارية لا أنساها..

وكان هناك أيضاً حجاج من إثيوبيا، جاؤوا لأول مرة بعد الحرب بين إيطاليا وإثيوبيا، فتحدث الحجاج الأثيوبيون في المؤتمر عن الحرب، كيف بدأت؟ وكيف انتهت؟ وعبروا عن إعجابهم بموسيليني، فقد ولدت إثيوبيا من جديد بوصفه بلداً إسلامياً! هكذا قالوا..[1].

من المعروف أن النبي ﷺ حين أراد نشر الإسلام في مكة، واجه معارضة شديدة من عبدة الأوثان، فهاجر إلى المدينة، وهكذا كان للمدينة أهمية تاريخية كبرى.

وتحتل إثيوبيا (الحبشة) مكانة في التاريخ الإسلامي، ويرجع السبب الأساسي إلى هجرة عدد من المسلمين إليها عبر البحر الأحمر، في عهد النبي ﷺ، ولا شك أن هؤلاء المهاجرين كان لهم أثر طيب في التعريف بالإسلام هناك، إلا أن إثيوبيا أساساً كانت بلداً نصرانياً، رغم أن المسلمين هناك يمثلون سبعين في المئة من عدد السكان، وكان الإمبراطور، وهو مسيحي يضطهد المسلمين، وكان يرفض السماح لهم ببناء المساجد، كما كان يرفض السماح لهم بالذهاب للحج، فكان لا بد أن تنهار مثل هذه الأمة غير المتوازنة ذات يوم.. وهذا قدرها.

ولا يجب أن ننسى المشكلة القائمة بين إيطاليا وإثيوبيا، فحين بدأت الحرب جعلوها حرباً بين النصارى والمسلمين أو هكذا صوروها، فأعلن موسيليني في بداية الحرب أنه سيساعد المسلمين!!

(١) من المعروف أن العلاقات اليابانية الإيطالية كانت في أحسن أحوالها ومن ثَمَّ فإن المؤلف متعاطف مع إيطاليا.

ويؤكد الحجاج الإثيوبيون الآن أن موسيليني كان صادقاً فيما قال؛ لأنه بنى مسجداً في العاصمة، وقدم مساعدات مالية للحجاج المسلمين، ثم أشاروا إلى أن الحرب الإثيوبية لم تكن ببساطة حرباً بين إيطاليا وإثيوبيا، ولكنها كانت في حقيقتها حرباً دينية، واختار الإثيوبيون أن يكونوا مسلمين على أن يكونوا داخل إثيوبيا المستقلة.

وفي هذا المؤتمر استقبلنا الإثيوبيون استقبال الأبطال.. وقد كان حديثهم واتجاههم يدل على الإعجاب بإيطاليا، والإطراء عليها.

أما ما يدور في اليمن، فقد طرأ عليه تغير، وتأثر بمجريات الأحداث في إثيوبيا.

في هذه السنة ١٩٣٨م وهي السنة الثالثة عشرة من شوا أي سنة ١٣٥٦هـ، يوجد سبعة من الصينيين، وهم أصدقاء السنة الماضية، لكنهم صاروا أعداء في السنة الحالية، ويرأس هذا الوفد "وان سون زين" وهدف الوفد باختصار الدعاية ضد اليابان، وهم يريدون كسب تعاطف البلدان الإسلامية مستغلين هذا المؤتمر الديني، ولهذا حملوا كثيراً من المطبوعات والمنشورات، التي يوزعونها على الناس، كتبوها بأسلوب سيئ للغاية، وأشير إلى ما جاء في بعضها:

منظر من المؤتمر ويشاهد المفتي أمين الحسيني

كما تعلمون فإن اليابان بلد استعماري، له اتجاه توسعي، واليابان تريد استخدام الدين لتحقيق مكاسب اقتصادية، وسياسياً تريد اليابان احتلال البلدان الإسلامية.

وفي الوقت الحاضر قام اليابانيون بهدم معظم مساجد إحدى المقاطعات الإسلامية في الصين، كما قتلوا كثيراً من المسلمين، ورغم كل هذا بنى اليابانيون عندهم مسجداً[١] وأقاموا لذلك حفل افتتاح، قصدوا به خداع العالم الإسلامي، وهذه ظاهرة عجيبة، إذا كان لدى اليابانيين نوع من التعاطف تجاه الإسلام والمسلمين، فلماذا يقتلون المسلمين في الصين، إنه سلوك بربري.

وهذا الرأي عار عن الصحة، وبعيد عن الحقيقة، وغريب على الواقع، أين "شوكاي سكي" الذي حرق بيوت عامة المسلمين، وهدم دور عبادتهم، وأباد كل شيء في طريقه، وهو ينسحب، لقد قتلوا الناس، ويريدون الآن أن يلصقوا التهم، وينسبوا الجرائم إلى اليابان، واليابان ليست بالبلد المحتل، ولا يملك عقلية استعمارية[٢].

وهؤلاء الصينيون يخدعون المسلمين الآن في هذا المكان المقدس، وهم بهذا يخادعون الله.. إنني أستشيط غضباً.

---

(١) يشير إلى بناء المساجد في اليابان وقد بني مسجد طوكيو سنة ١٩٣٨م وحضر افتتاحه وفود من الدول الإسلامية بما فيها المملكة العربية السعودية إذ حضر الشيخ حافظ وهبة ممثلاً لحكومة جلالة الملك عبد العزيز، ويذكر الشيخ أبو بكر موريموتو أن أول مسجد أقيم في اليابان كان عام ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م ولديه وثائق تؤكد ذلك وقد جاء تأسيس ذلك المسجد في تقرير رسمي بعثه الإمبراطوري الياباني نفسه إلى حكومة روسيا.

انظر سمير عبد الحميد إبراهيم الدعوة الإسلامية في اليابان بين نظريات الدعاية وواقعيات التطبيق القاهرة ١٤١٦ هـ/ ١٩٩٥م. وانظر Islam In Japan ;Its Past,Present And Future: Abu Bakr Morimoto Translated by Iskandar Chowdhury Toyo 1400 AH 1980.

(٢) انظر ما ورد في كتاب سيد عبد المجيد بكر عن الأقليات المسلمة في آسيا واستراليا فيما يتعلق بمسلمي الصين.

حاولت أن أجادلهم، وأتنازع معهم في هذا المؤتمر، وقد قام السيد/ تشان هذه المرة بعمل جيد من أجل اليابان، ومن أجلي، فقد تحدث عن الوضع في منشوريا هذه الأيام، وأثنى على اليابان، وعلى عظمة اليابان، وانتشر كلامه بين وفود أربع وعشرين دولة إسلامية، والحقيقة تعلن عن نفسها، والحقيقة أعظم من كل الدعايات.

شكلت كل هذه الأمور في داخلي مشاعر عن المؤتمر الديني، لا يمكن أن أنساها.

سوف تظل المشكلة بين بريطانيا والهند تتفاقم في المستقبل القريب، كما أن ما قاله أهل إندونيسيا التي تحتلها هولندا كان له مغزى يحمل معنى كبيراً، ولا يمكن أن أكتب عن هذا الآن.

هذا الحماس، وهذه المشاعر القوية التي ظهرت في المؤتمر الديني الذي عقد في وادي منى لن تنتهي هنا، ولكنها ستستمر، وستمضي مع الحجاج إلى مكة.

بعد العيد الكبير/ زيارة وزير المالية السعودي

كنت منذ قدمت إلى الحج أول مرة، وخلال هذا الحج أيضاً ألقى رعاية من عبدالله بن سليمان وزير المالية السعودي.

حين قابلت الملك ابن سعود، أخبرت الوزير أنني أريد أن ألتقي به في وقت لاحق، لأحدثه في بعض الأمور، فوافق وحدد الوقت في المساء عند الساعة الرابعة أي العاشرة بالتوقيت العربي، على أن يكون اللقاء في مكتبه.

ذهبت لزيارته في الوقت المحدد، كان مكتب الوزير محاطاً بسور عالٍ، دخلنا من بوابة السور، فشاهدنا على اليمين مبنى صغيراً من الخشب، يتكون من طابقين، كان مبنى متواضعاً للغاية، وكانت هناك عشرات الخيام المخصصة للحرس.

جاء معي عبد الله ليرشدني إلى الطريق، وبالطبع كان معنا السيد/ تشان، أخذونا إلى خيمة مفروشة بسجادة جميلة، حين دخلنا الخيمة كان الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية يتكلم مع بعض الزوار، فلمحنا، وقدم إلينا على الفور، رحب بنا، وأجلسنا عن يمينه وعن شماله، وقدَّمنا إلى بقية الضيوف.

كان هؤلاء الضيوف هم أحد الهنود الذي كان يشكو من الإنجليز، وأحد السوريين أصحاب الأجسام الضخمة البدينة، كما كان هناك ضابط مصري ذو رتبة عالية.

جلسنا جميعاً على السجادة الرائعة في الخيمة المزخرفة بطريقة جميلة جداً، وأخذنا نتكلم، كان الشيخ سليمان يرتدي زياً عربياً، وكنا نجلس من حوله في مواجهته، وبدا المنظر كأنه مشهد من حكاية ألف ليلة وليلة.

كنت متوتر الأعصاب وخصوصاً أنني حين قابلته (أي في الحج الأول) وقعت حادثة الاعتداء على الملك، فكانت الحراسة مشددة جداً، وكان هناك عدد كبير من الحراس حول الخيمة التي كان الملك يقابل فيها الناس.

حين أراد الوزير أن يقدم لنا القهوة[1] نادى الخادم قائلاً:

قهوة!

فقال الخادم لرئيس الحرس:

قهوة!

فنادى رئيس الحرس بأعلى صوته:

قهوة!

---

(١) يتحدث عن اللقاء في الحج الأول.

وسمعنا الأمر ينتقل من حارس إلى آخر : قهوة! قهوة! قهوة!

وفي النهاية قدَّم حارسان يحملان القهوة، قدموا لكل منا "فنجاناً" صغيراً شبيهاً بفنجان "الساكيه" الياباني[١] وصبوا القهوة في الفنجان . .

لم يتكلم الحارس أبدا بكلمة، جاء إلينا أكثر من مرة، لم نكن ندري ماذا نفعل، فالقهوة ليس لها طعم القهوة التي اعتدنا على تناولها، كان طعمها غريباً بالنسبة إلينا، لا أقول إن طعمها كان سيئاً، لكن الرائحة بالنسبة إلينا كانت غريبة، ورغم أن لي تجارب عديدة مع أطعمة ومشروبات غريبة في جزر إندونيسيا، لم أستطع أن أتناول كثيراً من القهوة.

كان الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية يراقبنا وهو يبتسم، وعلّمنا كيف نرفض المزيد من القهوة، كان علينا أن نهز الفنجان يميناً ويساراً، وهذا يعني لا نريد المزيد.

كان لقائي بالوزير هذه المرة مؤثراً، ولا يمكن أن أنسى تأثير ذلك اللقاء الأول.

ونعود إلى هذا اللقاء . .

. . . حين وصلنا إلى مكتب الوزير، قام الوزير نفسه بإخلاء المكان من الحرس الموجود، ودار بيننا حديث عن طريق المترجم، وبدا الوزير من خلال كلامه نشيطاً مملوءاً بالحيوية، كما دل سلوكه على قدرته على تحمل العمل الشاق، وعلى الجلد، والصبر، ولا بد أن أذكر هنا أن الشيخ عبد الله بن سليمان هو اليد اليمنى للملك ابن سعود، ولا يمكن أن يوجد من يحل محله، أو يتولى الأعمال التي يقوم بها، وهو الآن في أحسن أحواله، وفي قمة أدائه الوظيفي، وكما يقول المثل الياباني "يستطيع أن يصيب الطائر في السماء"[٢].

---

(١) يشبه "فنجان" الساكيه الياباني وهو الخمر المصنوعة من الأرز، فنجان القهوة العربية.

(٢) يقول المثل الياباني بأنه يستطيع أن يصيد الطائر المحلق في السماء أي أنه يستطيع أن يأتي بالأعاجيب.

ولكن مظهر الوزير لا يوحي بأن هذا الرجل يتحكم في ماليات الحكومة السعودية، فهو قصير القامة، أصلع، وبدين إلى حد ما، ويبدو إنساناً عادياً، لا يتمتع بصفة خاصة، كما أنه لا يبدو أنيقاً، يمتلك عينين واسعتين، حادتين كعيني العقاب..

حين شاهدت عينيه، عرفت أي نوع من الرجال يكون، لا يمكن أن أكتب هنا عما دار بيننا من أحاديث..

بعد غروب الشمس غادرنا مكتب الوزير.

إلى مكة من جديد

تهب الرياح منذ صباح اليوم بشدة، فتشكل عاصفة رملية، جعلت السماء تبدو حمراء، كلما هبت مثل هذه الرياح العاصفة كنا نشعر بالخوف، لا أدري لماذا؟

كنا كلما هبت مثل هذه العاصفة نتعرض لصعوبات كثيرة، وخصوصاً حين نكون في السيارة، وسط الصحراء، فأخذت أصلي وأدعو الله أن تنتهي العاصفة سريعاً، واشتدت الحرارة أكثر فأكثر، لدرجة أنني كدت أشعر بالاختناق من شدة الحر، وكنت أتنفس بصعوبة شديدة.

بعد العيد انتقل الحجاج بالجمال إلى مكة، ويعود الآن عدد قليل من الناس إلى مكة بالسيارات، ولهذا خلت الشوارع التي كانت تكتظ بالحجيج، وامتدت أمامنا كجسد ميت، وأحالت العاصفة الشديدة المنطقة إلى مكان مخيف.

من المعروف أن الناس يأتون هنا إلى مشعر منى مرة واحدة في السنة، ثم يرجعون تاركين منى، حيث تعود إلى ما كانت عليه خالية من الناس، وتصبح كمدينة الأشباح، لقد ترك البيت الذي أقمنا فيه في منى بداخلي ذكريات سعيدة،

وبالطبع يأتي السرور بانتهاء الحج هنا في المقام الأول، كما أننا التقينا بالملك ابن سعود، وقابلنا وزير المالية عبدالله بن سليمان، كما حضرنا المؤتمر الديني، كل هذه الأمور أسعدتني كثيراً، وغمرتني بالفرح والسرور.

وهناك أمر آخر يبدو هامشياً، وهو أننا لم نصادف هنا مجموعات كبيرة من الذباب أو الناموس، ولهذا أحببنا منى كثيراً، تلك المنطقة التي يبقى فيها الناس نحو خمسة أيام في السنة فقط، ثم تبقى بعد ذلك على مدار السنة صحراء وتلالاً، فلا يمكن لذبابة واحدة أو ناموسة أن تعيش هنا.

شكرت الله لأنني لم أتعرض لذبابة أو ناموسة منذ وصولي إلى منى، بالطبع تعرضت في اليابان لمواجهة ذباب وناموس، ولكن ذلك كان بسيطاً بالمقارنة بما تعرضت له هنا، وربما لا يتخيل إنسان ما عانيناه في مواجهة الناموس، وهذا ما يجعلني أسجل هنا بأننا تمتعنا بالنوم في هدوء وسلام خمسة أيام قضيناها في منى.

قال أهل مكة:

حاول أن تذهب إلى منى بعد ثلاثة أيام من مغادرة الناس لها، لا يمكن أن تبقى هناك ليوم واحد، فسوف ترى كثيراً من الناموس وسترى جيوش الذباب.

وعلى كل حال هذا يعني أن الله حفظنا من هجوم الذباب والناموس.

حقاً! يمكن أن أتخيل هذا الأمر لأن مئة وخمسين ألف حاج، مع الجمال وغيرها، ومع لحوم الأضاحي، يجعل المنطقة حقلاً خصباً لتكاثر الذباب... لا أريد أن أتخيل هذا المنظر..

على كل حال لم نتعرض للناموس والذباب خلال إقامتنا في منى، ولهذا كنت سعيداً جداً، لكن علينا أن نرجع اليوم إلى مكة، عاد الملك ابن سعود والوفد المرافق

له إلى مكة مساء أمس، وكان ذلك في صف طويل من السيارات، تبعه بعد ذلك نحو أربعة آلاف جندي من جنود الملك ابن سعود على ظهور الجمال، وهكذا بدت منى شبه خالية تماماً، لا يوجد فيها غير الصمت والسكون.

غادرنا منى متجهين إلى مكة في الساعة التاسعة صباحاً، فوصلنا بعد ساعة.

رواق الهنود

حين وصلنا مكة، وجدنا الطريق مزدحماً بالناس الذين رجعوا من منى، والناس الذين جاؤوا للطواف بالحرم، والناس الذين يقومون بالسعي بين الصفا والمروة، ويستعدون للعودة، وبدا كل إنسان في شغل شاغل.

وصلنا إلى مقر إقامتنا وسط هذا الزحام، كان كل واحد ينادي الآخر: يا حاج يا حاج، ويهنئه بأداء شعائر الحج.

كنت أخطط للذهاب إلى المدينة بعد الانتهاء من شعائر الحج؛ لأني لم أستطع زيارة المدينة في المرة الأولى لهذا يجب أن أذهب لزيارة المدينة هذه المرة.

كنت على وشك الذهاب خلال اليومين القادمين، واستأجرت سيارة، لكنَّ حادثا طرأ أبقاني في مكة أسبوعاً، وليس هذا فقط، لكن وقع ما كنت أخشاه، وأخافه، لقد مرض السيد/ تشان، وارتفعت درجة حرارته كثيراً؛ مما جعلني أتخلى عن الذهاب إلى المدينة، وأنسى تماماً فكرة الذهاب إلى هناك.

وهناك سبب آخر منعني من مغادرة مكة بسرعة، وهو أنني دعيت إلى حضور الحفل السنوي لممثلي الدول الإسلامية، كما دعاني وزير المالية عبد الله بن سليمان،

وكان موعد الدعوة الأسبوع القادم، كما كان الوفد الصيني الذي يضم سبعة أفراد لا يزال يحضر الحفلات التي تقام هنا وهناك، وكان هذا الوفد لا يزال يمارس نشاطه الدعائي ضد اليابان، ولا يمكنني أن أغادر مكة حتى يغادرها هذا الوفد.

كنت أراهم كلما ذهبت إلى حفل ما، وأثناء وجودي لم تكن دعايتهم تؤتي ثمارها جيداً، ولكنهم كانوا يقومون بدعايات سيئة للغاية، ويقدمون معلومات مغلوطة وكاذبة دون خجل، في الحفلات التي لا أحضرها.

كل هذه الأمور حدثت في حين كان موعد السفينة التي ستقلنا في العودة يقترب ويقترب.

وأود أن أشير هنا إلى أن حجاج الهند منظمون بطريقة جيدة، وهم في هذا الشأن أفضل من حجاج البلدان الأخرى، وقريباً من الحرم، وعلى هضبة عالية يقع "رواق الهنود" وهو مبني بالحجارة والأسمنت، على النظام الحديث، وإذا شاهدته في الليل بأنواره بدا جميلاً جداً، وهو مزين بشكل جميل، وهم هنا يعدون الإضاءة الكهربائية ضرباً من الفخامة والأبهة، وهكذا فالبيت الذي بداخله ماكينة لتوليد الكهرباء، يدل على أن أصحابه من الأثرياء الأغنياء أو من خاصة القوم والوجهاء، أو أنه قصر أحد المسؤولين في الحكومة.

لا يتسع رواق الهنود بالطبع لجميع حجاج الهند، فهو لا يحتوي إلا على ألفي سرير.

ذات يوم في حين كنت أتمشى مع العجوز صاحب فندقنا، وجدنا أنفسنا أمام الرواق، فهمس العجوز في أذني بطريقة مفاجئة:

أتعرف لماذا بنى الهنود هذا الرواق الضخم؟ إن عدد الحجاج الهنود يتزايد عاما بعد عام، ويمكن أن نقول: إنهم بنوا الرواق الضخم بسبب تزايد عددهم، لكن لدينا

أيضاً حجاج من بلدان أخرى، مثل: إندونيسيا والهند يتزايد عددهم أيضاً كل عام، لكن هذه سياسة بريطانية... لا... لا.. أنا لا أقول هذا، أهل مكة يقولون هذا، ولست أنا.. "

فسألته:

ماذا عن سياسة بريطانيا؟

فأجاب:

هذه سياسة البريطانيين، وهذا دهاؤهم وأسلوبهم الخبيث، إنهم يريدون تهدئة الهنود الثائرين ضد بريطانيا، فبريطانيا ستواجه في المستقبل مشكلات كثيرة، وربما تجد نفسها مضطرة إلى الخروج من الهند؛ لأن المسلمين في الهند قوة لا يستهان بها[1].

لكني أعتقد أن العجوز يسيء فهم الأمور، فبناء رواق للمسلمين أو مساعدتهم لبناء هذا الرواق يعني أن بريطانيا تريد أن تقول لهم: نحن نتفهم احتياجات المسلمين، ونحن نحمي المسلمين أيضاً، ولكن أهل مكة لديهم شعور معاكس؛ لأن أهل مكة الذين يعيشون على ما يحصلون عليه مقابل تأجير مساكنهم، لم يشعروا بالراحة حين بنى الهنود هذا الرواق بأنفسهم؛ لأن هذا يعني الخسارة لأهل مكة، ولهذا فهم ضد بناء مثل هذه الأروقة، ولا نقول شيئاً حتى لو بنت بريطانيا هذا

(١) هذا يدل على فهم مجريات السياسة العالمية فبعدها بعشر سنين فقط، خرجت بريطانيا من الهند نتيجة كفاح الهنود وعلى رأسهم المسلمون الهنود الذين ضحوا كثيراً في سبيل الاستقلال. انظر: المسلمون وحركة تحرير الهند للمودودي ترجمة سمير عبد الحميد إبراهيم تحت الطبع مؤسسة الرسالة بيروت.

الرواق، لكن حكومة بريطانيا أمرت حكومة الهند، فقامت حكومة الهند بتقديم الأموال اللازمة لبناء هذا المبنى[١].

ولا شك في أن بريطانيا تخدع مسلمي الهند، ويمكن أن أعرف الآن مدى الضيق والغضب في قلب كل مسلم تجاه بريطانيا، والمسلمون يعلنون عداءهم الواضح ضد بريطانيا في شكل شعارات يهتفون بها أحياناً، وحين وصلت إلى مكة أقام الهنود حفلة في رواقهم هذا، وقد رتب للحفل على سطح الرواق، ودُعي إليه نحو ثلاثمئة ضيف، كان حفلاً كبيراً.

وصلت هناك في الموعد المحدد، وقد رافقني عبد الله، صعدت إلى سطح المبنى، فوجدتهم قد جعلوا نصف المكان للانتظار، ووضعوا نحو خمسمئة مقعد، وكان معظم الضيوف قد حضروا حين وصلت، فقدموني إلى "حاكم" (نظام) إحدى المقاطعات الهندية[٢] الذي كان يضع على رأسه عمامة بيضاء، وكان وجهه طويلاً عليه لحية طويلة سوداء، تصافحنا لمدة طويلة بحرارة شديدة، وبعدها قدم ممثل كل بلد لمصافحته، ولم يأتِ الصينيون الذين كانوا يقفون خلف الزحام، يراقبون ما يدور، لا أتذكر اسم الحاكم حتى الآن، ولا أدري حاكم أي منطقة كان، لكن طبقاً لكلام أهل مكة قدم هذا الحاكم مئتين وخمسين ألف جنيه ذهبي للحرم، ويقولون: إنه رجل مسلم متمسك بأصول الإسلام، ويحترمه جميع الحجاج ويقدرونه، وكان هناك حرس لهم عيون حادة يقفون عن يمينه وعن شماله.

---

(١) اتبعت بريطانيا أسلوب جمع التبرعات من الهنود للمشروعات التي تقيمها لهم في الأماكن المقدسة، ومما شاع محاولتها جمع التبرعات لبناء مستشفى الحجاز، ومعارضة المسلمين ذلك.

انظر رأي يلشاعر محمد إقبال وظفر علي خان في كتاب / إقبال والعرب، سمير عبد الحميد إبراهيم ط دار السلام بالرياض.

(٢) لعله يقصد نظام حيدر آباد في الهند، وقد نشرت صحيفة أم القرى أخبار وصوله.

في الجانب الغربي من السطح فرشوا سجادة، وضعوا عليها مفارش بيضاء، وعلى المفارش وزعوا الطعام، وجلس كل ضيف في المكان المقرر له.

جلسنا على السجادة على الطريقة الآسيوية، وبالصدفة اكتشفت أنني أجلس بجوار الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية، وبدأ الحفل بخطاب الترحيب، وتبع ذلك خُطب في بيان أحوال مسلمي الهند في تلك الأيام، والطريق إلى وحدة المسلمين، وعبّر مندوب كل وفد عن رأيه، واستمر الحفل على هذه الحال، ورويداً رويداً زاد حماس الحاضرين، فذكرني ذلك بما دار في المؤتمر الديني، ووصل الأمر ببعض الناس، من فرط حماسهم، إلى سب البلدان الأوربية وشتمها بكلمات لاذعة، وكان التركيز على بريطانيا؛ مما جعل الحفل يموج بالغضب والصخب.

ووسط هذا الجو من الحماس والغضب والصخب كانت أطباق الطعام تتوالى علينا . . . طعام لذيذ جداً لم يسبق لي أن تذوقته من قبل. . . وفجأة وجدتهم يوجهون إلي بعض الأسئلة، فتوقفت الملعقة، وتوقف السكين. .

مقهى في مكة

كم عدد المسلمين في اليابان؟

كم عدد المساجد في اليابان؟

وكثيراً ما تعرضت لمثل هذه الأسئلة من قبل، والآن أيضاً أتعرض لها . .

عبر بعض المندوبين عن آرائهم تجاه اليابان، قال بعضهم على سبيل المثال:

" نحن سعداء لاستقبال مسلمي اليابان الذين يعيشون في أقوى بلد آسيوي، وسعادتنا بوصفنا مسلمين إنما هي بسبب تقدم اليابان، ونريد أن تساعدنا اليابان في المستقبل، وأن تساعدنا بقوة، حتى يمكننا التخلص من الطغاة المحتلين، نريدكم أن تكونوا بلداً قوياً جداً " .

فاضطررت إلى الوقوف، واتخذت وضعاً شبيهاً بجندي يقف تحية للعلم، وقلت:

" لا أستطيع أن أعبر بالكلمات عن مكنون قلبي . . . " وكنت كلما انتهيت من جملة واحدة قاطعني الحاضرون بالتصفيق الحاد، وهكذا كان التصفيق يتوالى بعد كل جملة، وجلست بعد عشر دقائق، وسط تصفيق استمر دون توقف لفترة طويلة، فانهمرت الدموع من عيني؛ لأنني وجدت احتراماً عظيماً وتقديراً من كل هؤلاء الناس؛ لأنني مسلم جاء من اليابان، اليابان البلد القوي، فشكرت الله لأنني ولدت في اليابان.

في مثل هذا الجو يجب أن أنتبه إلى هؤلاء الصينيين السبعة، إنهم صامتون، أحياناً أشعر بالتعاطف نحوهم، وأحياناً أشعر بالأسى من أجلهم؛ لأنهم مسلمون مثلي، ولأنهم مثلي آسيويون، فلماذا أشعر بأنهم أعدائي؟

ومن الناحية الشخصية فربما هم كأفراد لديهم آراء أفضل مما لدي وأحسن مما لدي، لكن الوقت متأخر، لقد قرروا أن يتعاملوا معي بهذه الطريقة، يا للأسف!

إني آسف من أجلهم! ورغم أنني كنت مسروراً، لكني في الوقت نفسه لم أكن أفكر في أن ألومهم، أو أعتب عليهم.

استمر النقاش لفترة، وتحدث الحاضرون عن أحوال العالم الإسلامي ومجريات الأحداث فيه.

مرض السيد/ تشان

انتهى الحفل في الساعة الثانية بعد منتصف الليل تقريباً، أردت أن أعود بسرعة، لكن عدداً كبيراً من الحضور قدموا لمصافحتي، وأرادوا تبادل البطاقات معي، ولذلك بقيت بينهم لفترة.

لم يتمكن السيد/ تشان من مرافقتي بسبب مرضه الشديد، وكنت قلقاً عليه، ولهذا كان علي أن أسرع بالعودة إليه.

ارتفعت درجة حرارته بعد ظهر اليوم إلى ٣٩ درجة، وفقد شهيته للطعام، مع شعور بالغثيان والقيء كلما شاهد الطعام.

كانوا يقولون: إن حجرتنا في الطابق الأرضي أفخم حجرة في هذا المبنى، لكنها قبل كل شيء حجرة مظلمة قليلاً، وتملؤها رائحة غريبة، تصيبني أنا أيضاً بالغثيان إذا بقيت فيها مدة طويلة، ولهذا تعاطفت مع السيد/ تشان، وهكذا قررت أن أتعاقد مع فندق مصر[1] وأنقله إلى هناك؛ لأن الطعام هنا لا يناسبه على الإطلاق.

ويجب أن أشير هنا إلى أن أهل مكة لا يسرهم أن يسكن أي شخص - غير مصري - في هذا الفندق أي فندق مصر، وهذا أمر طبيعي؛ لأن أهل مكة يكسبون

(١) انظر ما ورد في حواشي الفصل الثاني عن فندق مصر.

خلال موسم الحج عن طريق تأجير بيوتهم، وإذا سكن الحجاج في فندق مصر، الذي يديره بنك مصر، فإن أهل مكة يفقدون بعض المكاسب، ولذلك لا يستريحون لوجود مثل هذا الفندق هنا.

وقد اكتمل بناء فندق مصر هذا العام، وهو فندق على الطراز الحديث، مملوء بالأجهزة والمعدات، وهو فندق نظيف جداً ومنظم، ولولا قلقي على السيد/ تشان لما نقلته إليه، وحالته رغم ذلك لم تتحسن، فاستمر ارتفاع درجة الحرارة، وظهرت حبيبات صغيرة على جسمه، فأسرعت لإحضار الثلج، ولم أذق طعم النوم لمدة خمسة أيام تقريباً، فقد كان عليَّ واجب رعايته والاهتمام به.

كلما كنت أضع يدي على جبهته، كنت أتذكر السيد/ تناكا رحمه الله، وأتذكر المرة الأولى التي قدمت فيها للحج، فكان هذا يخيفني ويزعجني كثيراً.

ورد في كتاب السيد/ تناكا الذي كتبه عن الحج[١] أنه قدم للحج مع خمسة عشر حاجاً صينياً، تمكن من العودة معه أربعة، ومات أحد عشر أثناء الحج.

يقولون: إن عشرين بالمئة من الحجاج يموتون كل سنة، وتتسبب الحرارة في معظم الوفيات، وإذا انتشر الوباء مرة، فلا يمكن لأحد وقف انتشاره، وحدث في إحدى السنوات أن مات مئتان وثلاثون ألف حاج من بين مئتين وخمسين ألفاً[٢]، وكنت كلما تذكرت هذه الأشياء، أشعر بالخوف والرعب أكثر فأكثر..

كنت أديم التطلع إلى وجه السيد/ تشان، ظهرت حبيبات حمراء على وجهه، في حين كان جسمه ملتهباً كالنار، وأسمعه أحياناً يهذي، ربما كان يردد اسم زوجته وأبنائه.

---

(١) انظر ما ورد في المقدمة وحواشي الفصول السابقة عن كتاب الأستاذ تناكا عن الحج.

(٢) لم يحدد المؤلف هذه السنة ومع ذلك فلعل المؤلف يتحدث عن سنة قديمة جداً في فترات انعدام الأمن وكثرة قطاع الطرق (المراجع).

حين جئت للحج في المرة الأولى، كنا جميعاً أربعة: كان معي السيد كؤوري، والسيد/ هوسوكاوا، والسيد ياماموتو، ولم نستطع العودة بعد انتهاء موسم الحج؛ لأن السيد كؤوري مرض فجأة، وفقد شهيته للطعام، لم يشأ في البداية أن يبين لنا عن مرضه، وتحامل على نفسه، فزاد عليه المرض، حتى ساءت حالته، ووصلت إلى مرحلة خطيرة، ولم نستطع أن نفعل شيئاً، لخفض درجة حرارته العالية، أو وقف القيء والإسهال، كان الوضع خطيراً، واضطر السيد/ ياماموتو إلى الذهاب إلى جدة لعمل ما.

قررنا وأكدنا ضرورة المغادرة بأسرع ما يمكن، وحين سمع السيد كؤوري بالأمر قال:

ليس هذا بالقرار الطيب؛ لأننا لن نفي بوعدنا مع الشيخ عبد الله بن سليمان، ولا يمكن أن نلغي لقاءنا معه، فهو لقاء مهم، أرجوكم لا تهتموا بمرضي.

كان وجه السيد/ كؤوري قد تجعد وكأنه تقلص، وربما كان هو نفسه يتوقع الموت السريع، لكنه كان دائماً يفكر في مقابلة عبدالله بن سليمان، وهي المقابلة التي تحدد لها موعداً بعد ثلاثة أيام، فوافقناه على رغبته، وحاولنا أن نهتم به، ونرعاه، كانت هذه أطول ثلاثة أيام في حياتنا.

بعد ثلاثة أيام التقينا بوزير المالية السعودي الشيخ عبدالله بن سليمان، ولم نخرج من اللقاء بالنتيجة التي كنا نصبو إليها، وشعر السيد/ كؤوري بذلك أيضاً.

كنا قد ذهبنا إلى منزل الشيخ عبدالله بن سليمان وزير المالية بسيارة الوزير، وكان اللقاء في حديقة المكتب، شاهدنا أحواض الزهور، من حول نافورة جميلة، أراح هذا المنظر عقولنا؛ لأننا اعتدنا مشاهدة الرمال الصفراء فقط من حولنا، لفترات طويلة، كما شعرنا في الوقت نفسه أننا لا زلنا على قيد الحياة، كانت النافورة فخمة

ومن النوع الغالي الذي يعطي انطباعاً بالأبهة، وبدا الوزير كما لو كان فخوراً بها، وله الحق في ذلك.

أحضروا الطعام، وكنا نحن الضيوف الأساسيين، ثلاثة من اليابانيين مع الوزير، وثلاثة من مساعديه، ولم يكن الطعام على الطريقة العربية التقليدية، بل كان خليطاً من الطعام الياباني والغربي والعربي.

أصر السيد/ كؤوري الذي هدّه المرض لمدة أسبوع على أن يرافقنا، وكان يتصرف - بعد أن وصلنا إلى عبدالله بن سليمان الوزير - كما لو كان بصحة طيبة، ونجح في تظاهره، رغم أننا نعرف جيداً أنه تحامل كثيراً على نفسه، واحترمنا فيه هذه الروح، وقدرنا فيه هذا الجلد، فقد كان يريد لكل شيء أن يمضي على طبيعته، وكان يريد أيضاً أن يؤدي واجبه معنا.

قدم إلينا الوزير الطعام بنفسه، فأكل السيد/ كؤوري الطعام كله، كان يجب علينا أحياناً أن نأخذ الطعام من طبقه إلى أطباقنا، وبعد الطعام تكلمنا عن الحج، وعن المؤتمر الديني، ومرة أخرى نسي السيد/ كؤوري كل شيء عن مرضه، وتحمس وبدأ يتكلم ويناقش دون توقف، واستمر الحديث أربع ساعات دون توقف، مما زاد في مرض السيد/ كؤوري فساءت حالته أكثر فأكثر، وارتفعت درجة حرارته إلى أكثر من ٣٩ درجة، واستمر القيء، دون توقف كما استمر يعاني من الإسهال الشديد، ولكننا انتهينا من كل شيء تقريباً، فطلبنا السيارة لنغادر المكان، وحملنا علم المملكة العربية السعودية الذي أهداه لنا الشيخ عبدالله بن سليمان.

في مساء اليوم التالي، وقبل المغرب، غادرنا بالسيارة إلى جدة، كان على السيد هوسوكاوا أن يحمل بين ذراعيه السيد/ كؤوري، في حين كان من واجبي التحكم في السائق حتى لا يسرع على الطريق، وكان السيد كؤوري يرقد فاقداً الوعي.

كان علينا أن نبقى في جدة أسبوعاً، وهو موعد مغادرة السفينة، وفي اليوم التالي مرض السيد/ هوسوكاوا، فكان هذا بالنسبة إلي مشكلة كبيرة، فقد صار من نصيبي الآن مريضان.

انتصف الليل، وعم السكون، وكنت أستطيع سماع صوت طنين الحشرات، بدا صوتاً حزيناً جداً. . هكذا كان شعور السيد/ كؤوري على ما يبدو حين كان يسمع تلك الأصوات، كان يجب أن أضع يدي على بطنه لأدفئه، للتغلب على الإسهال الذي كان يعاني منه.

والسيد/ كؤوري دائماً رجل قوي نفسياً وجسدياً، لكنه الآن تحول إلى شخص آخر، ربما كان يتوقع الموت.

في اليوم التالي خاطبني بطريقة رسمية جداً قائلاً:

يجب أن ترحلوا قبلي، ليس لدي أمل في إمكانية عودتي، أود أن أطلب منك شيئاً، أخبر زوجتي بكل شيء، قل لها كيف كنت حتى آخر لحظة، أشعر الآن بالقلق على زوجتي وأولادي؛ لأنها سوف تقاسي وتعاني بسببي.

يرجع السبب في حزنه الشديد إلى أنه لم يقض مع زوجته معظم أيامهما كزوجين، فقد كان في الصين خمس سنوات أو ست، ولم يكن يخبر الزوجة عادة أين كان في فترات غيابه الطويلة، وهو الآن يتوقع أن يموت في الصحراء. . . يا إلهي هل هذا قدره؟!

لا يمكن بالطبع أن نرجع ونتركه، قررت أن أهتم بالمريضين حتى لو يصيبني المرض أيضاً.

كان يجب علي أن أستمر في وضع يدي على معدة السيد/ كؤوري لأدفئها، وكان علي أن أذهب للبحث عن الثلج من أجل السيد هوسوكاوا ، كما كان علي أن أذهب إلى القنصلية المصرية من أجل التأشيرة، وكان علي أيضاً أن أحجز مقاعدنا في السفينة .

كانت النقود تنفذ بسرعة وتتطاير يوماً بعد يوم، لكني لا أريدهم أن يعرفوا هذه الحقيقة، ورغم كل شيء، فالله ساعدنا ورعانا، ورجعنا إلى اليابان بشكل أو بآخر .

وها أنا الآن هنا من جديد، رجعت مرة أخرى، لقد أنقذ السيد/ كؤوري نفسه بقوته الروحية وعزيمته، لم يأكل لمدة أسبوعين كاملين، لكن منظره حين ركبنا السفينة، ومنظره حين كان يمشي إلى مكتب الجمارك، كان عجيباً لا يزال في مخيلتي حتى اليوم .

وفيات الحجاج

أنا على يقين كامل بأن قوة السيد كؤوري الروحية كان لها أعظم الأثر في شفائه، بعد عناية الله، لكن من معي الآن هو السيد/ تشان، الذي يعاني كثيراً من المرض الشديد، يبدو أنني غير محظوظ، فقد طلب السيد/ تشان العودة إلى فندق العجوز ليقيم معي، فطلبت من الرجل العجوز أن يبدل غرفتنا بغرفة أخرى، أكثر تهوية وأكثر إضاءة، وانتقلنا إلى غرفة في الطابق الثالث، وهكذا ابتعدنا عن الرائحة الكريهة، والظلام والعتمة، لكن مرض السيد/ تشان استمر كما هو، وصار من عادتي أن أتطلع من النافذة، وأتفرج على الشارع، وهذا لا يعني أنني أهرب من التطلع إلى السيد/ تشان، أو أهرب من هذا الموقف، لكنها صارت عادة على كل حال .

كانت النافذة تطل على شارع ضيق، يؤدي إلى الحرم، فكنت أشاهد المتسولين يجلسون على جانبي الطريق، وعبر هذا الشارع الضيق، كان الموتى يُحملون إلى الحرم (للصلاة عليهم)، حين كنت أشاهد هؤلاء الموتى، وكل منهم مغطى بخمسة أمتار من القماش الأبيض، كان قلبي يضطرب، وأُصاب بالرعب، فقد كنت أخشى أن يحدث هذا للسيد/ تشان، أردت أن أطرد من ذهني هذه الفكرة، لكنها الحقيقة، فذات يوم شاهدت خمس عشرة جثة، حُملت إلى الحرم.

وفي حين كنت أرعى السيد/ تشان كان عليّ أن أُلبي دعوات وفود البلاد الإسلامية، حضرت الحفل الذي أقامه الوفد المصري، و الحفل الذي أقامه الوفد الإندونيسي، وحفل المملكة العربية السعودية، وكان يجب عليّ أيضاً أن أدعوهم، فقدمت الدعوات إلى وفود الحج، دعوت ما يقرب من ثلاثمئة حاج.

حين كنت أكسر الثلج لأضعه على رأس السيد/ تشان دخل غرفتي شاب إندونيسي وخاطبني قائلاً:

هل يمكن أن تأتي معي بسرعة، هناك من يريد رؤيتك على عجل، وقد أرسلني إليك حتى تذهب معي.

كان يشد يدي عندما كنت مشغولاً برعاية السيد/ تشان، وكأنه لا يرى حالة السيد/ تشان، كما أنه لم يخبرني من الذي أرسله فقلت له:

من يريد رؤيتي ؟ ولماذا ؟ ألا ترى هذا الرجل المريض أمامك؟!

فقال:

نعم. . أفهم لكن هناك من حالته أخطر، وهو يريد أن يراك قبل أن يلفظ أنفاسه.

ورغم أنه لم يخبرني بمن يريد أن يراني، لكني شعرت أنها حالة عاجلة، فتركت السيد/ تشان، وتبعت الشاب الإندونيسي، وانطلقنا بسرعة عبر الطريق الضيق، وتجاوزنا قصر الأمير فيصل، حتى وصلنا إلى بيت أمامه جمل، دخلت البيت الذي لم يسبق لي زيارته من قبل، كانت بيتاً متواضعاً جداً.

حين دخلت، قابلني بعض الناس، وسحبوني من يدي إلى داخل غرفة، ثم قال أحدهم:

آه لقد تأخرت.

لم أفهم أبداً ما حدث، كنت فقط أقف أمام الغرفة، ووقف هؤلاء الناس مثلي أمام الغرفة، دخلت الغرفة، واتجهت ناحية الفراش، فشاهدت لأول مرة وجه رجل ميت، كان وجه رجل طاعن في السن.. صُعقت، أصبت بالذهول، كان هو.. اندفعت ناحية الجسد الملقى على الفراش..

كنت قد قابلت هذا العجوز منذ أيام في رواق الهنود، ذكر لي بؤس أهل إندونيسيا وشقاءهم، وكنا قد جلسنا متجاورين، فتحدثنا عن اليابان، وعن إندونيسيا، كان الرجل عضواً بارزاً في "الجماعة المحمدية" ويبدو أنه كان يحتل مكانة رفيعة، فقد شاهدت الشباب الإندونسيين يعاملونه بطريقة محترمة جداً.

حدثني وكأنه يتحدث بلسان الشعب الإندونيسي عن الموقف في إندونيسيا، وهاجم الهولنديين، وقال بأنه يمكن لليابان فقط أن تساعد بلادهم.

وحين ودع بعضنا بعضاً قال: إنه يريد أن يلتقي بي بعد عدة أيام، لنتحدث في بعض الأمور، بدا في ذلك الوقت في صحة جيدة، كما كان يتمتع بالحيوية والنشاط، ولكنى أراه الآن، وبعد ثلاثة أيام فقط، مُلقى أمامي جثة هامدة.. يا إلهي لا أصدق ما أرى!!

قال لي:

أريد أن تستمع إلي، أتوق إلى أن تسمع كلامي..

لكن روحه الآن صعدت إلى بارئها..

أخذت أحملق في وجهه الذي يعلو جثته الهامدة، أحسست بكلماته التي كان يريد أن يقولها لي، كنت أسمع كلماته الصامتة من شفتيه الباردتين.

بعد هذه الحادثة شعرت بانعدام الوزن..

إذا أصيب الرجل بمرض معدي هنا في الجزيرة العربية، فيمكن أن يموت خلال فترة قصيرة جداً، حتى ولو كان يتمتع بصحة جيدة... الرحمة يا إلهي.. إنها الضراوة بعينها[1]..

وصل عدد الوفيات خلال حج هذا العام إلى أكثر من عشرين ألف حاج[2]..

في الإسلام لا يجوز أن نصرخ وننتحب حين نرى الميت، فالموت أثناء أداء شعائر الحج يجب أن يُحترم، فهو شرف لصاحبه..

واندفعت عائداً أدراجي إلى الفندق، فقد أصابني قلق شديد على السيد/ تشان، لا يمكن أن أتسبب في موته.. فقد تركته منذ نصف ساعة..

تحول وجه الرجل الميت في ذهني إلى وجه السيد/ تشان..

---

(١) هذا التعبير من المؤلف غير مناسب إذ قد يفهم منه الاعتراض على القدر، ونسبة الظلم إلى الله جل شأنه (المراجع).

(٢) هناك مبالغة في عدد الوفيات.

الجواري

تعافى السيد/ تشان ـ بعون الله ـ تدريجياً خلال ثلاثة أيام، وكان هذا من حسن حظي، اختفت الدمامل، والحبيبات، وانخفضت درجة الحرارة، والآن هدأت أعصابي تماماً، إلا أن جميع مفاصلي بدأت تؤلمني . .

وفي النهاية أصبت بالمرض، لكن لا يمكن أن أرقد في الفراش، فإذا رقدت وزاد مرضي فماذا سيحدث للسيد/ تشان، ومن سيرعاه ويهتم به، وخاطبت نفسي :

سوف أصارع المرض، وسأنتصر عليه .

لا يجب أن يشعر السيد/ تشان بأنني مريض، يجب أن أتظاهر بأني صحيح الجسم، ولذلك كنت أتمشى عن قصد داخل الغرفة .

بعد مدة أخذت العجوز صاحب الفندق، وذهبنا نتمشى، ومضينا في الشارع الخلفي حتى نتجنب أشعة الشمس، وعند مكان لاحظت شيئاً عجيباً، وجدت بيتاً محاطاً بسور عال جداً، في حين البيت نفسه منخفض تماماً كأنه يتوارى في ظل السور، وكانت بوابته التي تواجه الطريق ضيقة ومعتمة، جو غريب وعجيب، حين مررت عند البوابة شعرت بأصوات غريبة، فكرت بيني وبين نفسي، لا بد أن هناك شيئاً ما، فلاحظ العجوز قسمات وجهي وقال :

لماذا لا ندخل؟

فتعجبت! لماذا يقول هذا الكلام وسألته :

ماذا يفعلون ؟ أي نوع من البيوت هذه ؟ هل يمكن أن ندخل؟

فقال العجوز :

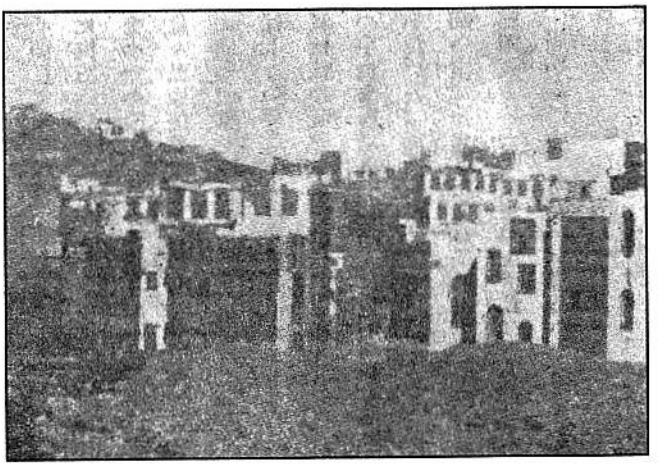

منظر في مدينة مكة

بالطبع . . هذا مكان لبيع الجواري والمملوكين وشرائهم .

وأخذت أفكر كيف يكون الحكم بالنسبة إلى معاملة المملوك في الشريعة الإسلامية؟ أعتقد أن الأمر مختلف في الإسلام، عما هو عليه عند الآخرين، وطريقة معاملة المملوكين في الإسلام تختلف عما هي عليه في أوربا، ففي الإسلام شروط خاصة[1].

دخلنا البيت . .

كان البيت ينقسم إلى قسمين :

(١) الرق موجود بكثرة في الجاهلية قبل الإسلام، ولما جاء الإسلام سعى إلى تضييق أسباب الرق فجعله محصوراً في سبب واحد هو الأسر في الحرب، وفتح الأبواب العديدة لتحرير الأرقاء وجعل تحرير الرقيق من أفضل الأعمال التي يتقرب بها المسلم إلى ربه، وتطبيقاً لهذا المبدأ العظيم صدر أمر الملك فيصل - رحمه الله - في عهد أخيه الملك سعود - رحمه الله - بإلغاء الرق في المملكة العربية السعودية وتحرير جميع الأرقاء، ومن ثَمَّ فما يذكره المؤلف عن الرقيق والجواري لم يعد له وجود منذ عام ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م تقريباً (المراجع) .

الجانب الأيسر ويسمونه "جارية" وهو مخصص لبيع الجواري، حين دخلت الغرفة كانت هناك عشرون جارية، يجلسن في ركن الغرفة، وكن جميعهن يضعن الحجاب، ولم نستطع حتى مشاهدة وجوههن.

خرج أمامنا أحد البدو، يبدو في منتصف العمر، كان يضع على رأسه مشلحاً، وتدل لحيته السوداء على أنه يهتم بها كثيراً، ووظيفته تقديم المعلومات للزائرين، وكنا قد جئنا للتفرج، لكنه ربما فكر بأننا جئنا للشراء، خاطبنا قائلاً:

ماذا تفكرون؟! يمكن أن تختاروا من تحبون.

وذهب إلى إحدى الجواري، ربما كانت تتمتع بجسم قوي، فنزع عنها الحجاب، وأرانا وجهها، شاهدت وجهها، وجه جميل جداً، بأعين سوداء ساحرة، كما أن بشرتها خمرية لامعة.

طأطأت رأسها، وابتسمت في خجل.

فتنتني حركتها تلك التي صدرت عنها بعفوية وبطريقة جميلة جداً.

مر أكثر من شهرين منذ وطئت قدماي أرض الجزيرة العربية، وهذه هي أول مرة أرى فيها وجه فتاة، كانت فتاة جميلة جداً، وفكرت للحظة:

إذا بقيت هنا للأبد، فسوف آخذ مثل هذه الفتاة.

وسألت الرجل:

كم أدفع من أجل هذه الفتاة؟

فقال:

خمسون جنيهاً، فهي أجمل فتاة من بين هؤلاء، كما أنها تنتمي أيضاً إلى أسرة طيبة.

نظرت إلى العجوز، ونظر إليّ، وأخذت أحسب المبلغ بالين الياباني، نحو ألف وخمسمئة ين، ليس مبلغاً كبيراً على الإطلاق.

طبقاً للشريعة الإسلامية، يمكن للإنسان أن يتخذ الجارية مع الزوجة، ولا يوجد علاقات معقدة، سألت العجوز بصوت خافت:

لماذا وكيف أصبحت هذه الفتاة جارية؟

فقال العجوز:

هناك أسباب متنوعة، وأكثرها حاجة الوالدين إلى النقود.

قلت له:

طبعاً في الشريعة الإسلامية ممنوع أن نبيع أولادنا أو نبيع أنفسنا؟!

قال العجوز:

نعم أعرف هذا جيداً، لكن فكر في عامة المسلمين، يجب أن نجلب السعادة للآخرين، فالوالدان الفقيران، يمكنهما أن يجدا النجاة من الموت جوعاً بعد بيع أولادهم، كما أن هؤلاء الأولاد الذين بيعوا طبقاً للشريعة الإسلامية لن يكونوا غير سعداء، أبداً. [1] نحن نسميها جارية، لكنها بشر، وهي من عباد الله، لا شك في

(١) لا يجوز بيع الأولاد في الإسلام مهما كان السبب، ولو حصل هذا الأمر من الوالدين نتيجة جهل بالاسلام أو غيره فإن هذا لا يجعل من الولد المباع رقيقاً (المراجع).

هذا، والجواري أيضاً يعدن أعضاء داخل الأسرة التي اشترتهم، وأحياناً تنال الجارية الممتازة نصيباً من ميراث سيدها، وأحياناً تتحول الجارية إلى زوجة لسيدها بشكل رسمي، ولدينا أمثلة كثيرة. كما يمكنهن في حالة موافقة سيدهن أن يتزوجن من أحد الغلمان. وهذا النظام يختلف تماماً عن النظام الذي كان سائداً في أوربا، فالجواري والغلمان هنا لهم حقوق متساوية كبشر مثلنا تماماً.

فسألته ثانية:

ماذا عن الغلام الرجل؟ ألا يكون لعبة في يد سيدته؟ المرأة يعني

فأجاب:

لا يمكن أن يحدث هذا، فهذا ممنوع في الشريعة الإسلامية، ممنوع الزواج بين الغلام وسيدته، لم يحدث هذا أبداً، وهذا أيضاً يختلف عن النظام الأوربي.

هذا الرجل العجوز لديه معلومات جيدة عن نظام المملوكين في أوربا، وهو يستقبل الحجاج كل سنة، ويحصل منهم على معلومات كثيرة، فقانون (ما ملكت أيمانهم) في الشريعة الإسلامية يطبق بحذافيره، وهو مفصل بدقة في الشريعة، ويحفظ حق الجواري والغلمان، ويفصل وضعهم القانوني، وكيفية تحريرهم وغير ذلك.

ثم ذهبت إلى حجرة الغلمان، شاهدت كثيراً من الأطفال والشباب، حين دخلت الغرفة، قال الجميع: السلام عليكم.

قالوها بصوت قوي يعبر عن قوتهم ونشاطهم.

كان شيئاً غريباً بالنسبة إلي أن أراهم سعداء جداً، فهم ليسوا مثل العبيد الذين نتخيل صورتهم في أذهاننا، ليسوا مكبلين بالسلاسل والقيود كما يظن الناس.

بدا لي هؤلاء الغلمان في سوق العبيد كأنهم في انتظار السعادة التي ستأتيهم على عجل.

بعد أن خرجنا من هذا البيت، شعرت بسعادة غامرة، لا أدري لماذا ؟ وفي الوقت نفسه ذهب عني المرض كلية ـ ماذا حدث لي؟

أمطار في مكة

الرياح الجافة الحارة في الجزيرة العربية تجعل التنفس من الصعوبة بمكان، وكان حالنا كحال القطة في الصيف لا تريد أن تتحرك كثيراً، ولكننا بعد فترة نشعر بضرورة الحركة لأننا لا يمكن أن نظل قابعين في المكان نفسه.

كنا نشتاق إلى المطر.. قال بعض الناس: لم نر المطر منذ سبعة أعوام، لكننا فوجئنا برعد وبرق، وهطول أمطار شديدة جداً بعد منتصف الليل.

استيقظت مع السيد/ تشان على صوت الرعد، وسقوط المطر الشديد، وفتحنا النافذة، وأخذنا نمد أيدينا خارجها، فأحسسنا بالمطر لأول مرة بعد ثلاثة أشهر، نعم ثلاثة أشهر، لقد جعلنا هذا المطر المفاجئ نشعر بالحنين إلى الماضي.

كانت الرياح تعصف، وتندفع إلينا من النافذة، شعرنا بشدة الريح، وشعرنا بالسعادة، التي لا أجد كلمات للتعبير عنها ، فقد شعرنا كما لو كنا في فصل الخريف الياباني.. الهواء نقي طازج يميل إلى البرودة المنعشة!

هتفت من أعماق قلبي:

إنها أمطار الرحمة..!

وقال السيد/ تشان :

إنها الأمطار التي توقعناها، أدعو الله أن تغسل هذه الأمطار جميع أمراضي وأمراض الحجاج.

أشعر براحة شديد، لم يخامرني مثل هذا الشعور حين رأيت المطر من قبل، لا يوجد ما هو أغلى وأثمن من أمطار الصحراء، لقد أصابنا اليأس، وفقدنا الأمل في إمكانية مشاهدة الأمطار هنا، وكان هذا المطر حقيقة رحمة من عند الله.

كنت أحاول أن أحتضن الأمطار، وهكذا كانت حال السيد/ تشان أيضاً، لكننا سمعنا بعض الناس يتصايحون على سطح المنزل.. ماذا حدث؟

اعتقدنا أن أهل مكة سعداء بالمطر، ولهذا صعدوا على أسطح منازلهم لمشاهدة المطر، لكن الصوت القادم من أعلى السطح يشبه صوت صراخ وصياح.. ماذا حدث؟

قال السيد/ تشان إن الصراخ والصياح ليس على سطح هذا المنزل فقط، بل أسمعه على أسطح جميع المنازل المحيطة بنا، الجميع يصرخون، أو يصيحون في خوف وهلع.

أعتقد أن هناك كثيراً من الناس فوق أسطح المنزل، جاءنا العجوز شاحب الوجه فزعاً مضطرباً وقال في لهفة:

بسرعة.. بسرعة أرجوكم استعدوا لإخلاء البيت.

لم أفهم على الإطلاق ماذا يعني؟

فكرت... يجب أن نقلق إذا داهمنا فيضان أو إعصار، لكن لا نقلق إذا جاءنا مثل هذا المطر، لم يكن المطر بالغزارة التي تجعلنا نخاف، لهذا أخذت أتعجب، لماذا القلق الشديد؟ ولماذا الخوف بهذا الشكل، وأخذت أحملق في وجهه، فصاح العجوز لأول مرة غاضباً:

أرجوك! من فضلك يجب أن تسرعوا، خذوا حاجياتكم، يجب أن نخلي البيت بسرعة.

حتى الآن لم نفهم ماذا يعني هذا العجوز المضطرب؟ فصاح العجوز:

مطر.. خطر، مطر.. خطر..

وأشار إلى السقف، فشاهدت شيئاً عجيباً، كان السقف قد تشبع بالماء، بل انسابت مياه الأمطار على أعمدة الغرفة، فصارت تسقط من فوقها كالشلال!! عندئذٍ شعرت بالفعل أنها مصيبة..!!

فهمت لماذا كان العجوز خائفاً بهذا الشكل، وأسرعنا على الفور، وتصرفنا مثله تماماً، وشاهدنا العديد من الناس على السلالم، يحاولون الخروج من البيت، وأخلينا البيت مع العديد من الناس، وامتلأ الشارع بالماء، صار كالنهر.. وشعرنا بالخطر.

أقمنا في خيمة في مكان مخصص لإخلاء الناس، ودعونا الله أن يتوقف المطر، لكننا قبل ذلك كنا في انتظار المطر، نتضرع إلى الله أن ينزل علينا المطر.. ظاهرة عجيبة، توقف المطر عند الساعة الحادية عشرة صباحاً، وظهرت الشمس، لقد نجانا الله، شعرنا بالاطمئنان وتنفسنا الصعداء.

اندفع الشباب عائدين إلى بيوتهم، وأسرع عبد الله نجل العجوز معهم أيضاً، ذهب إلى الفندق، وعاد بعد قليل ليقول:

كل شيء على ما يرام.

كرر هذه العبارة عدة مرات، وسعدنا لأننا الآن في أمان، وعدنا إلى الفندق.

لا يوجد هنا ما هو أشد خوفاً ورعباً من الأمطار، لا أدري كم من البيوت سقطت وتحطمت من جراء أمطار الأمس، وأخبرنا العجوز بأنه ربما مات بعض الناس.

رغم أن البيوت في مكة مبنية عدة طوابق، إلا أن أساسها ضعيف جداً، فهم لا يستخدمون إلا الأعمدة الخشبية في البناء، ولهذا فإذا ما تعرضت لأمطار غزيرة كأمطار أمس، فسوف تتلاشى أولاً الجدران المشيدة بالطين، بعد أن تتساقط تدريجياً، وعادة لا يفكر أصحاب المباني المقامة في المناطق الحارة في البرودة، وهذا شيء طبيعي، كما أن أهالي بعض جزر إندونيسيا يجب أن يفكروا طول الوقت في العواصف الممطرة والأعاصير، ولهذا يبنون بيوتهم، وفي أذهانهم فكرة ضرورة مواجهة الأعاصير، أما في مكة فلا توجد أمطار، ولهذا لا يفكر الناس هنا، حين يبنون بيوتهم، في كيفية مواجهة الأمطار الغزيرة.

والعجيب أن الناس في الصحراء، رغم أنهم يعيشون في وسط الرمال الحارة، فهم لا يريدون التفكير في قيمة الأمطار، لا أظن أنهم يجهلون قيمة المطر فبسبب المطر تنمو الأشجار، وتزهر، ثم تثمر ثماراً وفاكهة، وأيضاً ستنمو الحشائش، ألا يعرفون هذه الحقائق.. ؟! أو ربما يساورهم نوع من الخوف من الأمطار، وظاهرة أنهم ليس لديهم كثير من الأمطار تجعلهم لا يفكرون في إيجاد ما يساعدهم على مواجهة هذه الأمطار، فليس لديهم معدات أو وسائل تقيهم خطر المطر، ولهذا إذا داهمهم المطر كما حدث بالأمس، أصابهم الهلع والخوف على الفور، هذه هي نقطة الضعف فيهم، فالمطر بالنسبة إليهم عدو.

قال العجوز:

في يوم من الأيام كان لدي ثلاثون بيتا، لكنها تساقطت واحداً تلو الآخر، كلما تعرضنا لمثل مطر الأمس، والآن لم يبقَ لي سوى عدد قليل فقط.

ثم استطرد قائلاً:

مطر الجزيرة العربية مرعب ومخيف.

يجب علي الآن أن أصحح أفكاري، فقد كنت أظن المطر رحمة من الله في جميع الأحوال.

وجدت نفسي في الوقت نفسه، أتعاطف مع هؤلاء الناس الذين يعيشون في هذه المنطقة، والذين لا يعرفون قيمة المطر.

الباب السادس

بلوغ المرام

العودة

وأخيراً سنرجع . . .

تحسنت حالة السيد/ تشان يوماً بعد يوم، كما أن الحمّى التي أعاني منها تبدو غير خطيرة، وهكذا نشعر أننا مستعدون للعودة، شكرت أصحاب الفندق شكراً جزيلاً على كل الخدمات التي قدموها لنا . .

في الليلة السابقة لرحيلنا، أقاموا لنا احتفالاً كبيراً، وفي هذا الاحتفال أيضاً قدمنا لهم جزيل شكرنا وامتناننا، على خدماتهم الطيبة، وعلى رعايتهم لنا، أقاموا لنا في هذا الاحتفال مأدبة كبيرة، يتوسطها خروف كامل، ورتبت الأطباق وزينت بقطع البطيخ الأحمر، كان عبد الله حزيناً جداً ومتأثراً لرحيلنا في اليوم التالي.

كان يهتم بنا من صميم قلبه، ويرعانا بكل مشاعره، أخذ يقطع لحم الخروف، ويقدمه لنا، إلا أننا كنا لا نزال في دور النقاهة، ولذا فقدنا الشهية للطعام، وكنت حزيناً لهذا السبب.

أحضر العجوز كتاباً كبيراً ملفوفاً بورق أسود، وقدمه لنا قائلاً:

هذا الكتاب هدية تذكارية.

وبيَّن لنا أن الكتاب يتضمن جميع المقالات الصحفية التي نشرت في السنوات الأخيرة، أي السنوات الأخيرة من حكم الشريف حسين، وبخاصة تحركات "لورانس" وإعلان الشريف حسين نفسه خليفة، ودخول الملك ابن سعود الحجاز.

شكرته كثيراً على هذه الهدية القيمة، كما أعطانا العالم المكفوف طوابع قديمة ترجع إلى العهد السابق للحكومة الحالية من بينها الطابع التذكاري الذي صدر بمناسبة إعلان الشريف حسين نفسه خليفة، والطابع التذكاري لحاكم جدة (الحالي)، بالإضافة إلى بعض الطوابع التي صدرت إبان خضوع المنطقة للحكم التركي، كانت هذه هدية غالية جداً بالنسبة إلي.

أما الفتيات اللاتي كن في الحريم، فقدمن لي عن طريق عبد الله هدية جميلة، عبارة عن مشغولات يدوية، كما أننا تناولنا الطعام الذي صنعنه بأيديهن، لم أر أياً منهن، لكني شعرت تجاههن بشعور ما، غداً يجب أن أغادر هذا المكان، ومن هنا يجب عليّ أن أودع الجميع هنا.

آوينا إلى الفراش في منتصف الليل، لنقضي آخر ليلة، سمعنا أذان الفجر، الذي تستيقظ عليه مكة كلها، نهضنا من الفراش وتوضأنا، وذهبنا إلى الحرم، وصلينا وطفنا طواف الوداع، خلف مطوع محترف، وبعد ساعتين حان وقت الرحيل.

جاء العجوز، وجاء عبد الله أيضاً لوداعنا حتى بوابة مكة، انتهت لحظات الوداع عند البوابة، وأخذنا تصريح العودة.

الآن نتجه إلى جدة، وفجأة قدم إلينا رجل هرم، بسيط، أرانا ورقة صغيرة وهو يقول:

لقد أخذت هذه الورقة من الحجاج الصينيين، هل تعرفون قيمة هذه الورقة المالية؟

لم أفهم على الإطلاق، لكن السيد/ تشان حين رأي الورقة قال:

إنها ليست ورقة مالية حقيقية ، في الصين تقوم أسرة الميت بإعطاء هذه الورقة لكل من يحضر العزاء، هذا هو معنى هذه الورقة، لكن لا قيمة لها على الإطلاق.

وبدا العجوز مضطرباً حزيناً، فشعرت بالأسف من أجله، فعطفت عليه، وأعطيته بعض النقود الفضية، فابتسم مسروراً.

انطلقت السيارة في الطريق الصحراوي . .

رأينا العديد من الأشباح . . شبح ثعلب هزيل ظهرت عظامه من وراء جلده، وشبح بعير يتعثر على وشك الموت، شاهدنا هذه الأشباح على جانبي طريق الحج، وشاهدنا حجارة كثيرة متفرقة تدل على الموتى من الحجاج الذين كانوا يعبرون هذا الطريق[1].

الرحيل من جدة

كلما انتهيت من مرحلة من مراحل هذا السفر، كنت أشعر بالرغبة في العودة سريعاً، لكن الإنسان هنا لا يمكنه أن يفعل ما يريد.

بعد أن وصلنا إلى جدة، أسرعنا إلى القنصل المصري للحصول على تأشيرة دخول الأراضي المصرية.

لا يسمحون بركوب أول سفينة تغادر جدة إلا للحجاج المصريين فقط، ولهذا كان علينا أن نركب السفينة التالية، هذه هي القواعد المعمول بها في أيام الحج، فسفينة الحجاج الأولى يجب أن تقدم تقريراً صحياً عن حالة الحجاج المصريين،

(١) لعل المؤلف - رحمه الله - مر بجوار مقبرة عامة ظن أنها مقبرة خاصة بموتى الحجاج (المراجع).

الذين سينزلون في "الكرنتينة" الكائنة في جبل الطور في شبه جزيرة سيناء، فإذا ما تأكد المسؤولون من عدم وجود أوبئة أو أمراض معدية، كتبوا تقريراً، عندئذٍ تغادر السفينة التالية من جدة.

وواجهتنا مرة أخرى مشكلة الحصول على تأشيرة للسيد/ تشان؛ لأنه من منشوريا، لكن القنصل المصري سمح بإعطائه تأشيرة دخول، وفرحنا جداً لأن مصر اعترفت بمنشوريا.

سوف نغادر جدة خلال ثلاثة أيام، ذهبنا لنتمشى على شاطئ جدة، يمكن أن نرى بعض الهضاب الصخرية القريبة من الشاطئ، عند هذه الهضاب شاهدت مباني بيضاء، هذه "فيلات" بناها أهل جدة، ويطلق على المنطقة اسم "بغدادية" ويقال إنها جنة في الصيف.

وفي مواجهة الشاطئ مكاتب وقنصليات بريطانيا والاتحاد السوفيتي، ومصر وهولندا وإيطاليا وفرنسا[1] فقد شاهدت أعلام تلك البلاد ترفرف على تلك المباني، وحزنت حين كنت أشاهد تلك الأعلام، فلم أجد من بينها علم اليابان، شعرت بالأسى، وكأنهم نسوا اليابان أو أهملوا ذكرها.

---

(١) في الحقيقة اهتم اليابانيون منذ تأسيس المملكة العربية السعودية على يد الملك عبد العزيز بالوضع في جزيرة العرب، ونشاط الدول الأخرى، وبخاصة ما تقوم به سفاراتها في جدة، واهتموا بحركة النقل بالسيارت وتسهيلات حكومة الملك عبد العزيز، وحصول الأجانب على أراض لإقامة مصانع، ونشاط الملحق الزراعي الروسي، والشركات التجارية التي يديرها أجانب وبخاصة في جدة ومكة والمدينة، ويركز تقرير ياباني قديم على شركة نقل السيارات موضحًا أن ابن سعود يريد الآن أن يطور بلاده، ويطبق التقدم الأوربي، لكنه في الوقت نفسه يريد أن يحافظ على ثقافته الأصيلة وأخلاقيات بلاده الجليلة عن طريق عقد اللقاءات الدينية والاستفادة من علماء الدين الذين يعملون معه في الحكومة.
كما أشار التقرير إلى مباني السفارات الأجنبية في جدة.
تقرير القائم بأعمال القنصل في بورسعيد "ساتو" إلى الوزير بوزارة الخارجية البارون تناكا في ١٣٤٦هـ/ ١٧ ديسمبر ١٩٢٧م قسم أوربا وأمريكا (ملف رقم ١٩/ ٦/ ٦٠٠).

في جدة رافقنا ابن صاحب الفندق الذي نزلنا فيه، كان يدعى يوسف، وهو يختلف عن عبد الله الذي كان يرافقنا في مكة، فهو شاب ذكي، وهو فخور بنفسه؛ لأنه عاش في إيطاليا يدرس لمدة سنة، وهو يهتم كثيراً بهندامه، وملابسه، وسلوكه العام، يتكلم الإنجليزية، ولكن ليس بطلاقة، كما يستخدم أو يحشر الكلمات الفرنسية في حديثه، له شارب تحت أنفه، ويبدو من هيئته العامة أنه رجل "جنتلمان" لكن قد يتعجب القارئ، فعمره خمس عشرة سنة وأربعة أشهر فقط، الشباب في مثل عمره عندنا لا يزالون في المدرسة المتوسطة (الإعدادية) والأكثر عجباً من هذا أنه متزوج بزوجة عمرها اثنتا عشرة سنة فقط، أخبرنا بأن أمله الذهاب إلى اليابان للدراسة، ثم قال لي:

اليابان هي ولي أمر آسيا، أنتم مثل آبائنا.

ثم سألنا:

هل قابلتم يوسف ياسين؟

فقلت:

رأيناه حين قابلنا الملك، لكن لم نتكلم معاً.

فقال يوسف:

ياسين مثل سكرتير الملك، وهو يتمتع بنفوذ كبير، لدى الأسرة المالكة، مثله مثل فؤاد حمزة.

كان الشاب يتكلم بكلام أكبر من سنه، وطريقته في الحديث تعطيك انطباعاً بأنه أكبر من عمره الحقيقي، وقال:

هل سمعتم آخر الأخبار، يقولون: إن بريطانيا دفعت ثمانين مليون جنيه لتحصل على حقوق التنقيب عن الذهب في "مهد".

ومهد اسم مكان قريب من شاطئ البحر الأحمر، وهناك شائعات بين الناس بوجود مناجم ذهب في المنطقة، استمر يوسف في الكلام فقال:

بالطبع استثمر البريطانيون خمسمئة ألف جنيه، لكنهم يعرفون منذ البداية أنهم لا يمكن أن يحصلوا على فائدة من ذلك، إنه مشروع لا يدر عليهم أي ربح، وهدف بريطانيا ليس مناجم الذهب، لكن هدفها السيطرة على الطريق الساحلي في منطقة البحر الأحمر، ومعظم هذه النفقات، صرفت على المعدات التي تنصب على ساحل البحر الأحمر، وربما تهدف بريطانيا إلى إنشاء ميناء حربي ملاصق للشريط الساحلي الذي يمهدون له الآن..

قال هذه العبارات بسخرية، وبطريقة جعلتني أرى فيه رجلاً أكبر سناً من الشاب الذي يقف أمامي الآن.

في الليل زرنا بيت الشيخ عبد الله موسى، الذي نزلنا فيه حين جئنا في الحج الأول مع السيد تناكا، شعرت أن من واجبي الذهاب للسلام عليه، وكنا أمام بيته، وتملكني شعور بالحنين إلى ذكريات الماضي، من مدخل باب البيت شاهدت الصينيين السبعة، جالسين على المقاعد المصفوفة أمام البيت، كانوا يرتدون زياً حجازياً، وكانوا يتكلمون مع عبد الله موسى، الرجل الطويل جداً، والذي يشبه الزرافة[1].

حين اتجهنا إليه، تعجب الصينيون كثيراً ودهشوا، وبدؤوا يصوبون إلينا نظراتهم العدائية، لم أبادلهم تلك النظرات العدائية، وتجاهلتهم تماماً، ووقفت أمامهم في عزة وفخار.

---

(١) جاء في الأصل طائر الكركي.

ولد عبد الله موسى في بخارى، التي تقع ضمن حدود الاتحاد السوفيتي، فهو من تركستان، ولهذا فهو مسؤول عن وفود الحج الصينية، ومن هنا يعد وجود الصينيين شيئاً طبيعياً.

أخذت أتطلع إلى المبنى العالي من أمامي، هناك في حجرة قريبة من سطح البيت كنت أتولى رعاية السيد/ كؤوري، والسيد/ هوسوكاوا لمدة أسبوعين تقريباً، كنت أتذكر هذا الوقت العصيب، يجب أن أحتفظ بهذا سراً؛ لأنهم كانوا قد أصيبوا بمرض وبائي، وطلبت من عبد الله موسى أن يحفظ هذا السر، ولا يبوح به لأحد أبداً، فأعطانا تلك الغرفة القريبة من سطح البيت، وهكذا حفظت لنا تلك الغرفة سرنا، لكني أذكر أنني واجهت فترات عصيبة حين كنت أتولى رعاية الاثنين معاً. . ولا أزال أتذكر تلك الفترات العصيبة. . .

كان لدينا متسع من الوقت يسمح لنا بالسلام عليه.

حين وصلنا إلى الميناء، عرفنا أن هناك حفلة سيقيمها غداً الوزير عبد الله بن سليمان، وعند الميناء، شاهدنا السفينة التي سوف تقلنا، وهي السفينة "كوثر"[1].

معرض المنتجات اليابانية

جاء وزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان لوداعنا حين هممنا بمغادرة مكة متجهين إلى جدة، وبالطبع لم يأت خصيصاً من أجلنا، لكنه جاء أصلاً للترحيب برئيس بنك مصر "طلعت باشا"، وكان من بين أهدافه أيضاً عقد اجتماع معنا لأطول مدة ممكنة، فقد كان يرغب في تطوير التجارة بين اليابان والمملكة العربية السعودية.

(١) ورد خبر عن جنوح السفينة كوثر، كما جاء ذكر حركة مغادرتها أيضاً في صحيفة أم القرى.

تحدثنا عدة مرات في هذا الموضوع أثناء وجودنا في مكة قال:

كما تعلم لدينا ثقة كبيرة في المنتجات اليابانية وحكومتنا هنا توصي بصفة خاصة بضرورة الاستيراد من اليابان، كما أننا نخفض "التعريفة الجمركية" بالنسبة إلى البضائع اليابانية، مما أثار غضب بريطانيا، وهي تريدنا أن نساوى بين بضائع البلاد المختلفة في نسبة التعريفة الجمركية، وتلح في هذا الطلب بشدة، لكن المملكة العربية السعودية بلد مستقل، يتمتع بالحرية، واقتصاده المستقل، خاضع للجنة وزير مالية جلالة الملك ابن سعود فقط، ولهذا لا يمكن لأحد التدخل في شؤوننا، فهذا أمر داخلي يخص بلدنا.

ثم استطرد قائلاً:

كما يعرف الجميع بلدنا - لسوء الحظ - ليس فيه مصادر دخل، ومن أهم أعمال وزير المالية الآن استيراد منتجات جيدة على أعلى مستوى، وبأرخص ثمن، وأعتقد أن منتجات بلادكم أجود منتجات في العالم، ولهذا يجب أن نطور العلاقات التجارية بين بلدينا.

وكما قال الوزير فإن الجزيرة العربية مملوءة بالمنتجات اليابانية، وهي مقبولة ومحبوبة تماماً بين أهل البادية، الذين صاروا يفضلون المنتجات اليابانية ويحبونها كثيراً.

أثناء أدائنا لشعائر الحج طلب منا كثير من حجاج البلدان المختلفة أن نبلغ رغبتهم إلى المسؤولين اليابانيين، وقالوا إذا لم تتمكن اليابان من مساعدتهم عسكرياً فيجب على اليابان أن تساعدهم اقتصادياً، فهم بحاجة إلى المساعدة العسكرية، وقد خططوا بالتفصيل وبطريقة جيدة لكيفية تطوير التجارة مع اليابان.

وقالوا لي أيضاً: نحن المسلمين أفضل "زبائن" للمنتجات اليابانية، وبالطبع لا أقدم إحصائيات معتمدة، لكن مندوبي أربعة وعشرين بلداً حين تكلموا عن أفضل المنتجات، ذكروا دائماً المنتجات اليابانية.

وفيما يتعلق بالمنتجات اليابانية أثار هؤلاء تساؤلات مهمة جداً، فقال أحد الحجاج:

لماذا لا يملك التجار اليابانيون معلومات عن الإسلام؟ إنهم لا ينتجون أشياء تتعلق بأمور حياتنا الدينية، وإذا وجدنا منها شيئاً، يكون بالصدفة، فالتجار اليابانيون يفكرون في اليابان واليابانيين فقط، وينقصهم فهم دين البلدان الأخرى.

وتأسف بعضهم، في حين قال آخر:

إذا أردتم أن تطوروا التجارة وتفتحوا أسواقاً جديدة، فلا يكفي أن تجذبوا التجار فقط؛ لأن مستهلكي المنتجات اليابانية ليسوا التجار، وإنما نحن المستهلكين المسلمين، فإذا لم تكن لديكم معلومات كافية عن الناس في بلد ما، فلا يمكنكم أن تفتحوا أسواقاً في هذا البلد أو تطوروا تجارتكم فيه، وإذا لم تعرفوا دين هذا البلد، فلن تعرفوا شيئاً عن شخصيات أهله ومتطلباتهم.

وقال ثالث:

نحن محتلون من قبل دولة نصرانية، وهي تسيطر على معظم التجارة في بلدنا، ويجب أن تفكر اليابان ملياً في هذا الأمر.

وقال رابع:

ليس عندكم في اليابان شركة تجارية خاصة بالشعوب الإسلامية، الآن لديكم مستهلكون مسلمون، يجب أن تكون لديكم شركة خاصة بالمسلمين فقط.

كنت أتذكر هذه الكلمات التي سمعتها من وفود البلدان الإسلامية، بعض الناس كانوا يتملقون، وهم يُثنون على المنتجات اليابانية، أعرف هذا، لكن بعضهم كان جاداً وأخذ ينتقد المنتجات اليابانية.

قال بعضهم:

الحكومة اليابانية تهتم بالكم، لكنها لا تهتم بالكيف أي بالمواصفات والسعر.

لا يمكن أن أذكر شيئاً مما قيل، وأعتقد إذا كان لدينا أربعمئة مليون مسلم مستهلك فهذا شيء عظيم يفوق كل تصور ممكن.

وليس هذا بالأمر المستحيل في المستقبل، ربما يمكن أن نتوقع هذا، ومن هنا يجب أن نفكر جدياً فيما قالوا، ويجب أن نجعل هذا الأمر حقيقة واقعية بأسرع ما يمكن.

لقد قدم وزير المالية الشيخ عبد الله بن سليمان اقتراحاً وجيهاً حين قال:

لماذا لا نقيم معرضاً للمنتجات اليابانية؟

وأصر على ضرورة تنفيذ هذا الاقتراح.

كما قلت يأتي هنا خلال موسم الحج ما يقرب من مئة وخمسين ألف حاج من جميع أنحاء العالم، فإذا كان لدينا في موسم الحج نحو أربعمئة ألف أو خمسمئة ألف حاج، فكم من الناس سيشاهدون هذا المعرض، ثم يعودون إلى بلادهم، التي يبلغ عددها ما يقرب من أربعة وعشرين بلداً، ربما سيشترون بعض الهدايا لأسرهم،

ووجود معرض المنتجات اليابانية سوف يمتد تأثيره إلى تلك البلدان، حين يحمل هؤلاء الحجاج المنتجات اليابانية هدية من الأماكن المقدسة إلى أقاربهم وأصدقائهم.

أتمنى حقيقة أن يقام هذا المعرض بأسرع ما يمكن.

صافحت الشيخ عبدالله بن سليمان بحرارة شديدة، وشددت على يده، لأعبر له عن موافقتي على اقتراحه الوجيه، وأتذكر أنني سمعت في الغرفة التجارية بأوساكا حقيقة واقعة، مفادها أن نحو سبعين في المئة من الصادرات سوف تذهب إلى البلدان الإسلامية، التي يصل عددها في آسيا إلى نحو ثلاثمئة مليون نسمة، وهؤلاء جميعاً من المستهلكين، ومن المستبعد أن يتحولوا إلى منتجين[1].

أتمنى أن تدرس اليابان الإسلام، وأتمنى أن تدرس كل ما يتعلق بالشعوب الإسلامية بطريقة جيدة، وبدقة، عندئذٍ سيزدهر مستقبل التجارة اليابانية، ويقفز قفزات وقفزات سريعة.

أشعر الآن بذبذبات محرك السفينة تنتقل إلى جسدي.. لا يزال أمامي واجب يتحتم عليَّ القيام به، يجب أن أذهب إلى تركيا عبر فلسطين[2] بعد أن أصل إلى الأراضي المصرية، لكني لا أستطيع أن أفكر الآن في أي شيء، فقد غلبني النوم..

الكرنتينة (الحجر الصحي) في جبل الطور

أخذت أشاهد جبال سيناء وكأنها صورة مرسومة على صفحة السماء الزرقاء

---

(١) يؤكد المؤلف أن هذه الشعوب لن تتجه إلى عملية الإنتاج، وأنها ستظل شعوباً مستهلكة لما تنتجه الدول الصناعية الكبرى.

(٢) كانت هناك علاقات خاصة تربط اليابان بتركيا، انظر الدراسة الخاصة في مقدمة الرحلة اليابانية للجرجاوي صفحة ٣٣ وما بعدها، اهتم بنشرها وقدم لها وعلق عليها د. سمير عبد الحميد إبراهيم طبع ونشر مؤسسة الرسالة - بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

الصافية، و"الكرنتينة" أو مكان الحجر الصحي في جبل الطور على الساحل الغربي في شبه جزيرة سيناء، حيث يخضع الحجاج القادمون من الأماكن المقدسة للفحص الدقيق.

والسفينة "كوثر" التي أقلتنا تعمل على الخط الملاحي الذي يربط بين جدة و"الكرنتينة" في جبل الطور، وحين نصل إلى جبل الطور، يجب أن ننزل مع جميع أمتعتنا.

كان الناس في السفينة قد فقدوا التوتر الذي كان يعتريهم، وانتهى الشد العصبي الذي كان يسيطر عليهم، وبدت الراحة على وجوههم واضحة، وتلاشى القلق، إلا أنهم كانوا في شوق عارم للوصول إلى بيوتهم، وحين تركنا هذا المكان من قبل، أثناء توجهنا إلى جدة في طريقنا لأداء مناسك الحج، كنا في غاية الحماس، لكنى أرى الجميع الآن هادئين، وهم جميعاً بلا استثناء فخورون بأنهم أدوا فريضة عظيمة، وهم سعداء، كما أنهم نالوا بذلك شرفاً عظيماً، ولقباً محترماً، هو لقب "الحاج" الذي يذكر عادة قبل اسمه.

كانوا جميعاً يريدون الوصول إلى بيوتهم بأسرع ما يمكن، حتى يراهم الناس، بعد أن تشرفوا بلقبهم الجديد، لكن طبقاً لقواعد الحجر الصحي يجب البقاء هنا ثلاث ليال، ولهذا يجب أيضاً أن ينسوا هذه الرغبة في العودة بسرعة إلى ديارهم، فهذه هي القواعد.

نزلت مع السيد/ تشان من السفينة بهدوء شديد، شعرنا بجو فصل الخريف في اليابان، كان البحر جميلاً صافياً، كنا نستطيع مشاهدة أعداد كبيرة من الأسماك تسبح في الماء، ورأينا أيضاً كميات كبيرة جداً من سمك السردين فقال السيد/ تشان:

يا تُرى هل يوجد هنا سمك "البينيت" (الأسقمري)[١]؟

فقلت له :

بالطبع يوجد، لكن لماذا تسأل هذا السؤال؟

فقال :

إذا وجد البينيت هنا، وهو الذي يعيش على السردين، فمعناه أن المكان غني بالثروة السمكية.

اليابانيون يحبون كثيراً سمك البينيت، والسيد/ تشان يعرف أن البينيت يتغذى على السردين، لقد اكتشفت أن معلوماته عن الثروة السمكية جيدة، قال لي السيد/ تشان فجأة :

يا سيد سوزوكي! لا تنظر إلى السفينة لأن الصينيين هناك، يريدون أن يلتقطوا صوراً لنا.

كان أمراً غريباً، وعجيباً في الوقت نفسه، فقد قابلنا هؤلاء الصينيين صدفة في قنصلية المملكة العربية السعودية، ثم قابلناهم أكثر من مرة في أيام الحج، وحتى في نهاية الرحلة علينا أن نراهم أيضاً، وكأننا مربوطون معاً بخيط واحد.

كنت أشعر بالخوف أثناء وجودنا هنا في الحجر الصحي بجبل الطور، فهم يضعون كل مئة شخص في مجموعة واحدة، ويبقى هؤلاء المئة في حجرة محاطة بسياج حديدي، كما لو كنا مجموعة دجاج في قفص، ماذا لو وضعونا مع هؤلاء

(١) يطلق عليه اليابانيون سمك "الكاتسو" (Katsuo)، وهو من فصيلة (الأسقمري).

الصينيين؟ ماذا عسانا أن نفعل؟! كان هذا الأمر يقلقني فعلاً، ومن هنا اندفعنا بسرعة مع مجموعة من الحجاج السوريين إلى مكان الفحص والتوزيع.

وأمام مكتب صغير فحصوا رقم غرفتنا، ودققوا في تأشيراتنا، ثم أعطونا رقماً مكتوباً على قطعة من المعدن، والآن أصبحنا نعرف من سيأتي معنا، ولحسن الحظ لم يكن الصينيون ضمن مجموعتنا.

مضينا خلف ضابط الحجر الصحي، وشكلنا صفاً واحداً، ثم دخلنا الغرف المخصصة لنا، كما لو كنا مساجين يقادون إلى زنزانة.

وقد بني هذا المبنى في الصحراء، على النظام الأوربي، وللمبنى سقف أحمر مصنوع من قوالب الطوب، كان علينا أن نفصل أمتعتنا، وأن نخلع جميع ملابسنا! ثم نمر من غرفة "التبخير" وبعدها نأخذ حماماً، ثم يقومون بتطهيرنا ببعض المطهرات، ومن ثَمَّ نتسلم أمتعتنا، التي يتم تطهيرها أيضاً.

ومن الشروط ألا نختلط بعد ذلك بأي مجموعة أخرى، وكانت المسافة الفاصلة بين كل مجموعة وأخرى قرابة ثلاثمئة متر، وتوجد أربعة "كبائن" على شكل مستطيل، محاطة بسور، والغرفة ليست سوى جدران أربعة مسقوفة، ولا شيء غير هذا، فشعرت فعلاً أنني أصبحت مثل الحيوان.

كان هناك شيء أشبه بالفراش، ويوجد منه عشرون في كل غرفة، يمكن استخدام هذا الفراش من قبل الأغنياء فقط، ورغم أنه فراش متواضع للغاية، لكن كان علينا أن ندفع جنيهاً مقابل تأجيره لثلاث ليال، أما الثمانون الآخرون الذين لن يستأجروا فراشاً، فيقومون باستخدام فرشهم الخاصة بهم، فينامون عليها إذا ما شاؤوا، ورغم ذلك عليهم أن يدفعوا "مليمين" مقابل النوم.

وداخل السياج الحديدي كان هناك أربع "كبائن" ودورتا مياه، ودكان يبيع الطعام، والأشياء الضرورية، كما كانت هناك مياه خاصة بالشرب.

لا يوجد لدينا ما نفعله على الإطلاق خلال هذه الأيام الثلاثة، أظن أننا بالفعل نعيش حياة المساجين، كنت أخرج أحياناً من بين الجدران الأربعة، وأنظر من خلال السياج المحيط بنا.. وكان الطبيب يأتي مرة كل يوم ليأخذ قراءة درجات الحرارة، ولا بد أن أذكر أنهم أخذوا منا "عينات البراز" حين وصلنا.

أصبح كل فرد هنا مصاباً بالبلادة والبلاهة في الوقت نفسه، يرقد فقط، لا يفعل شيئاً على الإطلاق، فقد كنا جميعاً في حالة انتظار.

أمكنني أن أرى السقف الأحمر لمكتب الحجر الصحي من خلال السياج المحيط بكبائننا، كما رأيت أيضاً خمسين نخلة خضراء، أعطتني هذه النخلات شعوراً بالراحة، وقللت من شعوري بالملل.

كنت قلقاً جداً؛ لأنهم إذا وجدوا شخصاً واحداً مصاباً بأي مرض وبائي من بين المئة شخص، فهذا يعني أننا جميعاً نتحمل المسؤولية، فكنا إذا رأينا من بيننا شخصاً شحب وجهه أو اصفر، أُصبنا جميعاً بالخوف والذعر، ومنا من كان وجهه يكفهر؛ لأن هذا يعني بقاء الجميع هنا لمدة شهرين!! سأصاب بالجنون بلا شك!!

كنت أفكر جدياً في هذا الأمر!!

وفي النهاية جاء اليوم الثالث! وكان على غير العادة، يوماً عاصفاً، اشتدت فيه الريح، وشاهدت عجوزاً سورياً يدعو الله بصوت عال، وظهرت النتيجة!! وتنفسنا الصعداء.

فالآن سنعود، سنرجع إلى الديار، لن نمكث شهرين، ولن نبقى بين الأسوار.

ارتسمت البسمة على الوجوه، وبدا السرور على المكان كله، وامتلأت القلوب بالفرحة والسعادة.

وصلت السفينة إلى الرصيف، كانت السفينة زمزم في انتظارنا، وهي الآن مستعدة لتحملنا إلى مدينة السويس، شاهدت الصينيين بين الزحام، كانوا سعداء مثلنا، وعلى كل حال فأنا أعدهم من عباد الله مثلي، وهم طيبون أيضاً، فقد شعرت بذلك حين رأيتهم، كنت أخشى أن يجدوني هنا؛ لأنهم حين يجدونني يتلاشى من داخلهم شعورهم الإنساني النقي، ويملؤهم الشعور الشيطاني العدائي، ولهذا رغبت في أن يظل هؤلاء بشعورهم الإنساني النقي الطاهر، وأيضاً لا أريد أن تنتابني الآن مشاعر العداء تجاههم.

العالم يتقدم لحظة بلحظة.

والله كريم يمد يد العون لعباده الطيبين.

ويعز الله بنصره من يشاء.

والله يحيط المؤمنين برعايته.

أعتقد أن هؤلاء سيصححون مفاهيمهم في المستقبل، سوف يطردون من داخلهم مشاعر العداء القبيحة، وربما جاؤوا إلينا، ومدوا أيديهم لنتصافح، ونتعاون معاً، فنحن لا نريد الدمار، ولا يمكن للإنسان مهما كان أن يقف أمام مشيئة الله..